

الأزمة السودانية المستدامة

حزمة مقالات عن الأوضاع السياسية بالسودان

وما يتقاطع معه من بلدان الشرق الأوسط خلال الفترة 2015-2017

الفاضل عباس محمد علي

الفاضل عباس محمد علي: الأزمة السودانية المستدامة
حزمة مقالات عن الأوضاع السياسية بالسودان
وما يتقاطع معه من بلدان الشرق الأوسط خلال الفترة 2015-2017

الحضارة للنشر

11 شارع نوال - الدقي 12311 - القاهرة

Al-Hadara Publishing
11 Nawal Street, Dokki 12311, Cairo, Egypt

Mobile: (20-122) 316 48 67
facebook/alhadara.books

الطبعة الأولى: أبريل 2017
رقم الإيداع بدار الكتب 2017/7378

ISBN: 978-977-476-263-9

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الأزمة السودانية المستدامة

حزمة مقالات عن الأوضاع السياسية بالسودان
وما يتقاطع معه من بلدان الشرق الأوسط خلال الفترة 2015-2017

oboiikan.com

تقديم

بين يديك أيها القارئ الكريم مجموعة مقالات تم نشرها بالصحف الإسفيرية خلال العامين ونيف المنصرمة، ونهدف من تجميعها وترتيبها هاهنا تسهيل بلوغها لمن لم تتيسر له الشبكات العنكبوتية، خاصة أهلنا داخل الوطن؛ وكذلك نهدف لتوثيق ما أوردنا من دراسات وبيانات وتحليلات بشكل ورقي صلب أيضا **hard copy** كمزيد من التحوط حتى لا تذهب أدراج الرياح. ولقد ظللت أساهم برأيي المتواضع في الأحداث السياسية السودانية طوال الفترة الماضية، داعياً الحكومة والقوى الوطنية كافة للانتباه للمخاطر الجسيمة التي تحيط ببلادنا، ومطالباً بتوحيد الجهود للخروج من النفق المظلم الذي أدخلنا فيه الإخوان المسلمون منذ ما يقارب الثلاثة عقود، وللتوجه فوراً ودون أي مناورات أو تمويه أو ماطلة أو أكرويات سياسية نحو إيقاف الحروب الأهلية التي ترزم وترعد بدار فور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق، ونحو الديمقراطية الليبرالية المفضية للحكم الراشد وللعدل وعفة اليد والشفافية والالتزام بحقوق الإنسان؛ ونحو التبادل السلمي للسلطة كل بضع سنوات، ونحو ترسيخ مبدأ قابلية الحكام للمساءلة والنقد والتحقيق في حالة الخطأ أو سوء استخدام الصلاحيات. إن شعبنا يستحق شيئاً من الاستقرار والتقدم الاقتصادي والتحول الاجتماعي بعد أن استطال فوقه ليل الدكتاتورية الفظة التي أفرزت الفساد والثراء الحرام، لتتكالب عليه عصابات الحزب الحاكم والمقربون والرهط وسماسرة السياسة، كما أفرزت تحولاً (رسالياً) تمت ترجمته في أرض الواقع إلى متاجرة بالشعارات الدينية وإعلاء لشأن القيم المادية وكنز الثروات الخرافية ونهب موارد الدولة وتحويلها إلى أرصدة بالعملات الصعبة خارج الحدود، وإلى قصور وعقارات

مرمرية تاج محلية بدول الخليج وجنوب شرق آسيا. ولا سبيل لهذا الاستقرار الذي ينشده شعبنا إلا إذا انقضت عن كاهله سحب الاستبداد والقهر والبطش والملاحقة والسنسة والرقابة القبلية وتكميم الأفواه التي يزرع تحتها، وإلا إذا شاركت الجماهير في حكم نفسها عن طريق ديمقراطية تعددية لا تلبس ولا تزوير ولا تحوير فيها، الناس في مفهومها سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والكسب والتجرد والولاء للوطن.

ولقد غرقت حتى شرقت السنوات التي غطاها هذا المصنف بإفرازات مبادرة "الوثبة" التي أطلقها الرئيس البشير قبل عامين، والتي تمخض عنها "مؤتمر الحوار الوطني" الذي استمر لأكثر من عام، وانفض سامره في العاشر من أكتوبر الماضي، حيث تم في ذلك اليوم التوقيع على الوثائق التي أخرجها المؤتمر المذكور. غير أن الأجواء التي تم خلالها ذلك الحوار اللولبي المستطال لم تشهد تغييراً يذكر في مجال حقوق الإنسان، خاصة فيما يتعلق بحرية التعبير والتنظيم؛ وما انفك جهاز الأمن يفرض الرقابة القبلية على الصحف ويدهم دورها ومطابعها عند الفجر ويصادر العديد منها، ويعتقل فوجاً إثر فوج من كتابها ومن الناشطين المعارضين المسالمين، أي الذين لا يحملون السلاح مثل المجموعات التي امتشقت الحسام وخرجت لمنازلة جيش النظام والمليشيات التابعة له في أطراف البلاد - دارفور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق.

والملاحظة الأخرى بالنسبة لما يسمى بـ "الحوار الوطني" هي خلوه من القوى السياسية المعارضة ذات الوزن الجماهيري: حزب الأمة القومي بزعامة السيد الصادق المهدي والحزب الشيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي وحزب المؤتمر السوداني بقيادة المناضلين عمر الدقير وإبراهيم الشيخ والقوى الاتحادية الديمقراطية غير المتوالية، والحركة النقابية الشرعية، والجهة الثورية التي تضم الحركات الحاملة للسلاح بقيادة كل من الدكتور جبريل إبراهيم ومنى أركو مناوي وعبد الواحد محمد نور ومالك عقار وعبد العزيز الحلو وياسر عرمان، وتحالف قوى الإجماع

الوطني بقيادة منسقه العام شيخ المعارضين السودانيين الأستاذ فاروق أبو عيسى الرمز الذي يلتف حوله الشارع السوداني باعتباره الزعيم الأول للمعارضة. ولقد اكتفت الحكومة الداعية لهذا المؤتمر الأحادي ببعض الشخصيات المشبوهة compromised ذات الخلفية الإخوانية، وبالانتهازيين وحارقي البخور والأفندية النرجسيين شعب كل حكومة وبالأرزقية المحترفين المماليين لجميع الأنظمة (أي فلول الاتحاد الاشتراكي المايوي النميراوي)، والمتعاطفين معها من المنشقين عن أحزاب المعارضة، وكأنها تحاور نفسها وتتأمل وجهها في مرآة، ولا تنوي أن تتطلع بالنظر لأبعد من أرنبه أنفها.

وعلى الرغم من كل ذلك، فلقد ظل الشارع يتقرب مخرجات ذلك المؤتمر تمثلاً بالمثل الذي يتحدث عن (عشم إبليس في الجنة)، وتأثراً بالحملة الدعائية المكثفة التي صاحبتة وبالوعود التي أطلقها رموز النظام ذات اليمين وذات اليسار، تلك الوعود التي لوحت بتغيير جديد في النظام السياسي متضمناً انفتاحاً واستيعاباً للمعارضين وتحقيقاً للوحدة الوطنية التي طال شوق السودانيين لها. وقد شجع على هذا العشم انقلاب القصر الذي نفذ الرئيس البشير وأصدقائه العسكريون مؤخراً، وأبعد بموجبه كل رموز الإخوان المسلمين الذين كانوا مهندسي ولحمة وسدي النظام منذ استيلائه على السلطة في يونيو 1989 : على عثمان محمد طه والدكتور نافع علي نافع والدكتور عوض الجاز والدكتور (أسنان) مصطفى عثمان إسماعيل وعلي كرتي وقطبي المهدي والدكتور عبد الرحيم علي والطيب محمد خير (سيخة)، وقبلهم الشيخ حسن الترابي وجماعة المؤتمر الشعبي، ومن بعدهم الدكتور غازي صلاح الدين - وقد صاحب تلك الحركة البشيرية المباغثة التظاهر بتبني توجه إيديولوجي جديد وقلب ظهر المجن للحليفة إيران (على الأقل ظاهرياً)، والانحياز للمعسكر الشرق أوسطي الذي يقف على الضفة الأخرى من تلك الدولة الشيعية الفارسية المتحالفة مع تنظيم الإخوان المسلمين العالمي، أي المعسكر الذي تتزعمه المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وتتصوى تحت لوائه باقي دول مجلس التعاون الخليجي، والمشاركة في "عاصفة الحزم" باليمن (غير) السعيد التي أبلى

فيها الجنود السودانيون بلاءً حسناً كعادتهم دائماً (رغم أنهم هذه المرة بدوا كالنائحات، أي الباكيات المحترفات، اللاتي يجلبن لبيوت العزاء بالأجر في الريف المصري ليزفرن دموع التماسيح ويلطمن الخدود ويصحن بأعلى أصواتهن، إذ لا ناقة ولا بعير لهم في هذه الأتون اليمنية التي أقحموا فيها بمرتفعات جنوب الجزيرة العربية، فهي مجرد لعبة بهلوانية تكتيكية تموهية من جانب النظام، ومغامرة يقبض ثمنها رموزه بالخرطوم، وهم -أي الجنود - مجرد cannon fodder،) خيلاً "تجقلب" بينما يذهب الثناء لحماة، أي للجاسين في القصر الجمهوري بالخرطوم.)

ولكن النظام السوداني علّم الناس على مدى السبع وعشرين سنة المنصرمة أنه يؤشر يساراً ويتجه يمينا، وأنه يرسل الوعود جزافاً حول التحول الديمقراطي، ولكنه في الواقع يبطش بالمعارضين ويكتم الأنفاس ويعتصر الجبايات من أمعاء الكادحين السودانيين المعدمين بنفس طريقة التركية السابقة ومهدية الخليفة عبد الله ول تور شيل، ولا يفتح أبواب الاستثمار وقروض وتسهيلات المصارف المحلية والعالمية وكل ما يستحلب المنفعة الاقتصادية إلا لقلّة معروفة من الأقرباء والمحاسيب شكلت طبقة أرستقراطية جديدة شبيهة بمهرجات الهند، بل أصبح رموزها يرتدون جلابيب وقلنسوات المهرجات في أعراسهم ومناسباتهم الخاصة، ولا يبالون باستعراض ثرواتهم المكدسة عن طريق السحت في شكل أطنان الحلى الذهبية والماسية التي تغطي أجساد نسائهم من الرأس حتى أخمص القدمين. واتضح أن النظام غير جاد في مناوراته ومبادراته التموهية الملتبسة والمربكة الخاصة بالتحاور مع خصومه المدنيين أو الحاملين للسلح، بل ما فتئ يمارس لعبته التي درج عليها منذ تسنمه السلطة، وهي زرع الفتن والفرقة بين أحزاب المعارضة، والفت في عضدها والاستفراد بفصيل دون آخر منها، ورشوة كل من يأنس فيه تردداً وضعفاً وانهيالاً أمام الرشى والحلول الفردية من كنز للثروات داخل وخارج البلاد، والاستمتاع بحياة الرفاهية والدعة والتبذير والبذخ النيروني (نسبة للإمبرطور الروماني نيرون الذي كان يعزف على قيثارته ومن حوله يلتهم الحريق عاصمته روما). واتضح أن النظام أراد بالمؤتمر و(مخرجاته) فقط تقديم طعمة في شكل بضعة مناصب دستورية أخلاها

قادة الإخوان المسلمين المنتهية صلاحياتهم بأمر البشير، وهي التي يقتتل حولها المتنافسون الذين غصت بهم قاعة المؤتمر المزعوم، وهم أصلاً جزء لا يتجزأ من معسكر النظام من حيث التوجه الإيديولوجي ومن حيث اللهث خلف متع البطن والفرج والتمرغ في القيم المادية التي استنها نظام الإخوان المسلمين وظل يشجعها ويغذيها ويعمقها طوال بقائه في السلطة لأكثر من ربع قرن من الزمان. والدليل على أن النظام لم يتحول قيد أنملة هو موجة البطش والاعتقالات للمعارضين التي شهدتها الأسابيع الأخيرة التي شملت النشطاء الطلابيين والصحفيين وقادة حزب المؤتمر السوداني، ولما يجف المداد عن (مخرجات) ما يسمى بالمؤتمر الوطني.

وفي آخر الكلام، أرجو أن أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الوافر لكل من وقف بجانبني وساعدني في إخراج هذا الكتاب، خاصة زوجي الفضلي أم عثمان وأبنائي د.عباس وعبير وعمار وزينب والبروفيسيرة سارة، والعديد من الأصدقاء الذين ما فتئوا يغدقون عليّ التشجيع المتواصل الرافع للمعنويات، ويهتمون بأمرني في حلي وترحالي، خاصة رفاق الغربة منذ أكثر من عقدين، الدكتور التجاني عبد الله بدر والزعيم الأخ حبيب سرنوب ورفيق الصبا والشيخوخة اللواء م التجاني علي صالح والمناضل عمر الدقير والباشمهندس قاسم بطري والعزيز مولانا عمر صديق والأمير الهمام محمد عبد الباقي والخليفة الرائع هاشم محمد علي العالياي، سائلاً المولي عز وجل أن يمد في أيامهم ويكلأهم بالصحة التامة والعمر المديد والسعادة السرمدية.

والسلام.

الفاضل عباس محمد علي

Fdil.abbas@gamail.com

مقيم حالياً بالإمارات العربية المتحدة، مارس 2017.

oboi.kan.com

فلسفة الفساد المالي والإداري

قرأت هذا الأسبوع تقرير منظمة الشفافية الدولية المؤسس على بيانات واستنتاجات ثلاث عشرة منظمة دولية ذات وزن واحترافية وموضوعية، مثل البنك الدولي والمنتدى الاقتصادي العالمي؛ ولقد صنف التقرير جمهورية السودان كخامس أكثر الدول فساداً في العالم - مع القابعين في أسفل القائمة، ولم يبرزها في هذا المستقع إلا الصومال واليمن وسوريا وكوريا الشمالية، أي بؤر الصراع المسلح العشوائي والعنف المنفلت والتطرف الإيديولوجي والدكتاتورية والقمع وتكميم الأفواه وظلم الإنسان لأخيه الإنسان؛ بينما كان الأوائل الأكثر بعداً عن الفساد هم الدنمارك ونيو زيلاندا والسويد والنرويج وبلجيكا وفنلندا وهولندا ... وسنغافورة... إلخ، وهي دول تتمتع بالحكم الديمقراطي المستقر والعدالة الاجتماعية واستقلال القضاء وحرية الصحافة واحترام حقوق الإنسان والبعد عن البطش بالخصوم وانعدام المحسوبية والرشى والفساد المالي والإداري. وحقيقة الفساد المتجذر في السودان منذ عشية الاستقلال والذي استفحل وتعمق على يد الإخوان المسلمين ونظامهم الراهن القابض بخناق الشعب منذ سبع وعشرين سنة....حقيقة يعرفها السودانيون جيداً، ومنهم من ظل يقاومها في إطار مقاومته للنظام الإخواني بالظلف والناي، غير مبال بالقمع والانتقام الذي ظلت تمارسه أجهزة الأمن في حق المعارضين؛ ومنهم من ظل يتعايش مع هذه الأوضاع بالطريقة التي وصفها عادل الأسواني في مقاله الأخير عن استكانة الشعب المصري طوال حكم حسني مبارك - قبل أن ينفجر ثائراً في 25 يناير 2011 - (فلقد ركنوا لثلاثة أشياء: الانشغال بكسب العيش وجلب الخبز في نهاية اليوم للأسرة البائسة الجائعة؛ والانشغال بمحاولة المحافظة على الاستقرار -

أي الوضع الراهن كما هو دون الدخول في مغامرة تغييره غير مضمونة العواقب؛ والانشغال بكرة القدم - الزمالك، الأهلي، الفريق القومي.... إلخ، والتخدير المصاحب الذي يحبس الإنسان في دائرة مليئة بالإثارة والحماس الأجوف كافية لشغله عما يفعله الساسة واللصوص بأمور دولته وأمته. (أو شيء من هذا القبيل).

وهناك من المثقفين والمهنيين (الأفندية) والجلابة السودانيين من فضل أن يشايح الصفوة الإخوانية التي حكمت البلاد وطغت وبغت وغطست في الثروات حتى أدنيها، ومن ظلوا يتسقطون الفتات من تلك النخبة، ومن أجل ذلك ما فتئوا يمارسون الملق والتطيل والتعهر السياسي من النوع الذي وصفه نجيب محفوظ في "القاهرة 30"، مستهدفين التمرغ في ثقافة كنز للمال وإطلاق العنان لشهوات البطن والفرج والتمتع بامتيازات السطوة التي يجلبها الثراء الفاحش وما يستصحبها من نشوة النصر الكاذب، وغرور وغطرسة وعلو كعب مزيف، وسحق واحتقار وإساءة معاملة من هم تحت إبطك أو دونك في السلم الوظيفي وفي المجتمع، وكل من يدخل في دائرتك الخاصة أو يعتمد عليك في رزقه وكسب عيشه. ولقد مرت علي في السنوات الأخيرة بعض النماذج من هذا النوع، (مثل الصديق الذي عاش معنا في الاغتراب لعقدين وعاد للبلاد ليقلب ظهر المجن لنا ولتاريخه، وليصبح بين عشية وضحاها مدافعاً عن المؤتمر الوطني، ورئيس لجنة قومية خطيرة أثر تزويرها سلباً في مسار التاريخ السوداني)، وتعجبت كثيراً لقدرة هؤلاء الأفندية على التلون الحريائي، وعلى مهاراتهم في اجتذاب أنظار أولي الأمر واكتساب رضاهم وأعطياتهم وأبوابهم المفتوحة، وعلى إجادتهم لفن العلاقات العامة والبروز الإعلامي المسخر للأغراض الشخصية والتلميع، وللمزيد من التماهي مع توجهات النظام الحاكم وسايكلوجيته وثقافته وسلوكياته.

وكما أبرز تقرير منظمة الشفافية فإن الفساد المالي والإداري يكاد يكون ظاهرة إفريقية تشمل كل دول القارة، ولا يمكن استثناء حتى الدول الديمقراطية التعددية القليلة مثل جنوب إفريقيا - إذ أن رئيسها جاكوب زوما ولغ في فساد مالي لا

يضاهيه إلا فساد صديقه روبرت موقابي رئيس زمبابوي، وهو الآن تحت الرقابة اليقظة المستمرة من قبل الأجهزة التشريعية والعدلية والإعلامية ببلاده، ولولا وجود هذه المؤسسات التي حافظ عليها نلسون مانديلا سليمة معافاة لأفطر أمثال جاكوب زوما في أكل السحت، شأنهم شأن سائر القادة الأفارقة. وفي حقيقة الأمر، من القلائل الذين عرفتهم إفريقيا ولم يمارسوا الفساد المالي والإداري ثلاث أيقونات تاريخية: نلسون مانديلا والمعلم جوليوس ناييريري محرر ومؤسس تنزانيا الحديثة والراحل جمال عبد الناصر الذي توفي ولم يترك شقة أو سيارة باسمه. ولكن الفساد المدعوم من قبل الدولة والأحزاب ظل ديدناً مستمراً للحكومات المصرية منذ عهد الباشوات في تعاملها مع السياسيين السودانيين، وأسهم ذلك في إرضاعهم الفساد منذ بزوغ الحركة الوطنية؛ فقد تبني حزب الوفد وحكومات الباشوات الأحزاب الاتحادية السودانية منذ نشأتها في منتصف الأربعينيات، وظلت تصرف عليها صرف من لا يخشي الفقر في سبيل تدجينها واستقطابها لشعار وحدة وادي النيل، بل لجعل السودان مجرد مديرية تابعة لمصر، والعبور به للاستقلال من بريطانيا على هذا الأساس. وعندما ذهب وفد الحركة الوطنية برئاسة إسماعيل الأزهري ويحيى الفضلي ومبارك زروق ومحمد نور الدين... إلخ للقاهرة بأخر الأربعينات للتفاوض بشأن القضية السودانية، طاب له المقام هناك وظل مستكيناً بفنادق القاهرة المعز لعامين كاملين، ودخل بعضهم في صفقات تصدير واستيراد السلع الغذائية كالأرز في تلك الأثناء، على طريقة (حجة وتجرة). وبعد ثورة يوليو 1952 تولى الصاغ صلاح سالم ملف القضية السودانية من حيث توقف حزب الوفد برئاسة مصطفى النحاس باشا، واستمرت ثورة يوليو في الإغداق على القادة الاتحاديين وفي تمويل حملتهم الانتخابية عام 1953/1954، إلى أن فازوا بتلك الانتخابات وشكلوا أول حكومة وطنية سودانية. وعلى الرغم من أن الأزهري وجماعته تنكروا لمسألة الوحدة مع مصر، وأعلنوا الاستقلال من داخل البرلمان، إلا أن الحكومة المصرية لم تترك السودان وشأنه طوال عهد جمال عبد الناصر وسلفيه أنور السادات وحسني مبارك، ولم تتوقف عن رشوة السياسيين السودانيين كافة؛

وشاهدي على ذلك أحدىثة (سالفة) حكاها لي المرحوم حسن بابكر الحاج المهندس
العضو بأول مجلس سيني للحزب الوطني الاتحادي.

كان عمننا حسن، عطر الله ذكراه، عضواً بالجمعية التأسيسية بالديمقراطية الثانية
عام 1965، وعندما قررت الجمعية حل الحزب الشيوعي وطرد نوابه من البرلمان،
تصدي لها العم حسن في معية الأحد عشرة نائباً شيوعياً، بالإضافة لإتحادي آخر
هو الراحل صالح محمود إسماعيل؛ أما النواب الممثلون للحزب الاتحادي وحزب
الأمة والإخوان المسلمين فقد صوتوا بالإجماع مع قرار حل الحزب الشيوعي. وكرد
فعل على تلك الحادثة قامت الأحزاب اليسارية (القوميون العرب والشيوعيون)
بانقلاب 25 مايو 1969 الذي أسموه "ثورة مايو". وبعد عام قام النظام المايوي
بتأميم ومصادرة معظم الشركات والمصارف الأجنبية الموجودة بالسودان، ومن بينها
"بنك مصر" الذي كان يرأسه ويديره العميد (مخابرات) محمد عبد الحليم والذي تم
تعيينه وزيراً للعمل بحكومة مايو. ومحمد عبد الحليم هذا معروف بانتمائه للمخابرات
المصرية، وهو من أب شايقي من القرير كان مقيماً بمصر عسكرياً بحرس حدودها،
ومتزوجاً من مصرية أنجب منها محمد وأخاه أحمد، وكلاهما تعلم بمصر وتخرج في
كليتها الحربية، وبعد الاستقلال طلب عبد الناصر من الحكومة السودانية استيعابهما
بالجيش السوداني، وقد كان (وكانا في الواقع غواصتين)، إلا أن محمد سرعان ما
تقدم باستقالته من القوات المسلحة، وتم نقله مديراً لبنك مصر فرع السودان. وكنوع
من رد الجميل من قبل اليسار لعمننا حسن تم تعيينه رئيساً لمجلس إدارة بنك مصر
بعد تأميمه في مايو 1970. ولكن، وبعد شهر واحد، تم الاستغناء عن
الباشمهندس حسن بقرار جمهوري دون إبداء أي أسباب. وما حدث بالفعل هو أن
الباشمهندس حسن وجد قائمة بالخرينة السرية للبنك بها أسماء السياسيين الذين
أعقد عليهم البنك مئات الآلاف من الجنيهاً في شكل قروض عالية وميسرة وبلا
أرباح وبلا رهن في غالب الأحيان، ولم يرد أي واحد منهم أيّاً من تلك المبالغ.
واشتملت القائمة على معظم السياسيين القياديين السودانيين بحزبي الأمة
والاتحادي الديمقراطي ومجموعات القوميين العرب والناصريين، وبها أسماء تدعو

للهشة مثل مولانا بابكر عوض الله (رئيس وزراء الحكومة المايوية الجديدة) والإمام الهادي المهدي والشيخ على عبد الرحمن عليهما رحمت الله، وغيرهم، بالإضافة لشخصيات متنفذة بالخدمة المدنية ومتقاعدين وعدد من المحامين والصحفيين المعروفين. وقد هرع الباشمهندس حسن بتلك القائمة لبابكر عوض الله لكي يستشيريه حولها بصفته حجة قانونية بالإضافة لموقعه فى قمة الجهاز التنفيذي، ولكن قابل رئيس الوزراء المسألة ببرود وتسفيه شديد، وخلال أربع وعشرين ساعة استصدر الأمر بالاستغناء عن خدمات الباشمهندس حسن بابكر خضر الله تربته.

وما هي إلا بضع سنوات حتى ظهر بنك أخطبوطي آخر استأنف نشاط بنك مصر ولكن باتجاه سياسي آخر، وهو بنك فيصل الإسلامي الذى ازدهر فيما بعد "المصالحة الوطنية" عام 1976، ومعه بنك إسلامي آخر، وكانتا تحت خدمة الجبهة القومية الإسلامية ويديرهما رموز إخوانية معروفة؛ وقد ركزا على دعم كوادر الإخوان المسلمين بكافة أنحاء السودان مما جعل منهم قوة اقتصادية كبرى، ومنافساً قاهراً وشرساً ولا يصد للطبقة الوسطى الكمبرادورية السودانية التقليدية؛ كما ركز البنكان على الأنشطة الاقتصادية سريعة ومضمونة العائد بغض النظر عن ضآلة مردودها بالنسبة للاقتصاد، مثل المضاربة وتجارة العملة وبيع السلم والسمسرة فى شراء المنتجات الزراعية كالسمسم والفول والصمغ والذرة بالإضافة للفحم والأخشاب، وتخزينها وتهريبها للدول المجاورة، مما تسبب في المجاعة التي ضربت البلاد عامي 83 و1984؛ ولقد ظهرت طبقة ورمية كاملة نتيجة لذلك من أثرياء الإسلام السياسي التي كانت طوال سنوات الحكم المايوي ولا زالت حتى اليوم تتحكم فى الأوضاع الاقتصادية بالسودان؛ ولقد تعاظمت قوتها بعد استيلاء الجبهة القومية الإسلامية (الاسم الذى يختبئ وراءه تنظيم الإخوان المسلمين) على السلطة فى 30 يونيو 1989، محققة بذلك التزاوج الكامل بين القوة الاقتصادية الإخوانية المهيمنة على الاقتصاد - والقوة السياسية المتمثلة فى دولة الإخوان المسلمين الجديدة. وكما حدث فى آخر أيام نميري من مجاعات وارتجاجات فى السوق

وتهميش لغالبية سكان السودان أدت فى نهاية الأمر لانقفاضة إبريل 1985 التى أطاحت بالنظام المايوي، فإن هيمنة الإخوان على الاقتصاد والسياسة طوال عهدهم الظلامي الرهان أدت إلى دخول البلاد فى أزمتات مضطربة وحروب متأججة ومتناسخة بالعديد من المناطق، وحالة عامة مأزومة تشبه السنوات الأخيرة لنظام النميري؛ وليس هنالك أدنى شك فى قرب انفجار الأوضاع وفى ذهاب نظام الإخوان المسلمين إلى مزبلة التاريخ مثله مثل النظام المايوي.

ولقد ساهم الإعلام الاجتماعى والتقدم التقنى الهائل الذى شهدته وسائل الاتصال والنشر الحديثة فى الكشف عن جل الممارسات غير القانونية والإجرامية التى أضرت بالاقتصاد السودانى.... تلك الممارسات التى ظلت الرأسمالية الورمية الإخوانية توغل فيها منذ منتصف السبعينات، ولكن سلط عليهم المولى عز وجل "السيد قوئل" والشبكة العنكبوتية التى كشفت أمرهم وفضحت أكاذيبهم وسلطت الضوء على مقتنياتهم وحساباتهم السرية بسويسرا وجزر البهاما وماليزيا والدول الخليجية؛ كما وحدت الرؤية بين السودانين المعارضين للنظام ومكنتهم من التماور فيما بينهم ومن التنسيق والإعداد لمعاركهم المتسلسلة مع النظام، بدءًا باعتصام الشهرين المنصرمين، واستشرافًا لانقفاضة الوشكة بإذن الملك العلم.

ولكن، وكما أسلفت وأسلف صديقى البروف حيدر إبراهيم على فى العديد من المناسبات، فقد يكون من السهولة بمكان انتزاع الحكم من الطغمة الإخوانية الجالسة بالقصر الجمهورى والتى كانت أصلًا قد سطت على الحكم بواسطة أربع دبابات صلاح الدين ومائة مجند فقط، والتى تحرسها كتيبة قرويين راق تاق يقودها أمنجى يدعى حميدتى؛ ولكن المشكلة فى كيفية كفكة وإبطال مفعول ثقافة الفساد المتأصل والنهم والالتهام بلا روية وعشق الماديات وكنز الثروات عن طريق الرشى واستغلال النفوذ والأساليب الملتوية والبهلوانية؛ وكيفية محاربة القيم المافيوزية التى سادت السوق وتغلغت فى أحشاء النظام الاقتصادى والاجتماعى؛ وكيفية استعادة الروح الوطنية التى تجعل الناس يتفانون فى خدمة بلدهم ولا يقدمون عليها

انتماواتهم الحزبية والإيديولوجية كما ظل الإخوان المسلمون يفعلون منذ أن أطلوا على السودان بكثافة قبل ثلاثة عقود. كيف يمكن استعادة الروح الوطنية التي دعا لها جون كندى فى خطابه الذى دشّن به عهده فى الرئاسة الأمريكية عام 1961:

(Ask not what your country can do for you.

Ask what you can do for your country.)

كيف السبيل إلى إعادة توطيد قيم التجرد ونكران الذات والنضال من أجل شعبك، خاصة الكادحين منه، وقيم العدالة واحترام رأي الآخرين حتى لو اختلفت معه، وقيم الأمانة وعفة اليد والالتزام بحرمة المال العام؟ كيف تصبح الدولة مرة أخرى، كما كانت أيام الإنجليز، خادمة للجمهور وليست قوة قاهرة مسلطة على رعايهم؟ إننا إذاً لسنا بصدد ثورة سياسية تقتلع النظام وتستبدله بطاقم آخر من الأفندية.... وإنما نحن بصدد عدة ثورات متزامنة ومتطابقة: ثورة تعليمية تضع الأساس لغسيل الروح السودانية من الأوشاب العالقة بها جراء حكم الإخوان الأحادي الجائر المتسلط الذى استمر لسبع وعشرين سنة، وثورة ثقافية، وثورة دستورية وقانونية، وثورة تربوية تستعيد الإنسان ذا الضمير الحي والأخلاق الرفيعة والشهامة والكرم والاستعداد لجميع أنواع التضحيات من أجل وطنه.

إن الله هو المستعان على هذه الثورات التى ننشدها. ولا بد من النصر فى نهاية الأمر، ولا بد من صنعاء ولو طال السفر.

وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

تابان: شاعر فحل من جنوب السودان

ما إن تخرجت في كلية الآداب بجامعة الخرطوم عام 1978 حتى تم استيعابي بوحدة الإنجليزي للأغراض الأكاديمية بكلية العلوم، وبعد بضعة أيام قابلني صديق قديم بديري دهمشي من الجابرية ونشأ بود مدني - بروف عبد الرحمن أبو زيد - في "قهوة النشاط"، ولم أره منذ يوليو 1971 عندما كان أستاذاً بجامعة ماكرري بيوغندا؛ ولقد التقيته آنئذ في خضم أحداث داوية ودامية: حركة 19 يوليو، ثم عودة نميري بعد ثلاثة أيام، واغتيال مضيقي بكمبالا الملحق العسكري توفيق م عبد الحليم عليه رحمة الله بواسطة الأنيانيا، واختفائي من عيون الأنيانيا بعنتيبي لفترة كنت خلالها على صلة وتنسيق مع البروف عبد الرحمن قبل أن أغادر إلى لندن ثم تشيكو سلوفاكيا. وجلسنا على الحائط القصير الكائن بين كلية القانون ومقهى النشاط، وطوفنا بالذكريات واستعرضنا الإستيتاص كو بالنسبة لكلينا، فعرض علي (وعرّضني بالحاح) الذهاب معه لجامعة جوبا التي أصبح مديرها بعد وفاة البروف طيب السيرة والسريرة السمانى عبد الله يعقوب عليه رحمت الله فى تلك الأيام جراء حادث طيران مؤسف، فوافقت على الفور، وخلال أسبوع وجدت نفسي مقيماً باستراحة جامعة جوبا، مساعداً للتدريس بشعبة الإنجليزية التي كانوا يسمونها "وحدة مهارات التخاطب Communication Skills Dept"، وكان رئيسها الكاتب والناقد والشاعر ذائع الصيت بشرق إفريقيا تابان لو ليونج Taban Lo-Liyong الذى لم أسمع به من قبل على الإطلاق، وكان ثالثنا بالشعبة ابن دفعتي بجامعة الخرطوم جورج بورنج الذى أصبح فيما بعد اتفاقية السلام الشامل وزيراً للاستثمار

ثم وزير التعليم العالي الاتحادي، ثم انتقل إلى جوبا وزيراً في أول حكومة بها و"رجل أعمال طويل الباع".

كان تابان كريماً وظريفاً ومتواضعاً ودافئاً ووطنياً غيوراً ومثقفاً تقدماً وزاهداً، ومفعماً بالإبداع وروح التجديد فيما يختص بمهام تعليم الإنجليزية للأغراض الأكاديمية، أي لطلاب الطب والعلوم والاقتصاد وكافة التخصصات، وبالتحديد القادمين من الشمال حيث تدهورت واضمحلت اللغة الإنجليزية لدرجة بعيدة؛ ولم يكن تابان من نوع المتعلمين النرجسيين المتحذلقين الذين يضجرونك بالتحقق (كما يقول الخليجيون) والحديث عن أنفسهم، ولكنى فى تلك الأيام استمعت لمقابلة أجرتها معه إذاعة صوت أمريكا فذهلت لهذا العملاق الذى يمشي بيننا فى تواضع العلماء كأنه لا شيء: إنه فى الواقع

كاتب معروف في الولايات المتحدة والغرب وكل المحافل الناطقة بالإنجليزية خاصة في شرق وجنوب إفريقيا، وله صولات وجولات بالساحة الأدبية الكينية بالذات حيث عمل محاضراً بجامعة نايروبي لسنتين عديدة، ورافق عمالقة الفكر الإفريقي مثل إنقوي وا ثيونجو ومثل الأديب أنيومبا، وقد صنف مع هذين العملاقين سفيراً عام 1968 ما زال صدها يتردد حتى اليوم، بعنوان: "حول إلغاء شعبة اللغة الإنجليزية On the Abolition of the English Department"، دعا فيه للخروج من عباءة المستعمر الأكاديمية التي ما انفكت تضع التعليم العام والعالي بإفريقيا تحت وصايتها على الرغم من الحصول على الاستقلال السياسي، ودعا فيه للانطلاق من الأرضية الإفريقية المحضة المتمثلة في التراث الشفهي والآداب المستقاة عبر اللغة السواحيلية، ومن الإسهامات الثقافية والفنية والأدبية للزنج المقيمين فى الأمريكتين وجزر الكاريبي؛ ولم يرفعوا رايات العداء للثقافة الغربية ولم يقلبوا ظهر المجن للغة الإنجليزية، ولكن فقط دعاوا لزحزحتها للمرتبة الثانية وإحلالها بالسواحيلية والآداب الإفريقية التى يجب أن تلقي الاهتمام الأوفر، حتى ينشأ جيل

إفريقي إفريقي معتد بإفريقيته وليس مجرد زومبيات مرتهنة لدى patronized by القورو الغربي الأخطبوطي المهيمن Big Brother.

وشيناً فشيناً، وبعد ليال عامرة و"قعدات" ملهمة بنادي الأساتذة وبمنزل تابان وبشعبة الكوميونيكيشن سكلز، وأثناء رحلات باهرة لمسقط رأس تابان بديار المورو والكاجو كاجي بمنطقة ياي بغرب الاستوائية، تعرفت على شيء من سيرة ومسيرة هذا الطود الإفريقي الراسخ الذى لم يحفل به الشماليون وعموم العرب، بل لم يطرق اسمه آذانهم حتى الآن. لقد ولد تابان عام 1936 بياي، وانتقلت الأسرة وهو طفل إلى منطقة الأشولي بشمال يوغندا حيث ترعرع وتبني الجنسية اليوغندية وتعلم بمدارسها، إلى أن التحق بكلية المعلمين بكمبالا، ومن ثم أرسل فى بعثة دراسية لجامعة هوارد بواشنطن لنيل البكالوريوس، ثم لجامعة أياوا (نفس الجامعة التى نال منها الراحل جون قرنق الدكتوراه) حيث حصل على الماجستير فى الإبداع الأدبي عام 1968. وعاد تابان إلى شرق إفريقيا، ولكنه تحاشى يوغندا بسبب الدكتاتور الباطش عيدي أمين واستقر بجامعة نايروبي لفترة طويلة. وفى تلك السنوات أنتج تابان بغزارة غير مسبوقة فى مجالات المقالة السياسية والثقافية، وفى مجال الشعر الذى تفرد فيه بأسلوب غير تقليدي متفرد، ولكنه ليس من النوع المتقعر والمعقد الذى يستعصي على الفهم، إذ أن المواضيع التى طرقتها كانت متعلقة بالتححرر من الاستعمار فى الظاهر والباطن، وبمعاناة الكادحين الأفارقة والأقليات السوداء بأمريكا وأوروبا، وكشف النوايا الخبيثة التى ظل يضمورها الغرب تجاه القارة لى تظل تحت هيمنته حتى بعد الاستقلال الذى حققته بعض الدول مثل كينيا وغانا ونيجريا (فى الستينات)، وكان ذلك فى ذروة النضال ضد الاستعمار الاستيطاني فى جنوب إفريقيا وروديسيا وأنقولا وموزمبيق وغينيا بيساو، وفى ذروة إصرار البيض على استمرار استعبادهم للأفارقة، وفى ذروة المقاومة التى تصدى لقيادتها الثوريون الأفارقة الشرفاء مثل نلسون مانديلا. أي أن تابان كان منفعلا للغاية بنضالات الشعوب الإفريقية المتطلعة للإعتاق من ربة الكولونيالية، ولكنه منذ وقت مبكر ظل يحذر من سقوط الدول المستقلة فى أيدي اللصوص المحليين المشوهين ثقافياً من جراء

الاستلاب الأوروبي، وظل يدعو إلى أن الثورة الحقيقية يجب أن تشمل التعليم ويجب أن تقلبه رأساً على عقب لكي يتمخض عن شباب فخور بإفريقيته ولديه ما يساهم به في تطور البشرية منطلقاً من واقعه الثقافي الأصيل، وليس عبر الغربنة والتماهي مع الثقافة الاستهلاكية اليانكوية؛ وظل تابان يدعو للثورة التعليمية التي يتحقق عبرها مثل هذا الانعتاق من النفوذ الشيطاني الغربي الظاهر والمستتر.

ولقد ألف تابان لو ليونج أكثر من عشرين كتاباً باللغة الإنجليزية، كما أصدر بضعة مطبوعات بالسواحيلية (الهجين بين العربية والبانتوية والإسبانية)، كانت مادتها هي النقد الأدبي والسياسي والثقافي، ومنها عدة دواوين شعرية وروايات ومسرحيات. ومن مؤلفاته:

- Eating Chiefs
- Frantz Fanon's Uneven Ribs
- Another Nigger Dead
- The Uniformed Man (1971) عن الانقلابات العسكرية
- Carrying Knowledge up a Palm Tree (1998)

وقبل المجيء لجوبا وإعادة اكتشاف هويته السودانية، عمل تابان لعدة سنوات بجامعة بابوا نيو غيني Papua New Guinea وبيع بعض الجامعات في اليابان وأستراليا. وفيما بعد اتفاقية أديس أبابا 1972 جاء تابان لجوبا واستقر بها استقراراً مدهشاً، والتحق بهيئة تدريس جامعة جوبا، وذهب لياي وأحضر من تبقي من شقيقاته وأطفالهن الذين يشبهونه شبه الأرنب كأنه قد أنجبهم من صلبه، وتزوج من فتاة زانداوية متعلمة كانت تعمل سستر بعيادة جامعة جوبا، وعلمت أنه أنجب منها ستة أطفال وهو في خريف عمره، وعاش فترة عامرة بالنشاط الأكاديمي والثقافي والسياسي بجوبا، حيث كان عضواً منتخباً بالبرلمان المحلي - المجلس التشريعي - من عام 1982 حتى 1985، وبعد سقوط نظام النميري ونشوب الحرب مرة أخرى بالجنوب توجه تابان إلى جنوب إفريقيا حيث عمل بجامعة فندا

رئيساً لمركز الدراسات الإفريقية. وعلى إثر انفصال الجنوب عام 2011 عاد تابان مرة أخرى ليصبح عميداً لكلية الآداب ونائباً لمدير جامعة جوبا.

إن تابان لو ليونج رقم أدبي ذو مقام عال علو السماء إفريقياً ودولياً، ولم تنقطع عنه الدعوات لتقديم عروض ومحاضرات بالجامعات الأوروبية والأمريكية. وكوننا فى الشمال لم نسمع به ونجهله (أو نتجاهله) ولم نكرمّه فذلك يدل على المستوى المتدني حضارياً الذى هبطنا إليه. وفى الحقيقة، نحن أجدر بأن يقول عنا تابان ما قاله عن كينيا التى عيرها بالجهل والعقم ووصف مشهدها الثقافى بأنه مجذب وموحش وبلقع وقاع صفف، على الرغم من وجود قامات بها مثل نقوقي:

(a dry, desolate, barren stretch of wilderness where literature has simply refused to sprout.)

وهناك العديد من الأقوال التى قرأتها فى كتب تابان قبل أكثر من ثلاثين سنة ولا زالت عالقة بالذاكرة وأكاد أرددها يومياً بسبب واقعية وصدق وعبقرية المشاهد التى جسدها تابان فى أشعاره ورواياته، والتى تمر علينا مثيلاتها كل يوم، مثل:

(إذا عجزت أن تجد ما تقوله فى المجالس، فاخلف رجلاً برجل، وانفخ أوداجك متعظماً، إذ أن تلك النفخة كثيراً ما تعوض عن خوائك الفكرى والثقافى:

If you have nothing to say, look great. Your pomposity is bound to make up for your lack of substance.)

ولقد تناهى إلى سمعي أن تابان ما زال كتلة من الحيوية والنشاط God bless وهو فى عقده التاسع، ودائم التنقل بين جوبا ومنطقة قبيلته المورو بغرب الاستوائية، وما زال يتمسك بآرائه التحررية المناهضة للاستلاب الغربى، على الرغم من أنه علم لا يشق له غبار فى اللغة والأدب الإنجليزى، ومن أنه قد استوعب الثقافة الغربية وتعاطاها وتنفسها فى مظانها بالولايات المتحدة وغيرها. وما برح

تابان يستنكف عن الخروج من إفريقيا مهما حمى الوطنى وادلهمت الخطوب بهذه القارة المستغيثة كما هو الحال الآن فى جنوب السودان.

أسأل الله أن يزيل جهل أمتى عن هذا الهرم الأدبى الشاهق وهذا الإنسان الإفريقى الوطنى الغيور، وأن يحميه ويرعاه ويكلأه بالصحة والسعادة وطول العمر.

نظرة عجلية للوضع السوداني الراهن

يحكي جيل الخمسينات طرفة عن الراحل الزعيم إسماعيل الأزهري وأحمد خير المحامي ويحيى الفضلي عندما كانوا ضمن وفد القوى الوطنية بالقاهرة لمدة عامين بنهاية الأربعينات - على سرر مفروشة وزرابي مبنوثة بفندق سمير أميس - لمتابعة القضية السودانية مع الحكومة الباشوية المصرية؛ وكان ثلاثتهم داخل سيارة أجرة ذات مرة، فسأل يحيى الفضلي أحمد خير عن رأيه في سير القضية، وأحاله الأخير للرئيس الأزهري الذي كان يجلس في المقعد الأمامي، ورد الأزهري قائلاً: "القضية في حرز أمين طالما هي بيد النقرشي باشا الموجود بنيويورك لطرحها أمام مجلس الأمن". "وسأل الفضلي أحمد خير مرة أخرى عن رأيه، فقال: " أنا رأيي إنه سجم أمانتنا السوينا أبو عنقرة ده رئيس وماشين وراه." وفحوى القول أن هنالك من أمثال أحمد خير من كان يري أنه (ما حك ظهرك مثل ظفرك، وجحا أولى بلحم ثوره)، وأن الأفضل للقضية الوطنية أن يتولاها السودانيون أنفسهم ويذهبوا بها للجهات الأربع بالكرة الأرضية مثل الإمبراطور هيلاسلاسي الذي جاب أوروبا وأمريكا وخاطب عصة الأمم بشأن بلاده الحبشة التي احتلها الطلائنة عام 1934 وبقوا بها حتى هزيمة الدوتشي موسليني وطرد جيشه من بلاد النجاشي عشية انتهاء الحرب الكونية الثانية.

ويبدو أن السودانيين، (على النقيض من قوى تحررية عديدة بالعالم الثالث مثل الفياتكونج بقيادة هوتشي منه في فيتنام، والجزائريين بقيادة أحمد بن بيلال أيام حرب التحرير، وحزب المؤتمر الإفريقي بقيادة نلسون مانديلا، والثوار الكوبيين بقيادة الدكاترة كاسترو وجيفارا)، كانوا ومازالوا يعولون على الآخرين لحلحلة مشاكلهم

وخوض حروبهم ونضالاتهم، خاصة الجارة مصر والقوة العظمى، الولايات المتحدة الأمريكية. وبالتحديد منذ مجيء النظام الدكتاتوري الراهن للسلطة ظلت المعارضة تخوض نضالها بشكل رئيسي من القاهرة وأسمرا وبعض العواصم الأوروبية، وما كان منها على الأرض إلا حليفها الجيش الشعبي بقيادة جون قرنق الذى تمكن بالفعل دون غيره من قوى المعارضة من تحقيق أهدافه المكلفة بانفصال الجنوب فى نهاية الأمر. وفى الأيام الأخيرة، ومع تباشير 2017، رشحت أنباء كثيفة عن وساطة أمريكية تسعى للجمع بين النظام والمعارضة بالعاصمة الفرنسية باريس، وتناثرت تصريحات عن قرب حل الأزمة السودانية بإشراف إدارة أوباما فى أسبوعها الأخير، باعتباره الإنجاز الأهم الذى يود أوباما أن يحققه فى الزمن الضائع. ولكن ما تبقى لتلك الإدارة لا يزيد عن بضعة أيام، ولقد تفجرت أزمات عديدة فى هذه اللحظة، مثل آثار التدخل الروسي فى الانتخابات الأمريكية التى لا زالت تسد الآفاق، مما دفع بالقضية السودانية لدرك سحيق فى أسفل قائمة الأولويات الأمريكية. ولعمري كيف جاز لإدارة أوباما ألا تتمكن من حسم المسألة السودانية طوال الثمانية أعوام السابقة، ثم تحلها فى ظرف أسبوع واحد ينتهي يوم 20 الجاري، يوم تولي دونالد ترامب المسؤولية بالمكتب البيضاوي بالبيت الأبيض؟؟

ولقد وجد نظام الإخوان المسلمين ضالته فى ارتهان المعارضة للخارج، وظل يعزف هذا اللحن طوال الثلاث عقود المنصرمة، وظل إعلامه يخدر الجماهير بأن القضية فى طريقها للحل بوساطات إفريقية وأمريكية وغيرها، وبأن النظام فاتح صدره "للحوار" - وفى هذه الأثناء "يتوهط" هذا النظام الماكر ويتفرعن ويفسد فى الأرض، وتظل المصالح الأمريكية والغربية والصينية والعربية مصانة، وتسير مشاريعهم الأمنية والاقتصادية والجيوبوليتيكية على قدم وساق، وكما تريد لها تلك القوى الإمبريالية ومعها القوى الإقليمية الكمبرادورية الحديثة. والملاحظ أنه كلما صعدت حركة الشارع السوداني وضيق الخناق على نظام الإخوان المسلمين، كلما نشطت جهود الوساطة الإفريقية والأوروبية والأمريكية جالبة معها الشعور الواهم بأن الحل قاب قوسين أو أدنى..... بيد أنه برق خلب، وما برحنا ننتظر الفرج السماوي كما

ظللنا نفعل منذ ربع قرن: Waiting for Godot. وعلى كل حال، فإن أي كلب يعوى حرصاً على ذيله، والقوى الخارجية ما انفكت ذات أجندة خاصة بها ليست بالضرورة متطابقة ومتناغمة مع أهداف الحركة الوطنية السودانية. ومنذ أيام الحكم الثنائي البريطاني المصري إلى اليوم ظلت بعض القوى الإقليمية، وبالتحديد الجارة مصر، تحرص على التدخل المكثف والسافر والمستتر في الشأن السوداني، وعلى تمثيلها ونصيبها في أي محاصصة أو تسوية أو اتفاقية تتعلق بالسودان، بل كان ولا زال هنالك وزراء أجانب بمختلف الحكومات الوطنية التي تعاقبت على السلطة منذ الاستقلال.

إن الحل السوداني/السوداني كامل الدسم ممكن إذا توحدت المعارضة بالطريقة التي دعا لها صديقي البروفيسير حيدر إبراهيم على في مقاله الأخير، وسوف يتم بعدئذ تطوير وتصعيد الاعتصام السلمي الناجح إلى انتفاضة جماهيرية سلمية تقتلع النظام من أظلافه، وتوطد الحلول التي تصب في المصالح السودانية الصرفة، بعيداً عن تدخل الآخرين. وهنالك خميرة بالشارع السوداني يمكن البناء عليها والانطلاق منها - وهي لجان الأحياء التي بدأت تتشكل منذ أيام الاعتصام، ثم خمدت النيران وهبطت الروح المغنوية بعض الشيء، وران صمت وترقب تسببت فيه البروبوقاندا الحكومية عن الحوار والوساطات الأجنبية. واللجان الشعبية هذه تشبه السوفيات التي فجرت وأدارت الثورة البلشفية الروسية منذ عام 1905 حتى نجاحها النهائي في أكتوبر 1917. ولئن انحرف أمثال جوزيف ستالين بالثورة وجعلوها ملكاً قمعياً عضوداً، فالثورة السودانية تأخذ من كل نبع قطرة وتتعلم من عثرات الآخرين، وسوف لن يغيب عنها الهدف النهائي وهو إقامة نظام وطني ديمقراطي مؤسس على العدالة الاجتماعية مع الترسخ التام والضمان الكامل لحقوق الإنسان - من حرية تعبير وتنظيم... إلخ، مستفيدة من الإرث البشري الطارف والتلبد، خاصة في مجال التحوط ضد سرقة الثورة وتجييرها لمصلحة فرد أو فصيل أو إثنية أو إيديولوجية دون الآخرين، وفي التحوط ضد النعرات الإثنية والعنصرية والمناطقية وكل دواعي الفتن ما ظهر منها وما بطن.

صحيح أن معظم كوادر المعارضة موجودون بالخارج، وصحيح أن من يدفع للزمار يحدد النغم، وهكذا فإن الوجود بالخارج يجعلهم عرضة للضغط الأجنبية. ولكن هنالك العديد من قادة الثورات الذين خاضوا نضالهم من المهاجر دون الارتهان لمن حولهم في الدول المضيفة، مثل المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي كمن بالمدينة المنورة إلى أن اشتد عود أنصاره ومهاجريه وعاد بهم لمكة المكرمة فاتحاً؛ ومثل آية الله الخميني الذي كان مقيماً بضاحية باريسية في فرنسا حتى تفجرت الثورة الإيرانية عام 1979 (تلك الثورة التي اختطفها ملائي قم فيما بعد)؛ ومثل فلاديمير لينين الذي كان مقيماً بانجلترا ثم سويسرا، ودخل موسكو بعد اندلاع ثورة أكتوبر. وفي تاريخنا الحديث، ظل الشريف حسين الهندي طيب الله ثراه مقيماً بالخارج، ونجح في إدخال جيش كامل قام بانتزاع السلطة لثلاثة أيام عام 1976، وكان في مقدوره الإطاحة بدكتاتورية النميري لولا أن المنية عاجلته في أحد فنادق أثينا باليونان يوم 9 يناير 1982.

وهناك فرصة مثالية أمام المعارضة السودانية للتواجد بالداخل إن شاعت - بالأراضي المحررة في جبل مرة أو جبال النوبة أو الإنقسناء، أو بالمناطق المتاخمة في شمال جنوب السودان، ويمكنها أن تتدبر أمرها وتمعن النظر في مجمل المشهد الوطني في تلك الأثناء، وتوحد رؤيتها وتكتيكاتها، وربما تفكر في مسيرة ألف ميلية كتلك التي سلكها الإمام محمد أحمد المهدي من قدير إلى الخرطوم - إذا دعا الحال وأصبح ألا مفر من المواجهة العسكرية. ولكن تجربة الاعتصام المذكور أثبتت أن نظام البشير عبارة عن نمر من ورق يتدثر بورقة توت واحدة مهترئة، وأن اعتصاماً آخرأ أكثر تنظيماً يستطيع أن يقضى على هذا النظام في بضع أيام. أي أن الباب أصبح واسعاً أمام المبادرات السلمية الجماهيرية الحصيفة والذكية، والتي يتم التخطيط لها بحذق بواسطة كل القوى ذات المصلحة في إنهاء النظام وتشديد الدولة الوطنية الديمقراطية الجديدة.

المهم فى الأمر كما قال الدكتور حيدر إبراهيم على هو أن تتوحد القوى السياسية، وألا تتبرم من القوى التقليدية وتتجاهلها وتتهمها بأبشع الاتهامات وتمارس اغتيال الشخصية ضد بعض من قادتها، وألا تقذف بالجنين مع الماء القذر، إذ أن الشباب الذى نظم الاعتصام يحتاج لحكمة ودهاء وخبرة شيوخ الأحزاب التقليدية، مهما حاول بعض قادتها (المتشبهين) أن يجمدوا نشاطها ويبيعوها بثمن بخس للنظام الحاكم. ويجب على لجان الأحياء أن تستقطب الشباب والشيوخ والنساء وممثلى كافة الطبقات والفئات والإثنيات السودانية - باستثناء الذين انبطحوا أمام النظام الإخواني - حتى تنصهر اللحمة السودانية مرة أخرى فى بوتقة واحدة محكمة العرى تستهدف النظام الإخواني الدكتاتوري، وتؤسس على أنقاضه النظام المدني العلماني الوطني الديمقراطي المتحضر المسالم الجديد.

السودان فى مهب الريح

لقد انقضى عام 2016، وما زلنا نمنى النفس بزوال نظام البشير الذى جثم على صدر الشعب السوداني وكنتم أنفاسه لسبع وعشرين سنة، وحول بلادنا إلى أشلاء ممزقة وأفلسها وأحالها لضيعة خاصة به وبأشقائه وأزواجه ورهطه الأقربين وسائر صحبه من الإخوان المسلمين، ودمر بناها التحتية ومؤسساتها الإنتاجية، وخرّب التعليم، وأضرم نيران الفتن المناطقية والحروب الإثنية بكافة أطرافها، وباع الأراضي للصينيين والمصريين والأعراب من كل شاكلة ولون، بثمن بخس ذهب لجيوب السماسرة والمخبرين والعاشرين سدنة النظام؛ وانهار الاقتصاد وتدهورت الحالة المعيشية إلى درجة لم تشهدها البلاد منذ قرن من الزمان، وبلغت صحة البيئة الحضيض على يد هذا النظام الفاشستي العشوائي المدمر، وتفشت الأمراض المزمنة، وهاجرت الكوادر القيادية والوسطية والدنيا إلى القبل الأربع، وتآكلت حدودنا مع الجيران بسبب ضعف الحكومة وانبطاحها أمام الغزاة والمتحرشين والطامعين، وأمام كل من يهدد بقائها وكل من تحسب أنه ذو شوكة عسكرية أو اقتصادية، وامتألت البلاد حتى الثمالة بكل أنواع المهاجرين الاقتصاديين والسابلة الهائمة على وجوها والعابرة للحدود من الصين وإرتريا وإثيوبيا وسوريا والهلل "الخصيب" ومصر وتشاد وإفريقيا الوسطى وغيرها، بتخطيط استراتيجي توسعي شرير معلوم ومسبق... أو بغير تخطيط. وباختصار، أصبح السودان قاب قوسين أو أدنى من نموذج الصومال واليمن وليبيا.

وعلى الرغم من كل ذلك، ما زلنا نعاقر ونمنى النفس بالانتصار على هذا النظام القابض بخناق البلاد، وما برحت جذوة المقاومة متقدة ولم تنطفئ فى أي يوم من

الأيام، وكان آخر تجلياتها العصيان المدني الأخير بنهاية نوفمبر و19 ديسمبر، مما هز النظام ورجه رجاً وجعل فرائضه تتراقص وأفقده الهيبة تماماً، فأصبح قادته يهزون (يهضربون) كأنهم مصابون بالمalaria، وفقدوا بوصلتهم واستحالوا إلى قشة فى مهب الريح. وبينما يتأرجح المد الثوري الشعبي بين الصعود والهبوط، يتقلب النظام بين تكتيكات التظاهر بالتنازل وبتغيير توجهاته وبين التمسك بها فى واقع الأمر، ويتجلى ذلك فى حديثه عن الانفتاح والحوار المشفوع بالمماطلة وعدم الالتزام بمقررات و"مخرجات" ذلك الحوار؛ وإزجاء الوعود البراقة بالمرونة والإصلاح والتغيير من ناحية، وتشديد القبضة الأمنية وملاحقة المعارضين بالداخل والخارج والتنكيل بهم من الناحية الأخرى. ومهما بلغت الحركة الجماهيرية من قدرات وإنجازات، يجب ألا نغفل من خطورة النظام وقابليته للغدر والتملص من العهود وشراء الذمم والفت فى عضد المعارضين، وباختصار تلك الخطورة التى مكنته من البقاء لأكثر من ربع قرن على الرغم من كراهية الشعب له وعلى الرغم من تردي الحالة المعيشية والمعاناة اليومية التى ظل الشعب يرزح تحتها طوال هذه السنين. ولكن ولحسن الحظ فإن الحقائق المحيطة بالنظام محلياً وإقليمياً ودولياً تشير إلى استحالة استمراره أكثر من ذلك، وإلى أن عصراً جديداً يطل بلامح مغايرة للإيديولوجية الإسلامية التى ظل يتدثر بها نظام البشير، وإلى أننا قد وصلنا إلى قاع الهوة التى ساقنا لها نظام الإخوان المسلمين، ولن تكون الحركة بعد ذلك إلا صعوداً إلى أعلى للخروج من تلك الهوة.

فما هي الصورة على النطاق المحلي والإقليمي والعالمي؟

- محلياً، ظل الشعب منتشياً منذ 27 نوفمبر بما حققه من نقاط ضد النظام خلال العصيان المدني، وظل متعاطياً منتظماً لوسائل الإعلام الاجتماعية المترعة بالمعلومات التى غيبتها عنه الإعلام الرسمي، وأصبح ملماً بتفاصيل الفساد المالي والإداري وبالسرقات التى ولغ فيها زبانية النظام بنهم وتكالب غير مسبوق، على طريقة (دار

أبوك إذا خربت شيل ليك منها شلية)، وتمكن من التواصل مع كوادرو وقادة المعارضة المقيمين بالداخل وبالخارج، ومن التثاقف والمحاورة معهم حول التكتيكات الهادفة لعبور المرحلة - مرحلة التخلص الناجز من النظام وعقابيله وإرساء قواعد الحكم الانتقالي بكافة آلياته وبرامجه ونظمه ودستوره وقوانينه وشخصه وتوجهاته. ولقد بذل النظام أقصى ما يستطيع من جهود لإسكات صوت الجماهير الذى انبجس من فوهات الإعلام الاجتماعي، ولكنها جهود فاشلة بلا ريب، كمن أراد أن يوقف الريح أو يمنع الشمس من الشروق. وبينما تستعد الحركة الجماهيرية للجولة القادمة الفاصلة مع النظام، نلفاها تنهل وتروم الاستفادة من تجربة العصيان بالشهرين المنصرمين، وتتحسس خطاها وسط الألغام الكثيفة التى زرعها النظام بكافة الطرق المؤدية للقصر الجمهوري بالخرطوم.

- وإقليمياً، بدا النظام وكأنه قد اكتسب رضاء ودعم القوى الكبرى بالمنطقة مثل العربية السعودية، وبدا كأنه قد حصد نتائج اشتراكه فى عاصفة الحزم فى شكل ودائع هائلة وحقتات مالية بعثت الحياة مجدداً فى الاقتصاد وفى الجنيه السوداني، بالإضافة للتعاون الأمني الذى تم بموجبه محاصرة بضع معارضين عاملين بالسعودية والتهديد بإرسالهم للسودان. هذه أشياء لا يسندها المنطق، وهى مبنية على غسيل الدماغ والتضليل والمعلومات المغلوطة **disinformation** التى تفنن فيها نظام الإخوان المسلمين طوال تاريخه فى الحكم. إن أي تقارب مع هذا النظام الإخواني يصب فى مصلحة تنظيم الإخوان المسلمين الدولي وحليفته إيران وأختها الماكرة تركيا تحت رجب طيب أردوغان الممسك للعصا من منتصفها والذي دخل معظم الدواش لسوريا والعراق عبر حدوده الجنوبية،

بينما يدعي مناهضة للدولة الداعشية التي انقلبت عليه مؤخراً كأنها جن أخرجها من القمقم أردوغان نفسه. إن نظام البشير نظام تآمري انقلابي تماماً كنظام الحوثيين المتحالف مع فلول على عبد الله صالح ومع الدولة الشيعية الكبرى بالمنطقة - إيران، ويقوم بنفس الدور الذى يلعبه الحوثيون في اليمن، وهو تدمير وتقسيم الدولة وتوطين عدم الاستقرار فى ربوعها والتعدي على الجيران خدمة لأهداف وأطماع أجنبية يستبطنها نظام الإخوان المسلمين الدولي وحليفاته إيران وتركيا. وإن تظاهر نظام البشير بقطع علاقته بإيران مجرد تقية تعلمها من الإيرانيين أنفسهم بغرض استدراج الدول المستهدفة من جانب إيران لتصبح طرفاً ممولاً لنظام كثير التشوهات ومتعدد الحروب الداخلية - نظام الإخوان بالسودان - كنوع من الإرهاق لتلك الدول المانحة، بنفس الطريقة التى تتم في اليمن، وكنوع من الاستنزاف المستمر لتلك الدول التى ما فتئت تعاني كذلك من الآثار المترتبة على الحرب الأهلية السورية وعلى الوجود الداعشي بسوريا والعراق. وفى نهاية التحليل فإن الكف عن دعم نظام البشير هو الذى يخدم أجندة القوى المستهدفة من تنظيم الإخوان الدولي وحليفته، أجندة السلام والاستقرار وحسن الجوار والتقدم الاقتصادي، تلك الأجندة التى تجسدها السعودية والدول الخليجية المستقرة الأخرى الجالسة على مقربة من فوهات المدافع الإيرانية والشيعية والإخوانية والداعية.

- ودولياً، ثمة نظام عالمي جديد يبشر به دونالد ترامب ذو التوجه اليميني الرجعي: فقد أعلن إبان حملته الانتخابية أنه سيحارب الدواعش بأسلوب جديد قد يتضمن التعاون مع نظام حافظ الأسد وروسيا وإيران - استدعاءً للبرجماتية اللانكية ضاربة الجذور في السياسة الخارجية الأمريكية، أي الغاية تبرر الوسيلة؛ كما أعلن

فى تلك الحملة أن إدارته ستطالب الحلفاء مثل اليابان والسعودية بأن يضطلعوا بفواتير الدفاع عن بلدانهم، حيث أن الأوضاع فى نظر ترامب ما عادت كما كانت عليه قبل انهيار المعسكر الاشتراكي وإبان الحرب الباردة. ولقد أوماً ترامب كثيراً إلى أن الولايات المتحدة سوف تستعيد سطوتها وعظمتها التى اضمحلت بسبب فترات حكم الحزب الديمقراطي - تحت رئاسة جيمي كارتر وبـل كلنتون وباراك أوباما. وباختصار، يريد ترامب أن يعيد عقارب الساعة الأمريكية لزمان كانت أمريكا تتحكم خلاله فى أجزاء كثيرة من العالم على الرغم من الكوابح التى كان يضعها أمامها المعسكر الإشتراكي بقيادة الإتحاد السوفيتي.

فما هي معالم تلك الهيمنة الإمبريالية الأمريكية - باكسا أمريكانا - التى يحلم باسترجاعها اليمين الجديد بقيادة ترامب؟

- إنها ببساطة بعث الروح فى الإمبريالية الأمريكية التى تعني فيما تعنى إنعاش الوضع الاقتصادي الداخلي وتحسين معيشة الطبقة الوسطى الأمريكية بتنشيط الصناعات العسكرية وباستغلال الشعوب الأخرى التى يمكن استغلالها وامتصاص "فائض القيمة" الذى يمكن استغلاله منها. وأول مظاهر ذلك الاستغلال عدم الالتزام باتفاقية التجارة الدولية التى أنصفت الدول الأخرى المتعاطية تجارياً مع الولايات المتحدة، بحيث لا تصبح مجرد أجرام تحلق فى الفضاء الأمريكي بذيلية مطلقة، تمدّه بالمواد الخام بأبخس الأثمان، وتستقبل منتوجاته الصناعية وتستهلكها وتتماهى مع الثقافة المصاحبة لها، الثقافة الاستهلاكية الأمريكية. ومن مظاهر تلك الهيمنة المزعومة البعث الجديد للمؤسسة الاستخبارية التى أطلقت

آلاف الكوادر الجيمس بوندية فى كافة أرجاء العالم لتمارس
الاجتياالات السياسية وترتب الانقلابات العسكرية وانقلابات القصور
وتتحكم فى عشرات الأنظمة حول العالم كما كان يحدث فى
الخمسينات والستينات من القرن المنصرم، منذ أيام جون فوستر
دالاس وزير خارجية الرئيس دوايت آيزنهاور وشقيقه ألان دالاس
مدير المخابرات المركزية، أولئك القوم الذين دبروا الانقلاب الذى
أطاح بحكومة الدكتور مصدق المنتخبة فى إيران عام 1953،
والانقلاب الذى أطاح بكل من أحمد سوكارنو فى إندونيسيا ليحل
مكانه العميل الأمريكى سوهارتو عام 1965، والانقلاب الذى أطاح
بسلفادور أللندي فى تشيلي عام 1973، ... إلخ.

- وفيما يختص بالسياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، فإن التاريخ
الذى يحاول أن يستدعيه ترامب مشحون بالتآمر والتدخل السافر
والمستتر، كما تجسد فى دخول القوات الأمريكية للبنان عام
1958، ثم دخولها فى العراق عام 2003. والمعروف أن الإخوان
المسلمين كانوا حلفاء وعملاء للولايات المتحدة طوال الحرب الباردة
وحتى سنوات قليلة خلت، ولقد استخدمتهم الإمبريالية الأمريكية فى
حربها ضد الأنظمة التقدمية بالمنطقة مثل نظام جمال عبد الناصر.
ولكن حظوظ الإخوان بهذه المنطقة لم تكن دائماً جيدة، فقد تصدت
لهم وقاومتهم الشعوب المتشعبة بالثقافة الوطنية الشعبية
وبالمعاني الإسلامية الصحيحة، كما حدث فى مصر فى يونيو
2013، وكما يحدث الآن فى السودان بدءاً باعتصام نوفمبر
المنصرم. وعلى كل، ما انفك الإخوان المسلمون بكافة تجلياتهم
وتفريعاتهم يشكلون عوامل زعزعة بكل الشرق الأوسط، من شمال
إفريقيا إلى غربها، ومن الصومال إلى السودان حيث يجلسون على
سدة الحكم، وإلى مصر حيث يحاولون القضاء على نظام السيسي،

والى سوريا والعراق واليمن وكافة أرجاء الجزيرة العربية التى يخططون لإعادتها لزمن الخلافة بالطريقة الطالبانية / الداعشية.

• ولكن الأحلام التى جاء ترامب متمنطقاً بها من حملته الانتخابية ليست قابلة للترجمة على أرض الواقع، فلقد أخذ الكنقرس يتشكك فى هذا القادم الجديد، بمن فى ذلك قادة الحزب الجمهوري مثل جون ماكين، خاصة فى أعقاب الفضيحة الأخيرة المتعلقة بالتدخل الإسفيروى الروسى فى الانتخابات الأمريكية التى كشفت النقاب عنه الأجهزة المخابراتية الأمريكية. ولقد تردد فى الصحافة الأمريكية أن الكنقرس لن يوافق على بعض الترشيحات للحقائب الوزارية المرتقبة، خاصة المرشح لمنصب الخارجية المتهم بعلاقات حميمة بالرئيس الروسى بوتين. وبالإضافة للكنقرس، فإن القضاء الأمريكى ومجموعات الضغط العاكسة لتوجهات اليسار الأمريكى سوف تعمل على كبح جماح الترامبيين وعلى إجماع الاتجاهات العدوانية والتآمرية والإمبريالية التى بشر بها دونالد ترامب. وكذلك، فإن المصالح الأمريكية نفسها وتوازن القوى العالمى سوف يجعل تخطى دولاً هامة مثل اليابان والصين والسعودية....أو الاستخفاف بها وفرض الأجندة الأمريكية عليها من الصعوبة بمكان.

• أما فيما يختص بالسودان، فإن أهله لن ينتظروا الإدارة الأمريكية لتمكن عليهم بالحل المناسب لأزمته، ولكنهم، كما فعل المصريون قبلهم، سوف يندلقون للشوارع عما قريب ويفرضون على أرض الواقع الحل الذى يروونه لتلك الأزمة. وعما قريب سوف يذهب نظام البشير إلى مزبلة التاريخ ومعه كل المآسى والحروب والفتن والأكاذيب التى ظل يسد بها الآفاق لنيف وربع قرن من الزمان.

تواصل النضال عبر الأجيال

لقد استمرت المقاومة الشعبية لنظام الإخوان المسلمين في السودان طوال السبع وعشرين سنة الماضية بلا كلل أو ملل، وما انفكت حركة الجماهير تعلو وتهبط مع الرياح والعواصف السياسية الموسمية التي هبت على بلادنا، والقاع الصخري للقوى الوطنية القابضة على الجمر صامد وباق كالبلّور ومقيم ما أقام جبل عسيب ومستمسك براية النضال دون وهن أو جبن. ومهما استطال الظلام الإخواني الحالكة فإن شعبنا يتذكر ليالٍ أشدّ بأساً ودمساً مرت بتاريخه الحديث والقديم، وتجاوزها في نهاية الأمر، إذ ليس هناك ليل ما أعقبه فجر؛ فلقد حكمنا الأتراك العثمانيون في القرن التاسع عشر لثلاث وستين عاماً - 1885/1822م - وجلبوا السخرة والقهر والاسترقاق والاستعلاء العنصري والشذوذ الجنسي..... وبطش الإنكشارية الباشبوزوق بجدودنا وأجلسوهم علي الخوازيق وأدخلوا القطط في سراويلهم وضربوها بالسياط، واستخدموا شتى آليات التعذيب التركي المعروفة آنئذ: الفلقة **bastinado** "أم سعد الله" والتشعيب "الصلب".... إلخ؛ وما فت ذلك في عضد السودانيين الذين رفعوا شعار العصيان ضد الجبايات الجائرة (عشرة رجال في تربة ولا ريال في طلبه)، وصعدوا به حتى بلغوا سقف النضال المسلح عام 1881م بقيادة الزعيم الوطني محمد أحمد المهدي، وما هي إلا بضع سنوات حتى دخلوا الخرطوم فاتحين منتصرين في يناير 1885م. وحقاً كما قال المولي عز وجل: (ألم. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون). - افتتاح سورة الروم.

بيد أن الثورة الوطنية المهدوية تمت سرقتها، كما ظل يحدث لكافة الثورات والانتفاضات بالمنطقة العربية حتى اليوم، واستحالت إلى ملك عضود أخذ بتلابيب أهل السودان لثلاث عشرة سنة حسوما، بينما استمرت المقاومة منذ اليوم الأول لحكم الخليفة عبد الله ول تور شيل، بدءاً بثورة الأشراف التي راح ضحيتها نفر من آل الإمام المهدي ومن أبطال الثورة، مروراً بالعديد من شيوخ القبائل ومشايخ الطرق الصوفية والقادة العسكريين الشجعان النوابغ مثل حمدان أبو عنجة والزاجي طمل،..... حتى قال الحارثي شاعر البطانة ملخصاً القضية وعاكساً المزاج الشعبي العام:

ناساً قباح من خيبتنا يوم جونا
جابلونا التزرعة ومن البيوت مرقونا
أولاد ناس عزاز..مثل الكلاب سوونا
يايأبا الفقس....ويا الإنجليز.....ألفونا!

وبالفعل جاء الجيش الإنجليزي المصري بقيادة الجنرال الإنجليزي هيربرت كتشنر بحجة إنقاذ شعب السودان من البطش المهدوي، ولكنها دعوة حق أريد بها باطل؛ فقد أناخ الاستعمار البريطاني كامل الدسم علي صدر البلاد لنيف وخمسين عاماً، ولم تنطل طبيعته الكولونيالية على أهل السودان على الرغم من أنه كان يسمى تخفيفاً وتلطيفاً (الحكم الثنائي الإنجليزي المصري)، وقد ألحقت حكومة السودان بوزارة الخارجية البريطانية وليس بوزارة المستعمرات، وعلى الرغم من العلمين - البريطاني والمصري - ومن أن به شيء من المشاركة المصرية، في شكل مواشير مراكز خاضعين للمفتشين الإنجليز، وبضعة قضاة شرعيين سرعان ما تمت سودنتهم .

ولأنه لم ينطل على السودانيين، فقد اندلعت المقاومة الشعبية له منذ أيامه الأولى :

- كانت هناك انتفاضات semi مهدوية متأثرة بفكر ونضال الإمام المهدي، ولقد أخدمت جميعها وتم شنق كل قادتها على الفور: - حركة علي عبد الكريم 1900، وحركة الفكي محمد الخزين 1902، وحركة ود حبوبة 1908، وحركة نجم الدين بسنار 1910، وحركة الشريف مختار والشنابلة 1910، وحركة عبد الوهاب الشايقي بتنقاسي 1912، وحركة محمد السيد حامد ابن أخت المهدي بسنجة 1919، وحركات جبال النوبة 1903 و 8 و 10 و 11 و 1917.
- واستمرت قبائل الجنوب تقاوم حتى عام 1926 عندما تم استخدام سلاح الجو البريطاني ضدهم كأول تجربة للقصف بالطائرات في التاريخ: حركة دينكا أجار الذين قتلوا ضابطاً انجليزياً 1901، وحركة الدينكا أنوات 1903 و 7 و 1910، وحركة الزاندي بقيادة ملكهم ريكتا بن يامبيو 1905، وحركة الشلك 1915، والنوير 1913 و 14 و 17، والأنوك 1913، والتبوسا 1926.
- وتفجرت الانتفاضات المهدوية بجبال النوبة عام 1903 و 8 و 10 و 11 و 17 و 1929.
- وكانت دارفور دويلة مستقلة يحكمها السلطان علي دينار، ولم تخضع لنفوذ الحكم الثنائي، ولكن الإنجليز لم يتركوها بعد الحرب الكونية الأولى، وتم غزوها وضمها للسودان بواسطة الجنرال هدلستون عام 1916.
- وبدأت الأحزاب نشاطها متدثراً بالجمعيات الأدبية والاجتماعية مثل "الإتحاد السوداني" عام 1922، وخرجت عام 1923 "اللواء الأبيض" من رحم هذه الجمعية بقيادة علي عبد اللطيف وعبيد حاج الأمين. وفي عام 1924 تفجرت انتفاضة مسلحة في أعقاب التظاهرات الطلابية في الخرطوم وعطبرة وشندي، وحكم على علي عبد اللطيف بالسجن ثلاث سنوات ونقل عبيد للجنوب، ونشبت معركة بين كتبة سودانية والجيش الإنجليزي استشهد فيها إثنا عشرة ضابطاً

وجندياً سودانياً وتم إعدام معظم قادة اللواء الأبيض، وأرسل من تبقى لمعتقلات الجنوب .

- تم إسكات صوت الحركة الوطنية تماماً خلال الثلاثينات والأربعينات، ومع ذلك نشطت الجمعيات الأدبية في أندية الخريجين بالعاصمة والأقاليم، وفي عام 1938 نشأ مؤتمر الخريجين كجبهة عريضة انضوت تحت لوائها كافة التيارات السياسية، وفي عام 1942 تقدم المؤتمر للحاكم العام بمذكرة طالب فيها بحق البلاد في تقرير مصيرها.

- ومن رحم المؤتمر خرج حزب الأشقاء 1943 وحزب الأمة 1945 والحزب الجمهوري "محمود محمد طه" 1951 والجبهة المعادية للاستعمار "الشيوعيون" 1954 (وكان الحزب الشيوعي قد تأسس تحت الأرض عام 1946) والوطني الاتحادي 1953؛ واتحاد نقابات السودان 1951.

- تكلل النضال السلمي السوداني باستقلال البلاد في يناير 1956.

وخلال الحكم الوطني رزئت البلاد بثلاث دكتاتوريات عسكرية: كانت الأولى أخف وطأة، إذ دامت لست سنوات فقط 1964/1958؛ ثم حكم البلاد نظام عسكري قومي عربي / شيوعي منذ مايو 1969 حتى 1971، وتحول بعد ذلك لحكم الدكتاتور الفرد - الجنرال نميري - مستنداً على القوميين العرب، على إثر قضائه على حليفه الحزب الشيوعي في يوليو 1971؛ واستمرت المقاومة السلمية والعسكرية لذلك النظام القمعي حتى تم القضاء عليه بواسطة الانتفاضة الشعبية في أبريل 1985.

ومنذ الثلاثين من يونيو 1989 حل بالسودان الليل الإخواني الحالك الراهن، وما انفك شعبنا يعاقر وينافح بالأيدي والمناكب والأرجل والحناجر.... وبالسلاح، في الحواضر والهوامش، وما زال هذا النظام الشعباني الحبرائي الخطير متشبهاً بالسلطة، ولا يهتم في كثير أو قليل ما آلت إليه البلاد من تفقر وتخلف اقتصادي وتهتك

اجتماعي وما ظل يعانيه الشعب من مسغبة وجوع كافر وعطالة وفقدان لخدمات العلاج والتعليم وكل ما كانت تقدمه الدولة لمواطنيها منذ العهد الاستعماري.

إن هذا الاستعراض السريع لتاريخ نضالات الشعب السوداني يهدف للتذكير بأننا في حالة كرف ورفر منذ فجر التاريخ، يدفعنا توق غريزي للإعتاق من الاستعباد والقهر، وتحركنا مبادئ راسخة ومعجونة بطينة الوطنية والتجرد والأخلاق الرفيعة، ومتشبعة بالشهامة والنخوة والثقة بالنفس والصدع بالحق تحت كل الظروف، وتحفزنا جينات الفوارس من لدن أبطال المهديّة الذين حاربوا جيش هكس وغردون المدججة بالسلاح الحديث وانتصروا عليها، ومن لدن علي عبد اللطيف وعبد الفضيل الماظ، ومن لدن شهداء سبتمبر 2013. وحرى بهذا الكر والفر أن يستمر إلى أن يتهاوى نظام الإخوان المسلمين الحالي وتحل مكانه الديمقراطية والشفافية وحكم القانون بموجب دستور 1955 المعدل... إلخ. ولقد كانت معركة نوفمبر وديسمبر الجاري محطة واحدة في سلسلة المحطات النضالية متعددة الأشكال والأدوات والمنهجيات التي تنتظرنا في سكة النضال الطويلة التي لا تعرف القنوط.

لقد ظللت أكتب ضد هذا النظام منذ أول أيامه - بـ "الوفد" المصرية وبـ "الخرطوم" و"الاتحادي الدولية" وبيعض الصحف الخليجية ثم بسائر الإصدارات الإفسيرية، وكثيراً ما أنهى مقالتي بأن هذا النظام يحتضر وما هي إلا بضعة أيام حتى نشيعه إلى مزيلة التاريخ. وفي هذه الأثناء شب جميع أبنائي وبناتي عن الطوق وتخرجوا في مختلف الجامعات، وأخذوا يداعبونني: لقد ظللت يا أبتاه تنتظر أن تشيع هؤلاء القوم إلى مزيلة التاريخ منذ أن كنا في الروضة. ألا زال الموقف كما هو؟ ويجدونني في نفس الموقع، وهو الجانب الصحيح من التاريخ، حتى لو التهم العمر كله، إذ لا سبيل للتعايش مع هذا النظام الجائر وفكره الأصولي المتحجر، إلا إذا أردنا أن نترك للأجيال القادمة شيئاً كاليمين "السعيد" أو الصومال. وأقول لهم: ماذا أساوى أمام قائد وطني مثل نلسون مانديلا الذي بقي في السجن لسبع وعشرين سنة بجزيرة روبن في عرض المحيط، وخرج على أشلاء نظام الأبارتايد؟ ومن حسن الطالع، وما

يبحث على الأمل فى المستقبل، أن أبنائي وبناتي كلهم منفعلون بقضايا شعبهم، على الرغم من أنهم ترعرعوا في الخارج، وكلهم متواصلون مع شباب القروبات التي نظمت اعتصامي نوفمبر وديسمبر، والتي هي الآن تعد العدة للمعركة القادمة الفاصلة مع نظام عمر البشير الفاشي الفاشل. وحقاً "لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون". وعاش كفاح الشعب السوداني .

النهاية الوشيكة لنظام البشير

كنت قد أعدت قراءة تراجيديا "ماكبث" لوليام شكسبير بغرض المزيد من الاستقصاء للقواسم المشتركة بين ذلك القائد العسكري الخائن الذى تبوأ عرش اسكتلندا على جمجمة مليكها دنكان ابن عمه، وبين عمر البشير الذى سطا على الحكم فى بلادنا أيضاً على يافوخ النظام الديمقراطي الشرعي؛ فكلاهما عقيم لا يعرف العواطف الإنسانية العادية كالحنان ومشاعر الأبوة (وكذا الحال بالنسبة لزوج ماكبث Lady Macbeth التى لا مندوحة لديها من نزع طفلها - لو كان لها طفل - من ثديها وتهشيم جمجمته بالحائط لو حال بينها وبين كرسي الملك)؛ وكلاهما دموي وعنقوي ومفعم بالحقد الأسود على بني البشر، وكلاهما ولغ فى دماء الأبرياء رجالاً ونساء وأطفالاً بسبب فوبيا المؤامرة والشك والوسواس والخوف المرضي من الآخرين paranoia، وكلاهما لا يعرف الندم remorse شأنه شأن النموذج الأمثل للسايكوبات، ولم يستبطننا غاية سوي التشبث والاستمرار فى كرسي الحكم حتى لو بادت مملكته عن بكرة أبيها، وقد استبد بهما جنون العظمة الجامح، megalomania.

ولكن تسارع الأحداث جعل مثل هذه الفذلكة رقصاً خارج الحلبة، فلا بد من التركيز على مقتضيات واستحقاقات الانتفاضة التى بدأت باعتصام 27-30 نوفمبر، والتى سوف يكللها اعتصام 19 ديسمبر الجاري بالنصر المؤزر، وبنهاية نظام الإخوان المسلمين وانهياره كأنه أعجاز نخل خاوية، وببداية العهد الوطني الديمقراطي الجديد. بيد أن المقارنة بماكبث تظل واردة وذات علاقة بما جرى وما انفك يجري في السودان، وبها دروس وعبر؛ وخلاصة العقدة في تلك التراجيديا أن ماكبث، الشخصية السايكوباتية شديدة الشبه بالضابط عمر البشير، استبد به الغرور

والطمع والغدر والجحود والأنانية وشهوة الحكم بعد أن عاد منتصراً في معية رفيقه بانكو من معركتين في شمال اسكتلندا ضد الجيش النرويجي الغازي والآخر القادم من إيرلندا، فقام بتحريض من زوجه العقريية بذبح الملك دنكان الذي حل بقلعته ضيفاً ليكرمه ويسبغ عليه لقب "ثين اف كودور". وكان ماكبث قبل ذلك بيوم واحد قد لاقى وزميله بانكو ثلاث جنيات witches في قفر خلوي moor تنبأن له بذلك اللقب الذي سيمنحه له الملك في نفس اليوم (Thane of Cawdor) كما تنبأن باعتلائه عرش البلاد، وقالوا لرفيقه بانكو إنه سيكون أباً وجداً لسلسلة من الملوك. ولقد اعتبر ماكبث وزوجه الشريرة بالسليقة LM أن ذلك غطاء وتفويض سماوي metaphysical aid للانقضاض علي الحكم، تماماً كما وجد البشير في الشعارات الإسلامية (هي لله!) تبريراً وغطاءً ميتافيزيقياً لكل ما ارتكب من فظائع وجرائم منذ استيلائه علي السلطة حتى الآن؛ إذ قالت السيدة ماكبث مخاطبة زوجها على البعد، قبل أن يتناهي إلى قلعته Dunsinane، بعد أن تلقت رسالته المتضمنة لنبوءات الجنيات:

(Hie thee hither, that I may pour my spirit in thine ear, and chastise with the valor of my tongue all that impedes thee from the golden round, which fate and metaphysical aid doth seem to have thee crowned withal!)

وكان أول ضحايا ماكبث بعد قضائه على دنكان وتسلم الحكم هو رفيق سلاحه وصديقه بانكو الذي هرب ابنه فليانس من المجزرة ليصبح فيما بعد ملكاً وأباً لسلالة من الملوك والأباطرة الإنجليز من أصل اسكتلندي كما تنبأت الجنيات؛ ثم قتل ماكبث زوج وأطفال زميله الآخر ماكصف، الذي أفلت هو أيضاً من المجزرة وهرب نحو انجلترا حيث انضم لجيش الثوار بقيادة مالكولم ابن الملك المقتول دنكان، ذلك الجيش الذي زحف نحو قلعة دنسينين وهزم ماكبث، وكانت نهاية ذلك الطاغية المعتوه على يد ماكصف الذي فصل رأسه عن جسده، (وكانت الليدي ماكبث قد

أصببت بلوثة جنونية جعلتها تركب حمار النوم وتهذي وأخيراً تقتل نفسها)، وتم تتويج مالكولم ملكاً ومؤسساً لأسرة حاكمة مستقرة توارثها من بعده بنو عمه آل بانكو. وعلى نفس المنوال، ذبح البشير في شهوره الأولى ثمانية وعشرين من رفاقه الضباط لأنهم حاولوا القيام بانقلاب مثل انقلابه، ودفنهم - وبعضهم ما زال حياً - في مقبرة جماعية، كما اغتال نائبه الزبير محمد صالح وزميله المتنفذ والأكثر فظاظاً وتطرفاً إبراهيم شمس الدين، وأعلن كذباً أنهما استشهدا في حادثي طائرة؛ (أما حالة شمس الدين فهي تضع البشير كذلك في مصاف عم هاملت أمير الدنمارك الذي قتل أباه وتزوج أمه، وظل هاملت بين الشك واليقين procrastinating إلى الفصل الأخير من التراجيديا حينما حزم أمره وقتل عمه وأمه انتقاماً، ومات هو نفسه بالسم الذي دسه له عمه في سيف أحد أعوانه الذي حرضه على مبارزة هاملت)؛ وبنفس الكيفية اغتيل مجنوب الخليفة الذي قيل إنه مات في "حادث مروري" بطريق شندي الخرطوم، وكذلك تخلص البشير من عراب نظامه حسن الترابي وأودعه غياهب السجن، وتخلص من علي الحاج وإبراهيم السنوسي، وتخلص من غازي صلاح الدين، وتخلص من أقرب المتآمرين معه في عملية الاستيلاء على السلطة والبقاء على نوابتها سنين عددا - على عثمان محمد طه ونافع ع نافع وعوض الجاز ومصطفى ع إسماعيل وعبد الرحيم علي وصلاح قوش... إلخ.

ومن أعراض السايكوباثية العمرية البشيرية أنه يقتل ويرقص في نفس الوقت، تماماً مثل الإمبراطور الروماني نيرون الذي أمر بحرق روما وطفق يعزف علي قيثارته والنار متأججة حوله، وقودها الناس والحجارة. وبالأمس كان البشير يرقص في ودمدني بين دهشة العالم كله الذي ظل متابعاً لشباب الفيسبوك وهم يعدون العدة للقضاء على نظامه في بضعة أيام.

ما هذا ياترى؟ هل هو الجهل المركب، و"الجاهل" عدو نفسه، أم كركرة الروح، أم ادعاء اللا مبالة، أم الاستفزاز المقصود للمتفضين حتى يستجيبوا لدعوة البشير

ويخرجوا إلى العراق لتحصدهم المدافع الرشاشة؟ إن البشير هذا ليس فقط كديك المسلمية الذى (يقلون بصلته ويجهزون كشنته وهو يعوعي)، ولكنه شخص معتوه تماماً، فرعون يمشي عارياً بين الرعية ويحسب أنه غير ذلك، فقد أسكرته السلطة وغيب عقله كلياً، ولا يخالجنى أدنى شك في أنه سوف يستمر في إراقة دماء السودانيين حتى رمله الأخير. هذه حقيقة يدركها المنتفضون داخل وخارج السودان، ولقد تحسبوا لها بخطة عبقرية بعثت الحيرة والربكة في نفس الطاغية الجهول وفي أجهزة أمنه، وهي الاعتصام السلمي والمكوث داخل المنازل. ماذا ترى إخوان البشير فاعلين؟ هل سوف يتحسسون ويتجسسون على الشعب كله، وهل سوف يفتقرون فوق أسوار ثلاثين مليون منزل سوداني؟ إن الاعتصام لا يعني فقط وقفة احتجاجية سلبية، أو الإقامة في المنازل ما أقام عسيب بلا شغل أو مشغلة؛ ولكنه يعني تعطيل جهاز الدولة برمته وإيقاف الإيرادات الحكومية مما سيجعل دولة الإخوان المسلمين عاجزة عن تمويل الماكينة الأمنية الجاقنوتية، ومما سيكشف ظهرها ويفضح أمرها ويزرع الشكوك والانقسامات بين منسوبيها الذين لا يعرفون للحياة طعماً بدون الضخ المستمر للمال صوب جيوبهم، ومما سيرفع من وتائر السخط الجماهيري على السلطة؛ كما إن الاعتصام قد جلب وسوف يجلب المزيد من التفهم والتضامن الإقليمي والعالمي مع شعب السودان المستغيث، ولقد دلت على ذلك مئات آلاف التغريدات والزيارات والتعليقات الواردة من شباب الدول العربية المجاورة، مما سيدفع نحو تجفيف مصادر الدعم الذى كان بمثابة طوق نجاة فى الآونة الأخيرة لنظام البشير - على إثر مساهمته فى حرب اليمن بكتيبة من المقاتلين السودانيين بها ألف جندي وضابط لا حول ولا قوة لهم و(لا يعرفون أين فسا الحوت)، وتسريب المعلومة المتعلقة بإرسال الجنجويد أشباه العرب برمتهم ليدافعوا عن الخليج العربي باعتبارهم عرباً أشاوساً تم تجريبهم في محاولة إبادة القبائل الإفريقية (المسلمة) الفور والزغاوة والمساليت والداجو بجنوب دارفور، (وليس مهما كونهم عرب مستعربة، فهم على كل حال أقرب من الصوماليين الذين لا يتحدثون العربية).

إن الاعتصام سلاح عبقرى ومتحضر وفعال، ولقد تمكن الثوار الإسفيرون من استقطاب كل السودانين المعارضين حوله، ومن تحقيق وحدة تكتيكية بين القوى السياسية لم يحدث مثلها منذ طيب الذكر التجمع الوطنى الديمقراطى، حيث تحققت "الكتلة التاريخية التسونامية" التى سوف تقتلع نظام البشير الإخوانى من جذوره وتفعّل به ما عجز عن فعله التجمع، ولقد بات النصر قاب قوسين أو أدنى؛ فحرى بالقوى المعارضة التى نازلت نظام البشير وأوشكت أن تلحقه بصفه هاملت فى أعماق الجحيم، أن تنتبه لبعض الملاحظات:

- لا بد من الاتفاق عشية الاعتصام على وثيقة المرحلة الانتقالية بكل تفاصيلها المتعلقة بالدستور والعدالة الانتقالية المعرفة تعريفاً دقيقاً، والهيكل التنظيمى للدولة بما فيها المسميات ووصف المهام والمسؤوليات. ويجب ألا يكون هنالك أي فراغ دستوري يغري المغامرين والانقلابيين بالانقضاض على الثورة وسرقتها مثلما فعل نابليون بونابارت بالثورة الفرنسية.

- الاتفاق حول الإجراءات المطلوب اتخاذها ضد رموز التنظيم الإخوانى والمؤتمر الحاكم وأجهزة المخابرات، والاتفاق حول كيفية التعامل مع هؤلاء الأشخاص بالعاصمة والأقاليم، ويجب سد كل الثغرات التى قد ينفذ منها الإخوانية وزمرتهم سواء هروباً نحو الخارج، أو قفزاً من السفينة الغارقة وتبدلاً لقمصانهم مثل الحرياء والشعابين.

- ضرورة تفعيل لجان الانتفاضة بالمناطق والمراكز الحدودية التى سوف يحاول الهاربون أن ينسلوا عبرها - فى مثلث حلايب والعبيدية وأبو حمد وفى بورتسودان وسواكن وطوكر وكسلا والقضارف والقلابات والكرمك وحلفا القديمة والحدود مع مصر وليبيا من الناحية الشمالية الغربية والتخوم التشادية السودانية.

- يجب تفعيل الصندوق القومى المقترح من بعض المناضلين لدعم الأسر والأشخاص المتأثرين بالانتفاضة بسبب الاعتقال أو الاستشهاد.

• ولا بد من مواصلة النضال الإسفيري الذي لعب الدور المفصلي في إزالة هذا النظام الجاثم على صدر البلاد منذ نيف وربع قرن، ومواصلة المجموعات التي اضطلعت بهذه المهمة، حتى لا ينقطع نشاطها خلال مرحلة الترميم وإعادة ترسيخ الدولة الجديدة ببنيتها المؤسسية وقطاعاتها الخدمية، وحتى تتواصل المراقبة الجماهيرية لسلوك متنفذي القطاع العام والخاص، وبذلك نضع اللبنة الصحية والصحيحة لمجتمع خضوع الحكام للمساءلة، مجتمع المساواة والشفافية والنزاهة واحترام المال العام والوطنية والتجرد، مجتمع العدالة الاجتماعية والتقدم الاقتصادي.

آخر الكلم:

ليس هذا وقت الكلام، ولكن البيان بالعمل، ولقد جعل شعبنا نظام البشير يهتز من رأسه إلى أخمص قدمه بمجرد التهديد بالإضراب السياسي العام، وهناك احتمال كبير أن تتصدع دولة الإخوان ويفر جلاوزتها ورهطهم كالفئران المذعورة قبل يوم الاثنين القادم، ولا نملك إلا أن نقول لشعبنا ما قال أبو الطيب المتنبى:

أمغر الليث الهزير بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا

فكيف يصبح حال النظام إذا اقتحمت الخرطوم أي فصائل دار فورية أو نوبية أو إنقساوية سودانية مسلحة... بالتنسيق مع المعارضة المدنية؟

إن النصر معقود لواؤه بأهل السودان، فقط عليهم ألا يسمحوا بسرقة الانتفاضة بواسطة أي كائن من كان، وألا يسمحوا بإفلات الإخوانجية والمؤتمرجية والأمنجية والسدنة من المحاسبة حتى يردوا ما سرقوا على دابر الدولار والفسل والمليم.

الكاستروية... والثورة السودانية

بادئ ذي بدء، لا توجد علاقة تذكر بين كوبا والسودان، إذا استثنينا جنوب السودان ومنسوبي الحركة الشعبية الذين تم تدريبهم في هافانا. ولكنى فقط لا أريد أن أبتعد كثيراً عن الساحة السودانية الملتهبة حالياً، كما لا يجوز تجاهل حدث ضخم مثل وفاة الزعيم الثوري الماركسي فيديل كاسترو، إذ أن فى التوقف لدي سيرة هذا الطود الشامخ دروساً يتوجب أن يتأملها الشباب المنتفضون في السودان، عليهم يجدون فيها ثقافة ذا جدوى وإلهاماً وتحفيزاً للأمام، وعليهم في نفس الوقت يأخذون حذرهم من مطبات وتقلصات وأخطاء الحالة الكوبية التى أدت في النهاية لمجتمع متكلس ومتحجر وعديم الشفافية وتنقصه حرية التنظيم والتعبير، مجتمع يزرع تحت الحزب الأوحد والزعيم الواحد الأحد كما هو الحال "تقريباً" في كوريا الشمالية وفى كافة الأنظمة التوتاليتارية.

كان الثائر كاسترو وأخوه راؤول وصديقهما الدكتور تشي جيفارا فى مقدمة الأيقونات الملهمة لجيلي، جيل نهاية الخمسينات وبداية السبعينات، فقد جسد أولئك القادة الثورة المسلحة بشكلها المثالي الذى لا يتحقق إلا فى الأحلام؛ قادوا مجموعة ثوار كوبيين لا تتعدى المائة وعشرين، وتدريبوا لبضع شهور في المكسيك، ثم عبروا البحر على قارب مهترئ في زمن قياسي، واشتبكوا مع الجيش الحكومي بالشاطئ، وخسروا أكثر من نصف مقاتليهم، وانسحب الباقون بقيادة الثالث البار - فيديل وراؤول وجيفارا - واستقروا بجبال سيرا ماستيرا، ومن هناك بدأوا زحفهم نحو هافانا، وكانت المعركة الفاصلة فى كونتي كانفالي عام 1959، وبعدها تبعثر جيش الدكتاتور باتستا أيدي سبأ ودانت البلاد لمليشيا كاسترو ورفاقه. كان ذلك نموذجاً

مطابقاً لما حدث فى الصين عام 1949 عندما تقدم الثوار الصينيون بقيادة ماو تسي تونج نحو بكين عبر مسيرة الألف ميل، واستولوا على السلطة وظلوا بها حتى اليوم. وهو نموذج لا يختلف من الناحية التكتيكية العسكرية عن مسيرة الإمام محمد أحمد المهدي والثوار الأنصار من قدير بجنوب كردفان حتى الخرطوم التى دانت لهم فى يناير 1885م.

ومصدر الإلهام الكوبي هو مقدرة جزيرة ضئيلة الكيان وضامرة السكان كهذه على الصمود أمام أكبر قوة إمبريالية فى العالم - الولايات المتحدة - وعدم الانكسار أمامها أو الرضوخ لها طوال الستة عقود المنصرمة، والتمتع بالنظام السياسي الاجتماعي الاقتصادي الذى اختاره الشعب الكوبي، أو ما تبقى منه بعد أن هاجر نصف سكان الجزيرة ليستقروا بميامي ونواحي فلوريدا وكافة أرجاء الولايات المتحدة. ليس هذا فقط، بل مدت الثورة الكوبية يدها المتضامنة والداعمة لحركات التحرر بإفريقيا وأمريكا اللاتينية، ليس بالشعارات والبيانات والمؤتمرات واستضافة قادة تلك الحركات كما كنا نفعل فى السودان، بل بالضباط والجنود الكوبيين، وعلى رأسهم الرجل الثانى بالدولة - تشي جيفارا - الذى كان يحارب بنفسه مع ثوار الكنغو برازافيل وبعض البلدان الإفريقية الأخرى، وفيما بعد بأدغال أمريكا الجنوبية إلى أن لقي حتفه على يد المخابرات الأمريكية فى بوليفيا.

ولقد شارك خمسة عشرة ألف مقاتل كوبي مع ثوار موزمبيق وأنقولا فى السبعينات إلى أن دحرت تلك الدول الاستعمار الاستيطاني البرتغالي وحققت استقلالها، بقيادة سامورا ميشيل فى موزمبيق والدكتور أوغستينو نيتو فى أنقولا بالجنوب الإفريقي، وأميلكار كابرال فى غينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر بالغرب الإفريقي، كما دعمت الثورة الكوبية نظام منقستو هايلي مريام الذى أطاح بالإمبراطور هيلا سلاسي. وبالإضافة لذلك فلقد شكلت كوبا ضلعاً أساسياً ضمن دول عدم الانحياز، إلى جانب يوغسلافيا تيتو ومصر عبد الناصر والهند تحت حكم المؤتمر وقادته جواهر لال نهرو وابنته إنديرا غاندي فيما بعد. وفى حقيقة الأمر كانت كوبا جزءاً من هذه

الحركة وفى نفس الوقت حليفة للإتحاد السوفيتي، بل كادت أن تتسبب فى حرب نووية بين القوتين الأعظم - روسيا وأمريكا - عام 1962، عندما سمحت للجيش السوفيتي ببناء منصات للصواريخ العابرة للقارات بأرضها على بعد تسعين ميلاً من الشواطئ الأمريكية؛ بيد أن حكمة نيكيتا خروتشوف أدت إلى الموافقة على التراجع أمام ضغوط جون كندي وسحب تلك القواعد.

وعموماً، دونت الثورة الكوبية سطوراً من نور على سجلات التحرر الوطني والإعتاق من الهيمنة الإمبريالية الغربية، ومن أجل إرساء قواعد الدولة الحرة المستقلة ذات السيادة والشوكة العسكرية مهما كان حجمها الجغرافي. ولكنها فى نفس الوقت عانت من ذات الأمراض التى عانت منها الأنظمة الشيوعية الأحادية فى كل الدنيا، وهي التكلس والخرف المبكر والجمود وغياب حرية الرأي، مما قاد لسقوط المنظومة الشيوعية الأوروبية برمتها - بولندا والإتحاد السوفيتي والمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية وبلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا وألبانيا - ولم ينج من هذا المصير إلا الصين وفيتنام وكوريا الشمالية وكوبا. أما الصين فقد أفلتت من الانهيار بانتهاجها لسيناريو اقتصادي يزاوج بين السيطرة المركزية على الاقتصاد والسماح ببعض ممارسات اللازي فير - اقتصاديات السوق - بدءاً ببعض الحواضر الصناعية مثل شانغهاي، واندياحاً نحو باقي مفاصل الإنتاج الصناعي والزراعي. وأما فيتنام فقد حاكت الصين واتجهت نحو آليات السوق ونحو الشراكات المكثفة مع أصحاب العمل الغربيين الذين هربوا بمصانعهم إلى هذه الساحات الجديدة فى الصين وفيتنام تجنباً لسلح الضرائب البتار وللعمالة الغربية المدللة، واستمتعاً بالإمكانيات التى توفرها الدولة القوية المهيمنة فى هذه الأنظمة الشيوعية (التي أضحت شبه quasi شيوعية)، وبالعمالة المدجنة الرخيصة وبالموارد الأولية المتوفرة والشمس الساطعة والأجواء البيئية الطبيعية الملائمة. كما استثمرت فيتنام عقدة الذنب لدى العديد من الأمريكان الذين أرادوا أن يكفروا عن الفظائع التى ارتكبوها أثناء الحرب الأمريكية العدوانية على فيتنام، فعادوا لذلك البلد الناهض وساهموا فى تنميته الاقتصادية بقدر ما استطاعوا. وأما كوريا الشمالية فقد أصبحت تمثل الحد الأقصى

من السوء الذى قد تبلغه الأنظمة الشيوعية إن لم يتم ترشيدها بالتزواج مع الأفكار الليبرالية الديمقراطية، فهي مجرد أوتوقراطية وراثية آسيوية مثل الإمبراطوريات الصينية في فجر التاريخ - دولة إسبارتية متطرفة، تمتشق حسامها النووي باهظ التكلفة لتحارب طواحين الهواء بشمال شرق آسيا، تدفعها الغيرة السوداء من تلك الدول الناجحة، بينما يتضور شعبها جوعاً ويموت مراراً ويحيا مراراً كل يوم.

أما كوبا، فقد سحرتها الشخصية الكاريزمية الأبوية لفيدل كاسترو ببساطته وتواضعه وقوة وسلاسة خطابه وبعده عن المحسوبية والفساد وإخلاصه لمبادئه قولاً وفعلاً؛ وظل الشعب الكوبي يتمتع بعزة النفس والزهو بوطنه الذى وقف نداً للإمبراطورية الإمبريالية الأمريكية ومرغ أنفها فى التراب، ويتمتع بنظام صحي وتعليمي غير مسبوق فى أمريكا اللاتينية؛ بيد أن الثورة الكوبية لم تحقق أي نجاحات في مجال التنمية الاقتصادية والصناعية التى تمكن تلك الجزيرة من المنافسة على نطاق الساحة التجارية الدولية، وظلت تعمل بسيارات وآليات وأنظمة عفا عليها الزمن وليس لديها من يمددها بقطع الغيار، وتوقف النمو الصناعي والزراعي وتجمد عند مرحلة الستينات، وما انفك الشعب الكوبي يعاني من الفقر والحرمان على الرغم من الثراء المعنوي الذى جلبته الثورة، شأنه شأن الإعرابي ذى الرداء الممزق في عز الشتاء حين سأله: (ماذا أنت فاعل مع البرد يا أخ العرب؟) فأجابهم: (أمشي الخيزلي ويكفيني ما لدي من حسب ونسب.) كما لم تعرف كوبا طوال الستين عاماً المنصرمة شيئاً اسمه حرية التعبير أو التنظيم أو الانتخابات الشفافة النزيلة أو التداول السلمي للسلطة، فقد ظل الأب كاسترو يحكم حتى أقعده المرض قبل بضع سنوات، ولم تستوعب كوبا أهمية الإصلاح الاقتصادي الذى مارسه الصين وفيتنام إلا في السنوات الأخيرة، بعد أن تولي راؤول كاسترو أمانة الحكم.

ويجب أن نتذكر أن النموذج الكوبي ليس دائماً هو الأمثل للثورة وللطريقة التى يحكم بها الثوار بعد النصر وتسلم السلطة؛ فقد حارب الجنرال شارلس ديغول ضد

النازية الألمانية التي احتلت بلاده منذ المرحلة الأولى للحرب الكونية الثانية، وبعد هزيمة هتلر ذهب ديقول ليعمل بالزراعة في قريته إلى أن تم استدعاؤه بعد ذلك بسنين طويلة ليتولي الأمر في قصر الأليزيه. والنموذج الأقرب للمقارنة بالحالة الكوبية هو نلسون مانديلا وحزب المؤتمر الجنوب إفريقي، فقد كان أولئك الثوار الأفارقة تقدميين واشتراكيين ومتحالفين مع الحزب الشيوعي، مثلهم مثل الثوار الكوبيين، ولكنهم آثروا الديمقراطية الليبرالية طوال وبعد مفاوضاتهم مع قادة الأبارتايد، وارتضوا نظاماً ديمقراطياً تعديلاً يتمتع بالشفافية وحرية التنظيم والتعبير وبالقضاء المستقل المحايد وبأجهزة سيادية وتنفيذية وتشريعية وحقوقية يكبح بعضها جماح البعض الآخر وفق توازن القوي المعروف باسم (الكوابح والتوازنات checks and balances)، وبالصحافة الحرة والنقابات المستقلة عن الحزب الحاكم. ولقد حكم مانديلا لبضع سنوات ثم أوي لقريته بالجنوب الشرقي لبلاده ولم يتذاعب أو (يكنكش) في السلطة مثل روبرت موقابي الذي ظل يحكم زمبابوي رغم أنه قد بلغ أكثر من التسعين عاماً ووهن عظمه وارتج عقله من فرط الخمر والشيخوخة، أو بوتفليقة الذي يحكم من فراش المرض، أو كيم إيل سونق الزعيم الكوري الذي حول الشيوعية في بلاده إلى ملك عضود. ولم يفكر نلسون مانديلا في توريث الحكم لأبنائه وأحفاده بدعوى الاستقرار والاستمرارية، كما فعل الزعيم الشيوعي الكوري الشمالي، وكما فعل كاسترو الذي سلم الحكم لأخيه راول. إن المبدأ الذي تمسك به مانديلا ينحدر من لدن فلاسفة الليبرالية الأوروبيين والآباء المؤسسين قادة الثورة الأمريكية الذي حذروا البشر من الإنسان عندما ينفرذ بالسلطة، فهو يتحول إلى ذئب يفترس حتى أقرب الأقربين ولا يتنازل عن سلطته إلا بعد بحور من الدم وعلي جماجم شعبه؛ فلا بد من الكوابح والتوازنات والتبادل السلمي للسلطة كل بضع سنوات، وإشاعة الحرية بحيث يستطيع الناس أن يحاسبوا حكامهم ويردعوهم عن السياسات الخاطئة، أو يحاكموهم أو يقصوهم عن السلطة إن دعا الحال بالإجراءات البرلمانية المشروعة وبإعمال القانون.

إن النموذج الجنوب إفريقي هو الأقرب لأفئدة السودانين وهم بصدد تغيير النظام الدكتاتوري الراهن؛ ويستدعى ذلك التأسى بالعمل الجبهوي الوحدوي الخلاق الذى تأسس عليه حزب المؤتمر الجنوب إفريقي، ذلك الحزب الذى جمع في أحشائه الإثنيات المختلفة من أفارقة وذوى أصول أوروبية وآسيوية وكافة التشكيلات والاتجاهات السياسية والتجمعات النقابية التى تألف منها المجتمع الجنوب إفريقي. وكثيراً ما أخطأت الحكومات التى تعاقبت على بريتوريا منذ الإطاحة بنظام الفصل العنصري في مطلع التسعينات، وظهر بينها غير قليل من الفساد المالي والإداري، ولكن الوضع بصفة عامة أفضل مما ظلت تشهده زيمبابوي طوال الخمسة عقود الماضية، فالديمقراطية تسمح بالنقد والنقد الذاتى، وبالاحتجاج والرفض العلني للإجراءات والسلوكيات الخاطئة، وفى كنفها يتم التصحيح وتستمر المسيرة، كما حدث فى الولايات المتحدة التى استمرت فيها الديمقراطية لثلاثمائة سنة تقريباً، وتطورت البلاد فى كنفها من دولة إقطاعية تبيع وترعى الرق... إلى ديمقراطية تسمح برئيس أسود - باراك حسين أوباما. وكما قال محمد أحمد محجوب فإن "علاج الديمقراطية هو مزيد من الديمقراطية".

والشباب السوداني الذى يعد هذه الأيام للعصيان المدني الذى حدد له يوم 19 ديسمبر الجارى والذى سوف يرتبط بزوال النظام، حري به أن يستوعب الدروس المستفادة من مسيرات الثورات المشابهة فى باقى العالم، وحري به أن يرفع مستوى الوعي بين صفوفه حتى لا يقدموا على المرحلة القادمة، أى مرحلة إرساء قواعد الحكم الانتقالي، وهم يعانون من الانقسامات أو التشويش الفكري أو النزعات اليسارية الطفولية أو الرومانسية الثورية التى تجعلهم يصابون بالغرور فيتهمون كل من عداهم بالرجعية ويحكمون عليه بالفناء كما فعل روبسبير أيام الثورة الفرنسية 1789م. والضمان الوحيد ضد الغلو والإفراط فى استخدام السلطة والبطش الهجمي بالأعداء المتهمين هو حرية التعبير والتنظيم واستقلال القضاء والصحافة حتى فى أحلك الظروف ومنذ اليوم الأول للإطاحة بالنظام الاستبدادي الراهن؛ فقد علمتنا التجارب أن الذئاب تختفي وراء شعار الشرعية الثورية (الانتقالية) وتستفيد

كثيراً من تعطيل الدستور بدعوى التحوط ضد الثورة المضادة والغداء بها قبل أن تتعشى بنا، ثم بعد ذلك نجلس على مهلنا لصياغة الدستور الجديد، وسوف يستغرق ذلك سنوات طويلة قادمة كما حدث عدة مرات منذ استقلال السودان عام 1956.

وبهذه المناسبة فإن السؤال الملح هو: أي دستور سيحكم الفترة الانتقالية؟ نرجو من المناضلين القانونيين أن يفتونا على جناح السرعة فى هذا الأمر. وعموماً، يرى كثير من الوطنيين السودانيين أن الوضع الأمثل هو العودة لدستور 1955، المعدل 1964، المعدل 1985، المعدل 1998، مع إضافة وثيقة حقوق الإنسان الواردة فى اتفاقية السلام الشامل لعام 2005. أليس كذلك؟

الشعب يريد إسقاط النظام!

ياريح النسيم الماشي جبهة مدني
ودي السلام للريحته البخور العدني
قول ليه الفراق ياغالي واجع بدني
زي وجع الرئيس بالاعتصام المدني

(أحد شعراء الانتفاضة بالأيام القليلة الماضية ، ولم أتعرف على اسمه بعد)

شهد الأسبوع الأخير من نوفمبر مداً ثورياً تاريخياً غير مسبوق منذ سبع وعشرين سنة، بدأ بالاعتصام وانتهى بموكب المحامين أمام القضائية ومذكرة أحزاب ومنظمات الإجماع الوطني ومعها الشخصيات الكاريزمية المستقلة. ولقد كان الاعتصام ناجحاً بنسبة تفوق التسعين بالمائة بإجماع مراسلي القنوات الخارجية المنصفة والصحافة النزيهة والتقارير الهاتفية والواتسبوية المباشرة والمراقبين الموضوعيين (مثل الفريق م عثمان عبد الله)، وحقق أهدافه بالكامل، وزرع كمية هائلة من الربكة والذعر في معسكر النظام، وجعل زبائنته (مثل أمين حسن عمر) يرتج عليهم ويطيش صوابهم ويفقدون أعصابهم ويأتون بما في قعور آنيته من فاحش القول: (لماذا لا يخرج لنا هؤلاء الناس من بيوتهم لنرشهم بالبلف باف!).

وعلى الرغم من أن قوس الشارع ما زال مشدوداً إلا أن قاداته الشباب المترعين بالوطنية والحكمة والدبار أجموا سهامهم عن قصد، واقتطعوا لأنفسهم وللشارع استراحة محارب حتى يجردوا حساب الاعتصام فحصاً وتقييماً، ويسبروا أغوار الأيام

الفائنة بحثاً عن إجابات لهذه التساؤلات:- أين مواطن القوة ومكامن الضعف؟ ومن أثبت أنه جدير بالثقة وتحمل المسؤولية؟ ومن كان مقداماً.... ومن تخاذل وتقاوس وولي الأدبار؟ وما هي الكوادر القيادية والوسطية والقاعدية التي أفرزتها معارك الاعتصام والموكب والمذكرة؟ وفيما تناهي إلينا من شذرات أخبار هنا وهناك، فإن المرحلة التالية هي اعتصام ثانٍ لعشرة أيام تبدأ يوم 19 ديسمبر - وهو اليوم الذي تم فيه إعلان الاستقلال من داخل البرلمان في عام 1955؛ وثمة مرحلة ثالثة تبدأ في الأول من يناير - وهو يوم رفع العلم وإعلان قيام جمهورية السودان الحرة المستقلة - وهي عبارة عن اعتصام وإضراب سياسي شامل ومفتوح ومرهون بزوال النظام بقضه وقضيضه.

فانظر يرك الله لهذا التسلسل الباهر المرتبط بأهم أحجار زاوية في التاريخ السوداني. ومن هم هؤلاء القادة الذين أنجحوا الاعتصام بهذه الصورة والذين يمسكون بأعنة حركة الشارع الجماهيرية ويعبرون بها نحو الاعتصام الثاني والثالث؟ هذا سؤال يورق الجهات الأمنية والتنظيم السري للمؤتمر الوطني الحاكم، بل حركة الإخوان المسلمين وتنظيمها الدولي برمته؛ فمن عبقرية شباب الإنترنت أنهم كالشبح الذي يزور جميع البيوت والمقاهي ولا بتويات وهواتف معظم الوطنيين السودانيين بالداخل والخارج، دون سنسرة أو رقابة قبلية أو بعدية، متحدياً البصاصين والجواسيس والكيهان والكجر اللابدين كالعقارب بكافة أركان المجتمع. إنها قيادة جماعية حقيقية عفوية وأصيلة، يشارك فيها الأولاد والبنات والمخضرمون، دون وصاية من أحد، ودون هيمنة أو احتكار من جانب حزب أو إيديولوجية معينة، وهي في نفس الوقت لا تصب في مجرى اليمين الرجعي، بل تستهدف غايات وطنية ديمقراطية تقدمية يلتف حولها الشارع: وهي إزالة نظام الحزب الواحد الفاسد الفاشل الدكتاتوري، وتكوين حكومة تكنوقراط محايدة ووطنية وإيجابية في نفس الوقت، تعد للانتخابات العامة خلال أربع سنوات، مع بسط الحريات كاملة غير منقوصة، وإطفاء النيران المشتعلة بدارفور وكردفان والنيل الأزرق، ومحاسبة كل من نهب وسلب وأجرم في حق البلاد طوال السبعة وعشرين

عاماً الحالكة الماضية، والعمل على عودة الجنوب لجناح الوطن. ثمة وحدة فكرية بين جميع المشاركين في الإعتصامات الثلاثة المذكورة، دون أن يتم حولها نقاش سفسطائي مستفيض ودون أن تحتاج لأخذ ورد ولت وعجن، ودون أن يكشف زبانية الأمن من هو الذى ابتدرها وأين تم التداول حولها، وكيف حدثت هذه الوحدة الفكرية - والسودانيون معروفون بركوب الرأس والشقاق والانقسامات والخلافات والاستقطابات منذ السلطنة الزرقاء حتى اليوم؟ أننا نتعامل مع جيل جديد وعالم جديد تماماً.

لا بد أن الشباب الثوريين السودانيين كانوا متابعين بدقة للانتفاضة التونسية وأختها المصرية المتأثرة بها قبل خمس سنوات، ولا بد أنهم توقفوا ملياً أمام التكتيكات الذكية التى استخدمتها الانتفاضتان، خاصة فى مجال الاستفادة من تقنية المعلومات ومجمل علم الثورة السلمية - من لدن المهاتما غاندي والمؤتمر الهندي والمقاومة السلمية SATYAGRAHA التى أفضت لاستقلال الهند عام 1947، مروراً بالزعيم الأفروأمريكي مارتن لوتر كنج وحركة الزنوج الأمريكان peaceful resistance الذين انتزعوا حقوقهم عام 1968 بالوسائل السلمية، حتى دهاقنة الثورة الشبابية المخملية ضد نظام سلوبودان ميلوسوفيتش فى صربيا - الذين ركعوه عام 2003 بعد سنتين من المقاومة السلمية عن طريق مجموعات الشبكة العنكبوتية (إبتور) التى بلغ منسوبوها سبعين ألف عضواً.

أما الانتفاضة الشبابية العنكبوتية المصرية فقد بدأت بإضراب 6 أبريل 2008 بمصانع المحلة الكبرى الذى دعت له شابة اسمها إسراء عبد الفتاح (فتاة الفيسبوك)؛ ولقد نجح ذلك الإضراب، وقد أريد له أن يتزامن مع عيد الشرطة القومي. (أنظر للرمزية التى حدثت بشبابنا اختيار يومي 19 ديسمبر و1 يناير، وانظر للقائدة النقابية التى كانت تعمل من لابتوبها من داخل شقتها، ورغم ذلك النف حولها سبعون ألفاً من القراء المتفاعلين). ثم نشأت مجموعة عنكبوتية من ذلك الحدث اسمها (حركة شباب 6 أبريل) ظلت متواصلة مع بعضها البعض، ثم

أخذت تتعاون مع مجموعتي (كلنا خالد سعيد - الشاب الإسفيري الذي قتلته الشرطة في 6 يونيو 2010) بزعماء وائل حسن غنيم، و(شبكة رصد) و(شباب الفيسبوك)، إلى أن تكلل نشاطهم بتفجير انتفاضة 25 يناير 2011. وكان وائل غنيم يعمل مديراً للمكتب الإقليمي لشركة قوئل بدبي، ومن هناك بدأ نشاط صفحته (كلنا خالد سعيد)، يعاونه صديقه عبد الرحمن منصور من داخل مصر. وكانت هذه المجموعات محدودة الرؤية السياسية على الرغم من نشاطها المثابر والعسكري المقاوم للاستبداد، إلا أنها تأثرت بالثورة التونسية في ديسمبر 2010 وأخذت تتحدث عن إزالة النظام - بالإضافة لتحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ومكافحة الفقر والمرض والجهل. وعندما دخل عمال الإسماعيلية والسويس والمحلة الكبرى على الخط تم لانتفاضة الشباب النجاح، وانحاز لهم الجيش الذي أمر حسني مبارك بالتنحي، وكون حكومة انتقالية أعقبتها الانتخابات التي زورها وفاز بها الإخوان المسلمون، على الرغم من أنهم تقاعسوا عن انتفاضة يناير 2011 ولأنوا بصمت القبور بينما ظل شباب الثورة مقيمين بميدان التحرير ما أقام عسيب.

لقد استقطب وائل غنيم 350 ألف عضواً لصفحته، وكان جالساً وسط الجماهير المحتشدة بميدان التحرير إلى أن اعتقله الأمنجية واحتجزوه معصوب العينين بزنازينهم لمدة إثني عشرة يوماً، ولكنهم اضطروا لإطلاق سراحه بعد حملة تضامن عالمية عاتية، وعند خروجه من المعتقل صرح لكاميرات التلفزيون التي كانت تنتظره خارج سور المعتقل بأنه مستعد لأن يموت من أجل الحرية في بلاده، وبين عشية وضحاها انضم لصفحته مئات آلاف المثقفين والوطنيين المصريين، ووقفوا معه ومع شباب الثورة وعمرؤا ميدان التحرير - إلى أن تنحي حسني مبارك في يوم 11 فبراير 2011 وأخذ طريقه إلى مزبلة التاريخ، إلى جانب بن علي والقذافي وجان بيديل بوكاسا وعيدي أمين دادا وموبوتوسي سيكو.

لا بد أن الشبان السودانيين المنتفضين قد تأثروا بما حدث في تونس ومصر، ولا بد أنهم يعملون فكرهم حالياً في كيفية حماية الانتفاضة من اللصوص المتربصين بها

الدوائر، عليهم يختطفونها كما فعلوا بأختيها التونسية والمصرية. ولكن الصورة معكوسة تماماً فى حالة السودان، فالإخوان المسلمون هم العدو المستهدف المتشبه بالسلطة والذي جمع حوله كل لصوص وأرزية وانتهازي البلاد كأنه مغناطيس شديد القوة؛ والتخلص من النظام يعني التخلص الكامل من إيديولوجيتهم المفلسة ومن طبقة تجار الدين وسماسرهم وأذئابهم والقطط السمان وآكلي السحت ورهطهم ونسائهم بخبطة واحدة. وسوف يصبح من العسير عليهم مواجهة الناخب السوداني في القريب العاجل. والقوى التى تتشكل منها المعارضة حالياً، أي القوى التى نفذت العصيان المدني وتقدمت بمذكرة التنحي، هي القوى الوطنية الديمقراطية المنطلقة من نبض الشارع السوداني، والممثلة لطموحاته في التخلص من الإخوان المسلمين ومن فكرهم الرجعي المدمر، وفي بناء سودان حر ديموقراطي تعددي، يكفل العدالة والمساواة لكل شعوبه، مما سيقود لالتام وشفاء اللحمة الوطنية، وزوال الأسباب التى أدت للاحتقانات الإثنية والمناطقية الحالية، ومما سيقود لعودة الجنوب للوحدة الفدرالية أو الكنفدرالية، أو على الأقل لحلف عسكري واقتصادي لصيق بين البلدين.

وعلى كل حال، يتعين على القوى المنظمة للعصيان المدني أن تبحث عن طريقة تستميل بها الجيش كما فعل الشبان المصريون. دع الحكومة تستمتع بمليشياتها وتتوارى خلفها وتبطش بمن تريد أن تبطش، فلا بد دون الشهد من إبر النحل. ولكن لا مفر من أن تتحاز ولو كتيبة عسكرية واحدة للشارع. لقد جاء الإخوان المسلمون للسلطة عن طريق انقلاب نفذته نيف ومائة مجند وضابط على صهوة أربع دبابات صلاح الدين وبضع لاندكروزرات وحاملات جنود، واستغرقت العملية برمتها أقل من عشر ساعات. والآن تستطيع مجموعة مسلحة متجانسة من ثلاثمائة جندي وضابط أن تفعل نفس الشيء وترد الصاع صاعين، ولن تكلفها العملية أكثر من تحييد قادة المليشيا، ثم اعتقال عشرة فقط من متنفذى الأمن والمؤتمر الوطني، وإذاعة البيان من إذاعة أدهوكية متنقلة؛ وفي بضع ساعات سوف يدخل كل فأر جحره، ويتسلق كل قرد جبله أو شجره.

حشرت روح البشير

دخل النظام الدكتاتوري السوداني في طريق مسدود نهائياً cul-de-sac، ولن يفيد العنف المنفلت والمبالغ فيه الذي يستخدمه ضد معارضيه؛ والذاكرة السودانية القريبة مفعمة بتجارب مماثلة لأنظمة استبدادية عديدة بلغت روحها الحلقوم، فلجأت للبطش يميناً ويساراً وضيق الخناق على الشعب، ولم يفدها ذلك بشيء، وذهبت أدراج الرياح كقوم عاد وثمود ولوط قبلها، وبقي أهل السودان موفوري الكرامة وأنوفهم في عنان السماء. فعندما اندلعت ثورة أكتوبر في الحادي والعشرين من تشرين الأول 1964 كان الضحايا في بادئ الأمر شهيدين فقط من طلاب جامعة الخرطوم، أحمد القرشي طه وبابكر عبد الحفيظ؛ وعندئذ صحا ضمير الدكتاتور "الناعم" الفريق إبراهيم باشا عبود وأعلن حل المجلس العسكري ومجلس الوزراء والمجلس المركزي (البرلمان)، واستدعي أقطاب المعارضة للتفاوض؛ ولكن أطرافاً هوجاء متشبثة بالنظام العسكري حاولت عبثاً أن تعيد عقارب الساعة للوراء، فأطلقت الذخيرة الحية على المتظاهرين الرافعين لأغصان النيم بساحة القصر الجمهوري - حيث يتقاطع شارع الجامعة مع شارع القصر - وأردت ستة وثلاثين شهيدا على الفور وجرحت مئات آخرين؛ غير أن ذلك لم يفت في عضد الجماهير التي واصلت مسيرتها السلمية رافعة شعارها "إلى القصر حتى النصر"، وكان لها ما أرادت خلال بضع ساعات من تلك المجزرة، وتوصل المتفاوضون العسكر والمدنيون للحكومة الانتقالية برئاسة الأستاذ سر الختم الخليفة الحسن وعضوية ممثلي حزب الأمة والحزب الاتحادي والحزب الشيوعي والإخوان المسلمين واتحاد العمال واتحاد المزارعين، بالإضافة للممثلين الثمانية لجبهة الهيئات (برئاسة المحامي فاروق أبو

عيسى) التى نسقت وقادت الانتفاضة من أولها لآخرها، بمشاركة جميع مدن وديساكر السودان الشمالى الكبرى.

ولقد تكرر نفس المشهد بعد ذلك بعقدين - فى أبريل 1985- عندما هبت الانتفاضة السلمية التى أطاحت بدكتاتورية المشير جعفر محمد نميري، وقد كان من إرهابياتها قمع صارم وعنف عشوائى أحمق استشهد من جرائه المفكر العبقري محمود محمد طه الذى أعدمه النميري قبل الانتفاضة ببضع شهور، واكتظت السجون بالمعتقلين السياسيين من كافة ألوان الطيف؛ وكان الإخوان المسلمون آخر نزلاء بالمعتقلات بعد أن كانوا حلفاء وشركاء لنميري، إذ تشكك فيهم وانقلب عليهم قبل الانتفاضة ببضع أسابيع، كانقلاب هارون الرشيد على البرامكة، وأرسلهم لسجن "شالا" بدارفور وتوعدهم بالإبادة التامة بعد عودته من الولايات المتحدة؛ غير أنه لم يعد من تلك الزيارة، فقد داهمته الانتفاضة وهو هناك، وغادر واشنطن للقاهرة التى حاول أن يعود منها للخرطوم، ولكن صديقه الرئيس حسني مبارك أثناه عن تلك الفكرة واحتفظ به محروساً بقصر منيف بمصر الجديدة فى المحروسة، إلى أن قضى الله أمراً كان مفعولاً.

أما نظام الإخوان المسلمين الحالي، فقد شَرَقَ وغَرَبَ وتعلم الحلقة فى رؤوس اليتامى وجَرَبَ العديد من التحالفات مع الأطراف التى استطاع أن يستميلها من المعارضة، وقدم الجنوب برمته قرباناً لبقائه فى السلطة، ويطش بخصومه (العلمانيين) بالتقتيل والتعذيب والإبادة الجماعية والسجون والتشريد والفصل التعسفي بالجملة من العمل والدفع نحو الهجرة القسرية، كما استنزف موارد البلاد ومقدراتها حتى الثمالة فى الإنفاق على جيشه وأمنه ومليشياته وعسسه وحزبه الحاكم وإعلامه وآليات استمراره فى الحكم؛ وجرى الحملات الإنكشارية المتتالية منذ مجيئه للسلطة حتى اليوم للفتك بالأقليات "الآفروسودانية" المطالبة بحقوقها فى جنوب الوطن - حتى تم فصله بعد خمسة عشرة عاماً من "الجهاد" العقيم - وفى دارفور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق، حيث تدور الحروب "الجهادية" منذ

عام 2003. وكانت نتيجة هذا الحكم العقائدي الدموي الأخرق باهظ التكلفة أن تردت الأحوال المعيشية لما يشبه المجاعة المستدامة بالنسبة للسود الأعظم من أهل السودان، وانقسمت البلاد إلى فسطاطين: صفوة الإخوان المسلمين ورهط الرئيس البشير المقربين الذين يرفلون في نعيم وبذخ ملوكي أurstقراطي في جانب، والكادحين المطحونين (95% من أهل السودان) في الجانب الآخر؛ كما تأكلت وتهشمت البنية التحتية وانهار التعليم بعد أن كان بمثابة رأس المال بالنسبة للبلاد إذ أفرز أجيالاً من المهنيين والفنيين الذين ساهموا في تعمير البلدان النفطية من حولهم، وأسسوا وطوروا وعملوا بجدارة بكافة المؤسسات العالمية والمنظمات التابعة للأمم المتحدة؛ وتوقفت السكة حديد وسودانير والخطوط البحرية والنقل النهري، وأصبح مشروع الجزيرة ذكريات من الماضي وتكالب على أراضي الصينيون والقوى الرأسمالية العربية والمصرية بموجب صفقات مشبوهة مع سماسرة النظام مثل أشقاء الرئيس البشير ومصطفى ع إسماعيل وقطبي المهدي والزيبر ب طه والمتعافى المتعافى؛ وسيطرت الصين على سوق البضائع الاستهلاكية بما لديها من مصنوعات رخيصة تنقصها الجودة، وبما أسبغ عليها من تسهيلات حكومية؛ وبلغ الجنيه السوداني أدنى مستوى له إزاء الدولار منذ ثلاثة عقود، فأغرقت الصين السوق السودانية حتى شرقت، وقضت على الصناعات المحلية مثلما فعلت بالعديد من الدول الإفريقية ذات الأنظمة الفاسدة مثل زمبابوي وزائير وأنغولا وجنوب السودان؛ وأخيراً أنشبت الحكومة أظفارها في قطاع الصيدلة بكل شراسة، فشحت الأدوية وانعدمت تماماً فى العديد من المناطق الريفية، وتعذرت العقاقير المنقذة للحياة، واستوطنت الأمراض المزمنة، وبات ملك الموت يمشى الخيزلى ويصرع أهل السودان المساكين المغلوبين على أمرهم بالجملة.

وكان لا بد والحالة هذه من أن تستجمع الحركة الجماهيرية قواها وتضطلع بمسؤوليتها التاريخية إزاء الوطن، وظهرت على الساحة الحركة النقابية النابعة من أرضياتها الفعلية وليس من تلافيف ومؤامرات جهاز الأمن والمؤتمر الوطني الحاكم، واتخذت مواقعها على شتى المسارح النضالية، وكان أهمها النقابة الشرعية للأطباء

"اللجنة" التي نظمت الإضراب الأخير دون أن ترسخ لضغوط وتهديدات ومعتقلات الحكومة، ولقد تجاوزت معها قطاعات المعلمين والمحامين والطلاب الجامعيين. كما ظهر حزب المؤتمر السوداني كقيمة حقيقية مضافة لجهد شعب السودان ضد الطغمة الحاكمة، بزعامة المناضلين إبراهيم الشيخ والباشمهندس عمر الدقير وثلة من الشباب الأشاوس الذين خرجوا للأسواق بكل الحواضر والقرى، وخاطبوا الجماهير بالميقافون وبدونه، غير هيايين من جلاوزة الأمن الذين يلبدون بكل المواقع كالنمل الأسود؛ ولما تم اعتقال طاقم القيادة برمته، برز شباب الصف الثاني وحملوا المشعل وقادوا المسيرة كأن شيئاً لم يكن. وقد تجاوزت أطراف الحركة الجماهيرية مع الموجة النضالية المتصاعدة حالياً - فى الجريف غرب والخرطوم بحري ومدني والقضارف والأبيض وبورتسودان والجزيرة وكافة أرجاء الوطن.

بيد أن هذه الجهود تبدو عشوائية وغير منظمة ولا يربطها خيط تنسيقي مركزي موحد، إذ ليس هنالك جسم محدد يقود ويرتب تحركاً مبرمجاً ومستمراً عبر ومضات الكر والفر، مستخدماً الآليات والأدوات المعروفة: المنشور والرسالة الإلكترونية ونظم التواصل الاجتماعي وغيرها مما يناسب الواقع السوداني، كما فعل الشباب المصري والتونسي وهم يعدون للانتفاضات الجماهيرية التي أطاحت بنظامي حسنى مبارك وزين العابدين بن علي عام 2011؛ وحتى الآن تبدو الانتفاضة التي أخذت تلملم أطرافها بكافة أرجاء الوطن كأنها صاروخ غير موجه، فالبنيات المعروفة المتصدية لقضية النضال - مثل تحالف قوى الإجماع الوطني - على الرغم من بلائها وصمودها، نلفاها عبارة عن تنظيمات حلقة جامدة، تتحرك في إطار ضيق ومحدود بالخرطوم، وليس لها فروع موسومة بالأقاليم، وهي عبارة عن مجموعة من الكوادر القيادية الممثلة لأحزاب المعارضة، وكثيراً ما يعطل جهاز الأمن حركتها باعتقال جميع أفرادها وإبعادهم عن الساحة حتى تهدأ حركة الشارع وتعود الجماهير لبياتها الشتوي المعتاد الذي دام لسبع وعشرين سنة، والذي استمره النظام الحاكم واقتات عليه واستمد منه استمراريته المحيرة.

وعندما نتحدث عن التنظيم والخيطة التنسيقية الموحد والموجه لتحركات الجماهير العشوائية فنحن ننطلق من التجارب السودانية السابقة: جبهة الهيئات التي قادت ثورة أكتوبر، ومجموعة النقابات المهنية السبع التي قادت انتفاضة 1985، إتحاد طلاب جامعة الخرطوم ونقابة أساتذة الجامعة ونقابة المحامين والأطباء وموظفي المصارف....إلخ. كما نتمنى أن تستفيد البنية التنسيقية الجديدة من أخطاء الماضي، وتعد العدة للصمود والاستمرار لما بعد الانتفاضة، حتى لا تتم سرقتها كما حدث لثورتَي أكتوبر وإبريل. كما نتمنى أن نستقرئ التاريخ الثوري للبشرية ونستبطن ونستهدي بالهبات الشعبية الكبرى التي تركت آثارها الواضحة على مسيرة البشرية، مثل الثورة الفرنسية 1799/1789، مستلهمين زخمها البطولي غير المسبوق، ومحاولين أن نتجنب ما انحدرت إليه من تصدع ومن فتن والتهم لبنيتها بالآلاف، ومن دكتاتورية أفندية عشوائية جديدة باسم النظام الليبرالي الوريث للعهد القديم **ancient regime** .

كانت هنالك إرهابات تحريضية - **harbingers** - للثورة الفرنسية ممثلة في كتابات عمالقة التنوير مثل جان جاك روسو ومونتسكيو وبودلير وفولتير وفكتور هوغو والإنجليزيين هوبز وجون لوك التي تناولت مواضيع القضاء على العهد الملكي والإقطاع وسلطة الكنيسة "السلطانية" الخائفة والقنانة والاسترقاق وإذلال المرأة، ودعت للحرية والمساواة، مما بلوره الثوار الفرنسيون لاحقاً في شعارهم: الحرية والمساواة والإخاء **liberté, égalité, fraternité** . كما دفعت الأحداث السلطة الملكية لسن سياسات ضريبية مجحفة، وهي أساساً بسبب الظروف الاقتصادية المتردية بعد حرب السبع سنوات الأوروبية وحرب التحرير الأمريكية في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر التي أورثت الحكومة الفرنسية ديوناً هائلة جعلتها تلجأ لسلح الضرائب، وهو سلاح يفتك أساساً بالكادحين والبؤساء. ولقد هبت الجماهير عام 1789 بدون قيادة مركزية محددة أو حزب معين أو خيط تنسيقي واضح المعالم، بادئة بالمسيرة المشهورة على سجن الباستيل بقلب باريس، حيث دكت ذلك الحصن العتيق الرهيب، وأطلقت سراح المساجين وآلاف المفكرين

والسياسيين من خصوم النظام الملكي. وأعقب ذلك مباشرة "إعلان حقوق الإنسان والمواطن" في العاصمة الفرنسية، وكذلك تظاهرة نسائية ضخمة توجهت إلى قصر فرساي الملكي وأخذت تهتف بسقوط الملكية، مما أثار الذعر في قلوب سكان ذلك القصر المنيف ودفعهم للفرار إلى باريس. وتصاعدت الأحداث، وبرزت قيادة جماعية للثورة أعلنت فيما أعلنت نهاية الإقطاع والرق؛ وفي أثناء المعامع الثورية تسنم القيادة ماكسمليان روبسبير واليعاقبة، وتم إعدام الملك لويس السادس عشر عام 1793؛ ولقد تميز عهد روبسبير 1793/1794 بالاستخدام العشوائي المفرط للمشنقة the guillotine وبالعنف المنفلت الذي راح ضحيته أربعون ألفاً من الثوار أنفسهم - بالإضافة لبعض الإقطاعيين وكبار ملاك الأرض من القساوسة.

وفي تلك الظروف الفوضوية العاصفة برز عسكري شاب قادم من جزيرة كورسيكا يدعي نابليون بوناپرت، وذاع صيته في الحروب الثورية التي خاضها النظام الجديد ضد العديد من الدول الأوروبية المجاورة ناشراً لفكر الثورة، وقام بانقلاب عسكري تولى بموجبه السلطة عام 1799 وأسمى نفسه القنصل الأول First Consul لعموم فرنسا ولما يبلغ الثلاثين من عمره، وفي عام 1804 أسمى نفسه "الإمبراطور". ومهما قيل عن نابليون، فقد جسد حكمه القيم التي جاءت بها الثورة الفرنسية، وقام بنشرها وتعميقها على نطاق معظم الرقعة الأوروبية ومشارف الشرق الأوسط، وهو الذي رسخ مفاهيم المجد بالكد والكسب وليس بالوراثة meritocracy والمساواة أمام القانون وحقوق الملكية الفردية والفكرية والتسامح الديني والتعليم العلماني الحديث، وأسس المحاسبة القانونية، ورسخ مفاهيم الليبرالية والراдикаلية والوطنية والاشتراكية والعلمانية وتحرير المرأة ومساواتها بالرجل. وهو مشهور بدستوره الليبرالي العلماني المؤسس على تلك القيم والذي تأثرت به دساتير سبعين دولة أخرى، كما قام بالقضاء على الإقطاع وسلطة الكنيسة التي كانت قد حولت معظم الشعوب الأوروبية إلى أقتان يفلحون أراضيها كمجرد عبيد. ولقد تكالبت عليه الدول الأوروبية الاستعمارية ووضعت حداً لحكمه عام

1815 ونفته إلى جزيرة نائية بجنوب المحيط الأطلسي حيث بقي إلى أن قضى نحبه عام 1821 ولما يقضى اللبانة من عمره.

وهكذا، فقد تتفجر الثورة على يد البروليتاريا الرثة والسابلة الكادحين غير المنظمين، ثم تفرز قياداتها من أحشائها أثناء الزخم الثوري الفعلي بالشارع؛ وقد يتم تبادل القيادة بين المتطرفين والعقلاء، وقد تنتكس الثورة وتعرض للسرقة من جانب الثورة المضادة، كما قد تمضي في مسيرتها حتى ترسخ القيم التي جاءت من أجلها. ونحن في السودان أمام مفترق للطرق من هذا القبيل، والنظام الذي نحن بصدد الإطاحة به من الإجرام والدم البارد بمكان، ومن الخبث والمكر الثعلبي و(الغتاة) بحيث استطاع أن يمتص ويبطل مفعول التحركات الشعبية التي ما انفكت تندلع عبر السبع وعشرين سنة المنصرمة. ومن أخطر الأسلحة التي يستخدمها النظام باستمرار زرع العيون والجواسيس وسط الثوار من أجل المتابعة اللصيقة، وكذلك من أجل إشاعة البلبلة الفكرية والقنوط واليأس وسط الجماهير. ولقد رأيت بعض المشبوهين هؤلاء يجلسون مع المثقفين ويشاركون في الأنشطة الاجتماعية والثقافية لينقلوا أخبارها كبصاصين من نوع "فهلوي" حاذق، وتأتي النتيجة مباشرة في التنكيل بالعديد من أولئك المثقفين وتشريدهم وحبسهم، بينما يتساعل الناس دائماً عن السر وراء هذه الدقة، وكيف يتم كشف الأدوار الفردية للناشطين الذين لا يعملون في الجهر؟ ليس هنالك تفسير غير ما يشير إليه المثل: "ومن مآمنه يؤتي الحذر"، فهناك عيون بين الثوار تتابع ديبب النمل وتحصي الأنفاس وتنقل التقارير المفصلة للجهات الأمنية. وعلاج هذه المشكلة من الصعوبة بمكان، فالسودانيون بصفة عامة يحسنون الظن في الشخص الآخر حتى يتبينوا سوء طويته بالدليل المادي القاطع. والسودانيون عادة، بعكس الكثير من الشعوب الأخرى، لا يوغرون الصدور ولا يتحسسون ولا يتجسسون على أصدقائهم وذويهم، ولذلك يجدون صعوبة في التشكك في مجالسيهم وأصدقائهم، مهما كانوا، ومهما أشارت الدلائل لممالاتهم للسلطة وخدمة أغراضها والتجسس لصالحها.

ومهما يكن من أمر، فهناك قانون آخر للثورة لا معدى عنه ولا محيص، وهو أنها عندما تنضج تستحيل إلى تسونامي كاسح لا يبقى ولا يذر، ويكنس فيما يكنس الأعداء الطبقيين وأذئابهم من البصاصين والعملاء؛ وكما يقول المثل السوداني (فإن الكثرة عزت الجراد)، أي أن الزخم الجماهيري الذي سيغطي الشوارع كفيل بأن يسكت همهمات الأعداء وفي معيتهم المثبطين وجماعات الطابور الخامس. وفيما يبدو حتى مساء الجمعة فإن التسونامي السوداني آت لا ريب فيه، ربما خلال أسابيع معدودة. فقط نتمنى أن تلحق القيادات السياسية بالجماهير وترتب أمرها وتتواءم على برنامج ما بعد نجاح الانتفاضة؛ ونتمنى ألا ترتكب الجماهير الثائرة أخطاء روبسبير بذبح الآلاف دون فرز وتمييز بين الأخيار والأشرار. ومن المهم التحقيق مع كبار اللصوص وإجبارهم على كتابة الشيكات بالمليارات المخبأة بالمصارف الأجنبية في سويسرا وجزر البهاما وآيل أوف وايت بأطراف الجزر البريطانية ودول الخليج. كما نتمنى من القيادة التي يفرزها الشارع أن تلتزم بالتوازن الدقيق بين العدالة واسترجاع حقوق الشعب المنهوبة وعدم أخذ البريء بجريرة المذنب، مع عدم التسامح مع أي لص ولغ في أموال السحت حياً كان أو ميتاً؛ أي نتمنى ألا يفلت من المحاسبة العديد من اللصوص الذين لقوا حتفهم في السنين الماضية والذين يتوجب التدقيق والنظر في ما كنزوه من ثروات وتركوه لورثتهم.

إن الثورة قد اندلعت بالفعل في بلاد السودان، ونسأل الله التوفيق والسلامة لهذا الشعب الأبي المغوار، فهو بصدد كتابة سطور من نور مرة أخرى على صحائف التاريخ.

السودان ودونالد ترامب

تابعت الانتخابات الأمريكية بشغف وعن كذب كآني صاحب وجعة، أو كآني من رهط اليانكيز الأفحاح، (وهي مجرد "لبط" شمارية سودانية)، ولقد ألقيت بكل بيضي في سلة الديمقراطيين ومرشحتهم هيلاري كلنتون. وعندما فاجأتنا النتيجة المذهلة - فوز الجمهوري اليميني المتطرف ترامب متحدياً قراءة وتخرصات الإعلام واستطلاعات الرأي وبيوت الخبرة وعظماء المفكرين الراديكاليين والمعتدلين مثل العبقرى الدكتور فريد كريا ومجمل اليسار ويسار الوسط الأمريكي -تذكرت انهيار الإتحاد السوفيتي العظيم عام 1989؛ فتلك أيضاً مفاجأة تسونامية ضخمة لم تكن في حساب قوى اليسار في كل أرجاء العالم، مفاجأة أربكت القناعات والانتماءات الإيديولوجية أيما إرباك؛ وبت حائراً أمام زوال المعسكر الاشتراكي كأحد القطبين من الوجود، وأمام الفراغ الذى نجم والسؤال الحائر الذى قفز حول توازن القوى العالمي الجديد، وحول مقدرة الولايات المتحدة على تحمل المسؤولية باعتبارها القطب الأوحد الرائد للنظام الكوني المستولد. فهناك ميل تاريخي متأصل في الجسم السياسي الأمريكي نحو العزلة والانطواء على الذات splendid isolation كلما ادلهمت الخطوب بالساحة الدولية، إذ لدى الولايات المتحدة من الموارد الطبيعية وغير الطبيعية ومن الرحابة والإمكانات الكامنة والمستثمرة، وتحت إبطها كل القارة اللاتينية الجنوبية التى انفردت بها وأبعدت عنها الغرماء الغربيين الآخرين منذ إعلان مونرو The Monroe Doctrine الصادر عام 1823، ولديها من التقدم التقني والاستقرار والثراء والدعة والمنعة ما يجعلها تنفض يدها عن باقي العالم الغارق فى الحروب الدائرية المستدامة - من حرب المائة عام

الأوروبية إلى الحرب الكونية الأولى ثم الثانية ثم الحرب الكورية وحرب فيتنام وحروب الشرق الأوسط البسوسية. وما زال اليمين الأمريكي يغذي هذه الاتجاهات الانعزالية، وواضح جداً لكل ذي بصيرة أن البرنامج الذي أهل ترامب للفوز يحمل علامات بارزة للميل نحو العزلة:

- تلويح بالتخلي عن قيادة حلف الأطلسي، والتهديد بأن تتحمل دول غرب أوروبا مسؤولية الدفاع عن نفسها، خاصة ألمانيا.
- تلويح بإلزام اليابان والسعودية والبلدان الحليفة الأخرى في شتى أركان المعمورة بتحمل فاتورة الدفاع عن نفسها، حتى لو نجم ذلك عن سباق تسلح نووي بين كافة الدول الصديقة من جانب، والدول التي كانت تصنف حتى البارحة بأنها مارقة **pariah states** مثل إيران وكوريا الشمالية، من الجانب الآخر، ومن ثم انفلات توازن القوى الدولي بصورة مفعمة بالضبابية والقنابل الموقوتة.
- تلويح بالتقارب مع روسيا وعقد صفقة معها خاصة بسوريا، وربما تشمل تلك الصفقة مجمل الشرق الأوسط، وفي ذلك تدعيم لنظام بوتين الدكتاتوري ذي النوايا التوسعية الإمبريالية وذي الرغبة الدفينة في استعادة الدول التي خرجت من الإتحاد السوفيتي على إثر انهياره وتصدعه، وفي التمدد بمنطقة الشرق الأوسط عبر بوابة سوريا. وفي ذلك أيضاً خلط للأوراق وتغبيش للوعي وإرباك للبوصلية الإستراتيجية الأمريكية التي كانت تمد يدها للأنظمة الديمقراطية وتستنكف عن تلك التي لا تحترم حقوق الإنسان وتقمع شعوبها وتتحرش بجيرانها، سعياً لنظام كوني مبني على الديمقراطية الليبرالية التعددية، وبذلك تستكمل نظرية نهاية التاريخ (لفرانسيس فوكوياما) حلقاتها وتنتفي الحاجة للحروب ويعم السلام لراسخ والسرمدى الكرة الأرضية بأسرها.

بيد أن دولة المؤسسات الأمريكية سوف تكبح جماح اليمين الذي قفز للسلطة في البيت الأبيض والكنقرس: فهناك الحزب الديمقراطي والصحافة الحرة والقضاء المستقل ومجموعات الضغط من سود وبورتوريكانز وجميعيات نفع عام ونقابات واتحادات ومؤسسات تعليمية وبحثية وغيرها؛ وهناك الاتفاقيات الراسخة المبرمة مع القوى الأوروبية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945 والتي نشأ بموجبها حلف الأطلسي والأمم المتحدة بمجلس أمنها والبنك الدولي وصندوق النقد العالمي والنظام النقدي الكوني المتكئ على الدولار، وكافة البروتوكولات المصاحبة والمتفرعة عن تلك الاتفاقيات، بالإضافة لاتفاقيات حظر انتشار الأسلحة النووية بين القوتين الأعظم - الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي - وبينهما وبين العديد من الدول الأخرى، بالإضافة للإعلانات الدولية الملزمة الصادرة عن العديد من المؤتمرات والورش العالمية - مثل مؤتمر قمة الأرض Earth Summit المنعقد في ريو دي جانيرو عام 1972 - التي تم تنظيمها طوال السبعين عاماً المنصرمة. هذا، وقد أثبتت التظاهرات والاحتجاجات التي ظلت تهز كافة المدن الأمريكية منذ إعلان فوز ترامب حتى اليوم أن سيناريو الضغط الأعظم سوف يأتي من لدن الشارع الأمريكي، مثلما حدث عام 1968 عندما هزت الحركة الشبابية والطلابية المناوئة لحرب فيتنام أركان النظام الأمريكي، وأرغمت حكومات لندن بينز جونسون ورتشارد نكسون فيما بعده على التفاوض مع الفياتكونج الفيتناميين، وعلى الانسحاب من تلك الدولة الباسلة المحتلة انسحاباً لاهثاً متكالباً ومرتجفاً وغير منظم.

ويبدو أن دونالد ترامب من التكتكة والحصافة والحنكة بمكان (شفتنة سماسرة السوق العربي)، فقد خاطب الغرائز الأمريكية النازعة نحو الانعزال وقلب ظهر المجن لباقي العالم، خاصة وسط التجمعات العمالية المتأثرة بالهبوط الاقتصادي وما صحبه من عظالة، والمستسلمة لنعرات اليمين الشوفينية xenophobia المشبعة بالبحث عن كباش الفداء

scapegoating ، خاصة فى المراكز الصناعية بولاية متشيجان ومثيلاتها. ولكنه، وقد استوى على العرش الرئاسي بالبيت الأبيض الآن، فى مقدوره أن يتراجع شيئاً فشيئاً عن وعوده الانتخابية الرجعية غير القابلة للتطبيق، وذلك ما أكده الرئيس أوباما فى محاضرتة قبل يومين بأثينا عندما قال إن ترامب برجماتي أكثر مما هو متعصب للإيديولوجية. كما أشارت التنبؤات المبدئية بالترشيحات للحقائب الوزارية أن ترامب لا يتحرك فى إطار حزبي ضيق، ولكنه قد يكون متأثراً بإبراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة أثناء حربها ضد الولايات الجنوبية - 1861/1865 - الذى ألف مجلساً وزارياً من الحزبين الديمقراطي والجمهوري وليس من حزبه فقط. ومن الأسماء التى رشحت لتولي حقيبة الخارجية على سبيل المثال ظهر اسم مت رومني المنافس الديمقراطي السابق للرئاسة الأمريكية، ومن أشرس النقاد لترامب الذى وصفه على الملأ بأنه كذاب وزائف مخاتل **fake and phoney**، مما يشير إلى درجة عالية من الانفتاح والمعقولية - إن لم نقل الماكيافيلية - لدى معسكر ترامب الذى يخطط لتعبئة الشواغر الأربعة ألف بدولاب الحكومة الاتحادية. وقد اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن الرجل ليس تابولاً رازاً كما صوره الإعلام، ولكنه ذو عقل ومرونة وقابلية للامتثال للمقولة "الحلبيّة" السودانية: (ألف نطة ولا واحد بعبوص).

وعلى نفس المنوال، لن يتمكن الرئيس ترامب من تحقيق الوعود التى أزعجها فيما يتعلق بالسياسة الخارجية؛ فإذا أراد مثلاً أن يشعل حرباً اقتصادية على الصين التى اتهمها علانية بأنها اغتنت وراكت ثرواتها القومية على حساب الاقتصاد الأمريكى، وبأنها اختطفت المصانع الأمريكية لما بها من عمالة رخيصة، وبأنها أغرقت الأسواق الأمريكية ببضائعها الزهيدة الثمن التى قتلت الصناعات المحلية الأمريكية.... فإنها ستكون مثل حرب دون كيخوته ضد الطواحين الهوائية. سوف يتذكر ترامب أن الولايات المتحدة مرهونة لدى الحكومة الصينية بمبلغ ستة مليارات دولار فى شكل

سندات حكومية أمريكية اشتريتها الصين كبادرة حسن نوايا وكمساهمة في إنقاذ الدولار الذي كاد أن ينهار تماماً أثناء الركود الاقتصادي بالعقد السابق لرئاسة باراك أوباما. وسوف يتذكر أن البضائع الاستهلاكية الصينية الرخيصة هي التى تشبع احتياجات الطبقات الأمريكية الدنيا التى لن تستطيع أن تشتري أشياء مصنعة داخل الولايات المتحدة بواسطة عمالة أمريكية تتقاضى أضعاف مضاعفة ما يتقاضاه العمال الصينيون. وسوف يتذكر ترامب أنه لو استعدى الصين فإنها ستذهب لجارتها الجنب روسيا) وبينهما سبعون سنة من الشيوعية، وقد أصبح كلاهما أوليغارشيات أوتوقراطية أقرب إلى ما يسمى بال (Oriental Despotism) وتنشئ معها الحلف الذى كثيراً ما حذر منه الخبير الإستراتيجي زبقتيو برزنسكي، حيث أنه سيكون حلفاً بين دولتين نوويتين عظيمتين يرجح الكفة إلى الأبد ضد الولايات المتحدة والغرب كله. هذا ما قاله برزنسكي أخيراً لقناة السي إن إن وما كان قد أورده في سفره The Grand Chessboard الصادر عام 1997 عن دار بيزك بوكس، (الفصل الذى يتناول الشرق الأقصى بعنوان The Far Eastern Anchor ص 151). وسوف يتذكر ترامب أن الصناعة ليست شيئاً يقال له كن فيكون، والمصانع التى ولت الأبدار للولايات المتحدة ويممت وجهها شطر الدول الأقل تكلفة من حيث العمالة والضرائب والالتزام الصارم بالضوابط البيئية، مثل الصين والهند ودول شرق آسيا وأمريكا الجنوبية، لن تعود لتصنع العظمة الأمريكية التى وعد بها ترامب الناخب الأمريكي - فقط لأنه يريد ذلك. إن المفاوضات لإقناع أصحاب تلك المصانع بالعودة للوطن الأم سوف تستغرق الأربع سنوات التى سيقضيها ترامب في البيت الأبيض؛ هنالك لوجستيات وعقود مبرمة وقروض مصرفية وسلاسل اتفاقيات قصيرة وطويلة المدى مع زبائن متعددين على جانبي العملية الإنتاجية، المدخلات والمخرجات؛ أي الجهات المسؤولة عن توفير وجلب المواد الخام والطاقة والعمالة، والجهات المسؤولة عن تسويق

وتوزيع وتوصيل المنتجات الصناعية على نطاق الكرة الأرضية. وباختصار، سوف يتذكر ترامب المثل الزغاواوي السوداني: (ألبي الحار ما لعب قعونج). وفيما يختص بالسياسة الخارجية بشكل عام، فإن ترامب يتمتع بجهل لا يحسد عليه، شأنه شأن الشخص الأمريكي العادي الغارق في عمله وحياته الخاصة وثقافته الاستهلاكية، والذي يجسد العزلة العظيمة في شخصه، فماذا يريد من باقي العالم طالما أن أمريكا بها كل شيء: مصادر الرزق وأماكن السياحة والترفيه.. إلخ. وقد أجمع الخبراء على أن ترامب لا يعرف الفرق بين السودان وبينما، ولكنه بالطبع سوف يخضع لنصائح خبراءه ومستشاريه في هذا الصدد. وعلى هذا، فإن مصير علاقة الولايات المتحدة بالسودان وغيره من بلدان الشرق الأوسط خاضع لنوعية وميول الأشخاص الذين سيتولون المناصب الأساسية بحكومة ترامب: الدفاع والأمن القومي والخارجية. ومن المستبعد أن يكون هناك أي تصور مسبق لدي معسكر ترامب خاص بهذه الجبهة، وربما تخضع الاستراتيجية المستولدة لمشاورات مكثفة مع قادة ومتنفذي حكومة أوباما المغادرة بحثاً عن القواسم المشتركة التي تعبر الفواصل بين الحزبين وتستشرف المصالح الأمريكية العليا. ولذلك، من المرجح أن تستمر المقاطعة الاقتصادية للسودان حتى تتم دراسة هذا الملف والتوصل لرؤية محددة بخصوصه، وسوف تسبق ذلك الأولويات الأخرى الملحة أمام السياسة الخارجية الأمريكية، مثل:

- مسألة داعش والمنظمات الإرهابية الأصولية وتجلياتها فوق أرض العراق وسوريا واليمن وسيناء وليبيا والصحراء الكبرى وغرب إفريقيا. فلقد توعد ترامب بوضع نهاية فورية وحاسمة لهذه البؤر بطريقة ناجزة تلفها السرية واستحقاقات المباغثة.
- والمسألة السورية وملاستها للعلاقة المتوقعة مع نظام بوتين، إذ لمح ترامب لشيء من التعاون بين الولايات المتحدة وكل من روسيا ونظام بشار الأسد باعتبارهما أكثر جدية في الوقوف ضد منظمة داعش.

- ومسألة الأمن القومي الإسرائيلي الذي تعتبره الولايات المتحدة - الجمهوريون والديمقراطيون على السواء - جزءاً من أمنها القومي، وما يتفرع عنها من تشابكات بشتى بلدان الشرق الأدنى والأوسط، من تركيا حتى إيران، ومن كردستان حتى اليمن.
- ومسألة الأمن الملاحي عبر المحيط الهندي وبحر العرب، مروراً بباب المندب وكل البحر الأحمر....حتى بحر الروم. وفي هذا الإطار تندرج جيوبوليتيكا القرن الإفريقي: جيبوتي والصومال وإريتريا وإثيوبيا، ثم السودان ودولة جنوب السودان.

أي أن السودان سوف يأتي في ذيل الاهتمامات الترامبية على المدى القريب. فماذا يا ترى ستفعل حكومة السودان في هذه الأثناء تحسباً لأي ضربة مباغطة قد تتفتق عنها عبقرية ترامب، خاصة وقد ذكر عدة مرات أنه على دراية بالتحركات العسكرية التكتيكية المثلى، وقد وجه نقداً للمؤسسة العسكرية الحالية خاصاً بتقاعسها عن حسم مسألة داعش التي لا تستحق في نظره سوى ضربة واحدة مباغطة وسريّة، تأخذ الخصم على حين غرة؟ هذا ما أخشى أن يكون مصير السودان، فقد يهمس أحد في أذن ترامب أنه يستطيع أن يوجه ضربة سريعة وذكية وجريئة للنظام الحاكم في السودان (على غرار ما حدث لنوريقا رئيس بنما قبل نيف وعقدين عندما داهمته مفرزة من المارينز وأخذته للولايات المتحدة دون أن تخسر جندياً واحداً ودون أن تطلق رصاصة واحدة؛ وعلى غرار العملية التي استهدفت وقضت على أسامة بن لادن)، وبذلك تعيد الاعتبار للمارينز بعد المرمطة والسحل الذي تعرضت له في الصومال أيام الرئيس بل كلنتون، كما تستعيد هيبتها على نطاق القارة الإفريقية كلها، خاصة البلدان التي تتحكم فيها طغم فاسدة متشبثة، مثل جنوب السودان وإفريقيا الوسطى وزمبابوي، وربما يوغندا كذلك. وما يساعد على هذا السيناريو أن دولة مثل السودان تدور حول رجل واحد هو رئيسها الذي أمسك بكل الخيوط في يده وأبعد حلفاءه الإيديولوجيين الذين كانوا يوفرون له الغطاء الديني والجماهيري ويحيطونه بحزبهم المنتشر في كل المدن والأرياف وبكل مناحي الدولة - فيما بعد

ما يسمى بمرحلة التمكين. ولقد أصبحت دولة السودان فى متناول اليد، وقد حان قطافها، وإذا تمكنت مفرزة الصقور السوداء المفترضة من اعتقاله فى سرية تامة وإحضاره إلى مقر محكمة الجنايات الدولية بلاهاي فى هولندا، فإن نظامه سيتهاوى كأعجاز نخل خاوية، معقوباً بشيء من الفوضى الخلاقة التى لا مفر من أن تتمخض عن نظام مدنى ديمقراطى مستقر، لا سيما وأن السودان يتمتع بإرث لا بأس به فى هذا المجال، فقد شهد أنواعاً لا بأس بها من الحكم الديمقراطى ثلاث مرات فى مسيرته منذ الاستقلال عام 1956.

ويشكل هذا السيناريو أخف الأضرار بالنسبة للإدارة الأمريكية الوليدة، وبالنسبة لشعب السودان. ولكن قد يستبقه السودان بتحريك pre-emptive أكثر ذكاءً وحكمة، وهو الحل الفورى للحكومة والمجلس الوطنى وحزب المؤتمر الحاكم والمليشيات شبه الحكومية الممقوتة، وتشكيل حكومة قومية تكنوقراطية انتقالية محايدة، تنفذ برنامجاً إسعافياً اقتصادياً واجتماعياً، وتعد العدة لانتخابات نزيهة وشفافة تتم خلال أربع سنوات، فى أجواء من الحرية التامة للتعبير والتنظيم. ويمكن أن يقوم بهذا الانقلاب التاريخى العبقري عمر البشير نفسه، على أن يستمر رئيساً بتمثابة رمز، بلا سلطات تذكر، وتحتة حكومة برئيس وزراء مفوض وفعال، وربما يرفدها مجلس حكماء من أهل الحل والربط للمشورة فقط. ولقد أثبت البشير مقدرته على مثل هذه الانقلابات المفاجئة والحاذقة، بدليل تخلصه من عراب النظام الدكتور حسن الترابى، ثم تكرار العملية بإبعاد كل الطاقم الحاكم من جماعة الإخوان المسلمين مؤخراً. وبذلك يستطيع البشير أن يقى أهله السودانين من الفتنة والاحتراب.

هذا أو الطوفان. ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

لا للجامعة العربية، سوق عكاظ، ولا مغلظة لأمينها العام، أبو الغيث!

أما الجامعة العربية، فقد بح صوتي كما بحت أصوات العديد من الوطنيين السودانيين الداعين لانسحاب السودان منها، مثلما فعلت إرتريا التي لم تدخلها من الأساس احتراماً للنفس وصوناً للكرامة، إذ لا داعي "للتلصق" والتكالب للتماهي مع بني يعرب أصحاب التحفظات حول هويتك المزعومة، (بل عليك بالتمسك بما يقوله أهلك الغبش: اليدورنا ندوره، واليابانا لا باس.... وحديث الما بندورو نسوي دوماس). إن الاستنكاف واجب عن مؤسسة تجمع بين دفتيها أنظمة سياسية وكيانات غير متجانسة، بل متناقضة ومتشاكسة ومتنافرة وبينها ما طرق الحداد في غالب الأحيان - كأنها سمك لبن تمر هندي -... مؤسسة سفسطائية هلامية سلبية لا طعم ولا لون لها، كالماء الزلال، ولا تقدم ولا تؤخر، مثل بح بن، وليس لديها أي رصيد من الإنجازات الملموسة على صعيد النضال ضد الاستعمار الأجنبي والاستيطاني، أو من أجل رأب الصدوع وتحقيق السلام والاستقرار، أو على صعد الدعم الإنساني والإغاثات أثناء الكوارث التي ألمت بالكثير من الدول الأعضاء، أو حتى علي صعيد القضية المركزية التي تبنتها منذ نشأتها وأصبحت عقيدتها الأولى، *raison d'être*، وهي القضية الفلسطينية منذ 1947، أو على أصعدة المساهمة في البني التحتية والتقدم الاقتصادي والتحول الاجتماعي بالدول العربية، لا سيما الفقيرة منها. ثمة حيثيات قوية انبنت عليها الدعوة للخروج من الجامعة العربية، ونود العزف عليها مجدداً هاهنا علها تجد أذنأ صاغية هذه المرة، فلا تذهب أدراج الرياح كأنها صيحة في واد، (أو بندق في بحر، كما يقول السودانيون).

إن السودانيين أمة خلاسية هجين رغم شيوع اللسان العربي بين ربوعها كلنقوا فرانكا lingua franca وكلغة سوق market language وتجارة وموانئ ومواقف لواري وغناء وأهازيج ومدائح وطقوس صوفية وتعليم وخلوي ومساجد وصحافة وإذاعة وإدارة حكومية منذ قيام أول دولة عربية إسلامية فيه - مملكة سنار عام 1504م، ودخول حوالي 65% من سكانه في دين الإسلام وفق مذهبية الإمام مالك السنية، وهو دين قامت بنشره وترسيخه الطرق الصوفية: القادرية والسمانية والشاذلية والهندية والختمية والأحمدية والتيجانية. ولقد تبلورت الشخصية السودانية المميزة بسمرتها المحببة (خضرة البرسيم) بكافة تدرجاتها وتبايناتها حتى داخل الأسرة الواحدة، وتقاطيعها الوسيمة الأخاذة والآخذة من كل نبع قطرة، وسمتها وشلوخها ومشاطها (ضفر وتجديل شعرها) وهندامها، (وعلى الحد الأدنى منه العراقي والسروال والعمامة التي تمثل القاسم المشترك الأعظم بين غالبية أهل البادية والحضر)، ومزاجها وطعامها وتقاليدها وريابتها وطبلها وإيقاعاتها... تبلورت هذه الشخصية عبر كيمياء ومحكات السلطنة الزرقاء (مملكة سنار) - 1822/1504م - التي نشأت أصلاً كحلف بين الأفارقة النيليين (الفونج المنحدرين من قبيلة الشلك) والعرب العبد اللاب، ذلك الحلف الذي أباد مملكة سوبا - آخر كيان مسيحي كوشي سابق لدخول العرب - ونقل العاصمة إلى سنار حيث ازدهرت الحضارة السودانية الحديثة ذات النكهة الخاصة المستصعبة لطارفها وتليدها، وتمازجت في أحشائها فسيفساء الإثنيات والثقافات المختلفة التي تألف منها السودان ذلك الزمن: (الحاضرون على ضفاف النيل - الحلفاويون والكنوز والعبادة والمحس والسكوت والذناقلة والبديرية الدهامشة والشايقية والجعليون بكافة فروعهم وبطونهم وأفخاذهم والعركيون والجعافرة؛ والحاضرون بأطراف أخرى بالوطن: كالفور والزغاوة والمساليات والداجو والنوبة والفونج والإنقسنا ؛ وأبناء عمومتهم البدو الهائمين بالفلاة، البجة والشكرية والبطاحين والحلاوين والدباسيين والقراريش والهواوير والكبابيش والحرر والمجانين (أجمل خلق الله قاطبة) والرزيقات وبنى هلبا والكواهلة والحسانية والدغيماب والرفاعيين والكنانيين والنفيديّة والعقليين)، دون

تميز أو عنجهية عنصرية أو تراتبية هرمية كوضع الإثنيات والطوائف المتردفة **castes** في الهند، ودون أي مباحكات أو مخاشنات أو حروب أهلية كما نشهد اليوم. ولقد كانت تلك الدولة على صلة تجارية ودينية وثقافية ودبلوماسية حميمة ووثيقة بكل من جارتها مصر شمالاً والحجاز بشرق البحر الأحمر؛ فما انقطعت بعثات الحج السنوية وكسوة الكعبة التي كان سلاطين سنار، ومن بعدهم سلاطين الفور، ملتزمين بها كل عام، مصحوبة بالزكاة والصدقات والأطعمة لفاطمي الحرمين الشريفين؛ كما لم تنقطع وفود الدارسين بالأزهر الشريف المتعلمين على شيوخ (الرواق السناري) المعروف منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي بتلك المؤسسة التعليمية الدينية العريقة، بالإضافة لصنوه (رواق دارفور).

كل ذلك لم يشفع للسودان عندما أقدم الخديوي محمد علي باشا على غزوه عام 1820 لتحقيق هدفين أجمع كل المؤرخين عليهما، وهما جلب المال والرجال من ذلك البلد "الإفريقي": أما المال فهو ما ينتزعه مصاصو الدماء الباشبوزوك (القوات الخاصة المتوحشة بجيش الأتراك) من أتاوات وضرائب إقطاعية بلا رحمة (فعل القط) من فلاحي ورعاة السودان المعدمين؛ وأما الرجال فهم العبيد الذين كان محمد علي ينوي استيعابهم في جيشه الاستعماري بغية تحقيق طموحاته التوسعية في الجزيرة العربية وبلاد الشام والهلل الخصب، (وربما في مؤخرة دماغه سابقة اتفاقية البقط بين عبد الله بن أبي السرح والنوبة الكوشيين التي ظل السودان بموجبها يمول مصر بحوالي أربعمئة عبد كل عام لمدة ثمانية قرون 582-1500م). ولقد قام آخر ملوك سنار بمخاطبة محمد علي باشا قبيل حملته برسالة تذوب رقة وشاعرية وبلاغة (تجدها في نعوم شقير)، بلسان عربي مبين وبمنطق ساطع يناطح الصخر وكلمات (تبكي الكافر)، قائلاً: "كيف تستمرئون غزونا ونحن دولة عربية مسلمة مستقرة ذات سيادة ومسالمة، تحكم بشرع الله وبالعقل والقسطاس والرحمة، وتعمل على نشر الرسالة المحمدية واللغة العربية والعلوم الإسلامية بالتى هي أحسن..... إلخ؟". ولقد تجاهل الخديوي تلك الرسالة، وضرب عنها صفحاً المثقفون والكتاب والمؤرخون المصريون ومن سار في ركبهم، كما لم

تضعها الحركة الوطنية المصرية في حسابها في أي يوم من الأيام. (وهناك رسالة شبيهة بها أخذت طريقها للخديوي كذلك من سلطان دارفور).

وعلى كل حال، واصل الجيش المصري التركي زحفه متوغلاً في السودان، مجهزاً بالأسلحة النارية المتفوقة التي قاومها السودانيون بالسيوف والفتن والسهام والعكايز المضربة، فتغلب جيش الترك على كل من لاقاه في الطريق من منطقة حلفا حتى سنار العاصمة، ومضى باطشاً لا يلوى على شيء، ولا يفرق بين بيزان وحرمان وزرقان وسمر وخاطفي لونين، ويرسل أسرى تلك الحروب إلى مصر المحروسة كأرقاء. والغريبة أن المصريين والعرب الشرق أوسطيين ما انفكوا حتى اليوم لا يدركون حقيقة السودانيين ولا يفرقون بين العربي وغير عربي منهم، باستثناء البعض هنا وهناك الذين ما برحوا يعبرون عن إعجابهم بالسودانيين ويأمنونهم على العرض والمال وأسرار الدولة، خاصة المواطنين الأصليين بالإمارات العربية المتحدة وبعض المتعلمين من سكان المدن ببعض دول الخليج العربي. ولقد مللنا من السؤال الذي يبادرك به أي عربي شرق أوسطي أو شمال إفريقي تدخل معه في عملية تعارف: هل أنت من الشمال أم الجنوب؟ وفي إحدى المرات اللتين ذهبت فيهما حاجاً للأراضي المقدسة بالحجاز، حاملاً عصا (حادثة/بنقة) متواضعة اشتريتها بخمس دراهم من سوق البتان في أبو ظبي، ركض خلفي حاج مصري إلى أن لحقتي وسألني بالفصحى: (يا أخ الإسلام، من أين أتيت بهذه العصا التي تحملها؟) فأجبته: (من بلاد إسمها ك.....) فضحك واحتضنني صائحاً: (ياه! ده انت من عندنا). كما هالني ذلك الخطيب في أحد المساجد ذات جمعة الذي قال بملء فيه وبكل براءة: (إن رحمة الله تسع جميع خلقه يوم القيامة، فحتى العبيد والسودانيين سيدخلون الجنة إذا فقط صلوا وصاموا). فخير للسودانيين أن يدركوا حقيقة موقعهم في باطن المخيلة العربية.

وما أن بلغ إسماعيل ابن محمد علي باشا سنار، حتى هرع نحو التخوم الجنوبية للسلطنة الزرقاء ليستطلع منطقة الإنقسنا بحثاً عن جبال شنقول المتهمة بتكدسات

الذهب، وقفل راجعاً نحو القاهرة ماراً بشندي؛ وهنا استدعي الملك نمر ملك الجعليين وأمره بتسليم الحكومة التركية المصرية مئات العبيد كل عام بدءاً من تلك اللحظة. ولما استنكر الزعيم الجعلي ضخامة العدد، أفرغ الباشا جمر غليونه علي رأسه. ولكن الملك نمر كظم غيظه وانتظر حتى جنح الليل ليفرغ أطناناً من الجمر على رأس الباشا ورؤوس كل من معه من أفراد كتيبته العسكرية، إذ أشعل الجعليون النار في معسكر الباشا بعد أن ردموه بكميات هائلة من القش الناشف والقصب، وانتظروهم بأطرافه ليقطفوا رأس كل من أفلت من النار.

كان الدفتردار صهر إسماعيل باشا متمركزاً بجيشه في الأبيض عاصمة كردفان بالغرب الأوسط، وما أن سمع نبأ مصرع الباشا حتى انقلب إلي وحش نادر مثله في تاريخ البشرية، وأخذ في ذبح كل من لاقاه من أطفال ونساء، وفي حزم الرجال الأسوياء وإرسالهم إلي مصر عبيداً فاضت بهم أسواق النخاسة في المحروسة؛ وبلغت تلك الحملة التأديبية ذروتها في منطقة الجعليين، حيث تفنن الجنود في وأد الأطفال واغتصاب وذبح النساء وحزم الرجال حزم السلم لبيعثوا كأرقاء إلي مصر. ومنذ تلك اللحظات الدموية ترسخت النظرة الدونية للسودانيين، واستمر البطش التركي المصري بأهل هذا البلد المستغيث لستين سنة كاملة، مما دفع السودانيين للانضمام لجيش الإمام الثائر محمد أحمد بن عبد الله الدنقلوي القادم من الجزيرة لبب بأقصى شمال السودان، الذي أعلن ثورته المهدوية في الجزيرة أبا بالنيل الأبيض ضد المستعمر عام 1881م، وبعد أربع سنوات فقط ومسيرة ألف ميل بلغ بجيشه الثائر الخرطوم حاضرة النظام التركي المصري، واقتحمها ودك حصونها وقتل سردارها غردون باشا - ضابط الاستخبارات البريطانية الحاكم بأمر الخديوي، وأقام دولة وطنية سودانية ذات سيادة، الوحيدة من نوعها في إفريقيا، باستثناء ليبيا في غرب القارة.

وبعد ثلاث عشرة سنة من الاستقلال التام عاد الغزاة مرة أخرى ممثلين في جيش الفتح الإنجليزي المصري، وسلبوا السودان استقلاله عام 1899م وأسموه "السودان

الإنجليزي المصري"، حاكمه العام بريطاني، والطبقة العليا من مساعديه بريطانيون (مدراء المديریات ومفتشو المراكز)، تليها طبقة الإداريين المصريين (الموامين) الذين وضعهم الإنجليز فى فوهة المدفع، خاصة فى مجال متابعة الجبايات والضرائب من الكادحين السودانيين. وعشية الاستقلال الذى تم بالفعل عام 1956 كانت هنالك مرارات ضد المصريين تعشعش فى أفئدة الغالبية العظمى من أهل السودان، مما جعل نوابهم بالبرلمان الانتقالي يمحزون لخيار الاستقلال التام، ويقلبون ظهر المجن لدعوة الإتحاد مع مصر التى كانت الطبقة الحاكمة المصرية تروج وتدفع الغالى والنفيس مهراً لها طوال العهد الملكى، مروراً بالنظام العسكرى الذى جاءت به ثورة 23 يوليو، والتى كان من أنصارها الزعماء الاتحاديون السودانيون - غير أنهم غيروا رأيهم فى الزمن الإضافى وانضموا للدعوة الاستقلالية - فخرج قرار الاستقلال من ذلك البرلمان الانتقالي بإجماع أعضائه، وتبخرت الدعوة الاتحادية كأنها منطاد هوائى شك بدبوس، أو كأنها "فص ملح وداب".

بيد أن الانصياع للسياسات المصرية، خاصة فيما يتعلق بمياه النيل وغيرها مما يتصل بمصالح تلك الدولة المهيمنة على السودان باعتبارها شقيقه الأكبر **Big Brother** (باللغة الجورج أورويلية)، شاء ذلك الشقيق الأصغر أم أبى... ما زال يخالط الجسم السياسى السودانى؛ وما زال التدخل فى الشأن السودانى أمر متاح للحكومات المصرية غض النظر عن نوع النظام الحاكم فى هذا البلد المسكين الذى ظل يدور فى الفلك المصرى معصوب العينين كثور الساقية (الناعورة). وقد نشأت علاقة أبوية تجسسية مخبرائية بين البلدين مثل تلك التى صبغت العلاقات بين سوريا ولبنان طوال الخمس عقود الماضية. وعموماً، كانت الحكومة الوطنية الأولى برئاسة الزعيم إسماعيل الأزهرى سودانية الهوى، إذ تحقق الاستقلال على يديها، ولكنها ضمت بعض الوزراء المنحازين لمصر بلا تحفظ مثل الراحل محمد نور الدين، بلا أدنى اعتبار للسيادة السودانية، وبعضهم ضباط فى المخابرات المصرية. والحكومة العسكرية الأولى 1964/1958 بقيادة الجنرال إبراهيم عبود مالت نحو مصر بالكامل، وعقدت معها اتفاقية 1959 التى منحت مصر بموجبها 84% من

مياه النيل واكتفي السودان بـ 16% فقط، وقدمت لها وادي حلفا بقضها وقضيتها على طبق من فضة بثمن بخس، ولم تكافئها الحكومة المصرية ولو بطريق مسفلت طوله كيلو متراً واحداً أو بشيء من الكهرباء الهايدرولوكية التي أنتجها السد العالي بدعم سوفياتي بعد أن غطت بحيرته منطقة حلفا برمتها بتاريخها وحاضرها ومستقبلها. وأستطيع أن أجزم أن الحكومة العسكرية الثانية برئاسة العقيد جعفر نميري كانت مصرية بنسبة تسعين بالمائة؛ فقد كان وزير العمل في أول عهدها، العميد محمد عبد الحليم، مدير بنك مصر فرع الخرطوم، ضابطاً عظيماً بالمخابرات المصرية، وكان أخوه أحمد في القضاء العسكري ومن الذين أصدروا الأحكام الجزافية الجائرة ضد متهمي حركة 19 يوليو 1971، وهما لأب شايقي من التقرير خدم بحرس الحدود في مصر، وأم مصرية، وانتهى بهما المقام في القاهرة كمصريين أقحاح لا تربطهما بالسودان ولا شعرة معاوية. ومن هذه الشاكلة الضابط بالقضاء العسكري أحمد محمد الحسن القاضي الظالم كذلك في محاكمات 19 يوليو، وسكرتير الرئيس النميري ومحرر خطبه الصحفي محمد محبوب سليمان (وكلاهما مطعومان كذلك - من أب سوداني وأم مصرية - مع ميل واضح نحو الهوية المصرية)، والدكتور محي الدين صابر، وغيرهم كثيرون ممن تغلغلوا في أحشاء الدولة السودانية ونخروا فيها كالسوس وهم كوادر متنفذة في المخابرات المصرية. ولقد سارت حكومة النميري في ركاب النظام المصري كخادم مطيع - poodle - إلى أن أجبرته انتفاضة أبريل 1985م على التنحي والبقاء في مصر، حيث خصصت له حكومة حسني مبارك بيتاً فاخراً قريباً من القصر الرئاسي بمصر الجديدة.

أما الحكومة الحالية التي جاءت عن طريق انقلاب عسكري خطط له ونفذه تنظيم الإخوان المسلمين في 30 يونيو 1989، فقد كانت معادية للنظام المصري في أول عهدها، متشددة بالأحاديث الرنانة عن التوجه الحضاري واستقلالية القرار والثورة ضد الذيلية والتبعية؛ ولكنها مع مرور الزمن، وبفضل ما تعرضت له من ضغوط المعارضين وما نجم عنه من عزلة داخلية وإقليمية ودولية، عادت للحضن المصري

تائبة مستفجرة وذيلها بين فخذيهما؛ وأول ما قامت به من باب الولاء وحرق البخور (كسير التلج) هو منح المصريين ملايين الأفدنة بشمال غرب السودان وبالجزيرة، وتشجيع الصعايدة على الهجرة الأبدية والاستقرار بتلك الأراضي؛ كما تبنت وزارة الري السودانية الموقف المصري من سد النهضة الإثيوبي، بلا تفكير في المصالح السودانية غير المتضررة من ذلك المشروع؛ وغير ذلك من الشواهد علي انبطاح النظام السوداني أمام الحكومة المصرية، وآخرها موافقة وزير الخارجية الدكتور إبراهيم غندور على ترشيح أحمد أبو الغيط أميناً عاماً للجامعة العربية، وهو يعلم جيداً أنه غير أمين على مصالح الدول الأعضاء - باستثناء المحروسة طبعاً - وغير مؤتمن على موقع حساس كهذا، وله سابقة (سمع بها الوزير السوداني) تتعلق بخطاب كان قد بعثه لوزراء خارجية الإمارات والسعودية والكويت وقطر عندما كان وزير خارجية حسني مبارك، طالباً من تلك الدول ألا تقدم أي عون أو دعم مالي أو لوجستي للسودان لإقامة أي مشروع كهربي أو زراعي على النيل، حيث أن ذلك سيكون خصماً على حصة مصر من مياه النيل، وذلك خط أحمر بالنسبة للأمن القومي المصري، والأمن القومي العربي بالضرورة كما زعم. وسنعود لهذا الموضوع لاحقاً عندما نتعرض لما اغترفه أبو الغيط في حق السودان.

ودعنا نعود لموضوع جامعة الدول العربية، ذلك المولود الناقص الذي تمخضت عنه برجوازية الباشوات المصرية/التركية الحاكمة بمصر في أربعينات القرن العشرين، فيما قبل ثورة 23 يوليو 1952. وعلى الرغم من أن فكرتها صائبة واستراتيجيتها مشروعة ومطلوبة، وهي السعي شيئاً فشيئاً نحو (الوحدة العربية) بين شعوب يجمعها الكثير - اللغة والدين والثقافة والجوار الجغرافي - إلا أنها ليست الجسم المناسب لتحقيق تلك الغاية. فهي تشترط في عضويتها فقط النطق بالعربية، بغض النظر عن نوع النظام السياسي الذي يحكم البلد طالب العضوية. وهكذا فقد تألفت الجامعة من أشتات لا يجمع بينها غير لغة الضاد (إذا استثنينا الصومال غير الناطقة بالعربية): منها حكومات ملكية، وأخرى ثائرة على النظام الملكي، مثل مصر وسوريا والعراق واليمن ولاحقاً ليبيا، ومنها دول مستقلة وأخرى تترج تحت

الاستعمار الاستيطاني، مثل فلسطين، والجزائر حتى مطلع الستينات، ومنها دول تدور في فلك الغرب والولايات المتحدة، وأخرى تدور في فلك إيران وتركيا والصين، ومنها أنظمة شيوعية، مثل عدن طوال الستينات والسبعينات، ومنها أنظمة إخوانية حليفة لإيران وجزء من منظومة الإخوان المسلمين العالمية. عطل هذا التباين حركة الجامعة منذ ميلادها، ووضعها في straitjacket (وهي الجبة البيضاء بلا أكمام التي يوضع فيها مريضى انفصام الشخصية)، على العكس من نماذج أخرى في العالم وفي المنطقة حققت الكثير في سنوات معدودات. أنظر إلى السوق الأوروبية المشتركة التي تطورت نحو الاتحاد الأوروبي في زمن قياسي وأنجزت وحدة العملة وحرية تنقل العمالة بين الدول الأعضاء، والبرلمان الموحد والحكومة الأوروبية التي تفاوض وتبرم الاتفاقيات الدولية باسم المجموعة الأوروبية، مما ساهم في ازدهار وتقدم الاتحاد بشكل عام، وفي الخير الكثير الذي تنزل على كل واحد من أعضاء المجموعة. والدولة الوحيدة التي لم تسمح لها عنجهيتها الإمبريالية أن تذوب في هذا الكيان الجامع المتحضر والتقدمي هي بريطانيا، التي ما جنت سوى الحصرم من الإقدام على الانسحاب من الاتحاد Brexit، وهكذا نشهد انحدار الاقتصاد البريطاني نحو القاع ومصرع الجنيه الاسترليني المتراجع مضطرباً إزاء اليورو، مثله مثل الجنيه السوداني.

وقصة نجاح أخرى حققها تكتل إقليمي متجانس يضم ست أقطار هي دول مجلس التعاون الخليجي التي حققت الكثير باتجاه الوحدة الاقتصادية مستشرفة آفاق الوحدة السياسية المستقبلية بإذن الملك العلام؛ فقد رفعت القيود عن حركة الاستثمار وكفلت حرية التنقل بالنسبة للشركات ورجال الأعمال، وكثفت من وتائر التعاون التجاري والتعليمي والثقافي والسياحي والجمركي واللوجستي والشرطي، وسهلت عملية تدفق العمالة من ركن لآخر بالمنظومة حسب حاجة السوق ودون المساس بحقوق أي من الدول الأعضاء، كما قطعت خطوات جبارة في ربط المنطقة كلها بخط سكة حديدية عابرة للحدود، وبشبكات الغاز والكهرباء. إن اجتماعات المجلس على مستوى الرؤساء أو الوزراء تنهمك في صياغة وإجازة الاتفاقيات

المرتبة التي يتم توقيعها والالتزام بها سيراً نحو استحقاقات الوحدة المستقبلية، وليست مجرد سوق عكاظ كمؤتمرات جامعة الدول العربية.

والجامعة العربية عبارة عن كيان بيروقراطي "مصري" بالضرورة، يعاني من أعراض التكلس والترهل التي ورثتها أرض الكنانة جراء سبع آلاف سنة من الدولة المركزية التقليدية القابضة؛ وما زادها ضعفاً على إبالة أن منصب الأمين العام محجوز للإخوة المصريين، وبالتحديد لوزراء خارجيتهم المتقاعدین الطاعنين في السن، من لدن عبد الرحمن عزام وحسونة ومحمود رياض وعصمت عبد المجيد وعمرو موسى ونبيل العربي وأخيراً وآخر (كما أتمني) أحمد أبو الغيط؛ والاستثناء الوحيد كان الشاذلي القليبي التونسي. وهي مؤسسة سلحفائية بطيئة ومحشوة بالعاملين المصريين وبباهظة التكلفة بلا أي مبرر. ماذا أنجزت طوال عمرها الذي يناهز الخمس وسبعين سنة في مجال التسويات وحل النزاعات العربية / العربية ، دع عنك النزاعات الأخرى مع القوى غير العربية؟ ماذا فعلت تجاه الحرب بين الشمال العربي المسلم والجنوب المسيحي الإفريقي التي استمرت في السودان منذ عام 1955 حتى يناير 2005 عندما أبرمت اتفاقية نيفاشا للسلام الشامل تحت إشراف مؤسسة أخرى أكثر فعالية - دول الإيقاد: إثيوبيا وجيبوتي وإرتريا ويوغندا وكينيا، ومعها الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية؟ ماذا قدمت لملايين المتضررين من الحرب التي ظلت مستعرة بدارفور منذ 2003 و بجنوب النيل الأزرق وجنوب كردفان منذ 2011؟ أو قل مشكلة الصحراء الغربية؛ أو تغول ليبيا علي إقليم أوزو بتشاد؛ أو مشكلة مثلث حلايب الذي غزته القوات المصرية عام 1995 كرد فعل على محاولة اغتيال حسني مبارك في أديس أبابا في يونيو من ذلك العام؟ ربما كان الإنجاز الوحيد الذي قامت به منظمة ألسكو التابعة للجامعة هو توحيد المناهج التعليمية، وهذا في الواقع هو السبب الأساس في تدني التعليم في السودان منذئذ. فتلك محمدة تحولت إلى نقمة وكارثة ووبال وشر مستطير.

وعن الأمين العام الحالي للجامعة، أحمد أبو الغيط، حدث ولا حرج. فقد جاء هذا الرجل لتقديم محاضرة في ديوان وزارة الخارجية الإماراتية بأبو ظبي في نوفمبر 2013 عن حرب أكتوبر 1973 "حرب العبور"، وخاطب جمعاً من عشرات الدبلوماسيين والموظفين الإماراتيين والوافدين العاملين بالوزارة. وفجأة خرج عن النص بدون أي مناسبة، وقال الآتي كنوع من الإستطارد غير المبرر:

(على فكرة. لما كنت وزير خارجية مصر بعثت برسالة لسمو وزير الخارجية الإماراتي طالباً من حكومته ألا تقدم أي دعم للسودان ولا لأي دولة تقع على شواطئ النيل خاص بأي مشروع كهربائي أو زراعي، إذ أن ذلك سوف يكون على حساب حصة مصر من مياه النيل، وذلك خط أحمر بالنسبة للأمن القومي المصري.)

وواصل محاضرتة حول أحداث تلك الحرب، وعندما أُرُفِت فترة المناقشة تقدمت من الصفوف الخلفية، من خلف عمود بالبهو كان يفصلني عن المحاضر الذي لم يفتن لوجود شخص أسمر بين الحضور، وطلبت فرصة للتعقيب، ولكن رئيس الجلسة اعتذر بسبب قفل باب النقاش، وأصررت على المساهمة ولم أجلس، فطلب المحاضر من رئيس الجلسة أن يسمح لي بالتعقيب: "بالله عليك خلي عصمان هذا يتكلم!"، وبالفعل أذن لي المنسق بالحديث، فقلت الآتي:

(يا أستاذ أحمد، نحن نشأنا علي وحدة وادي النيل، وحب مصر يسري في عروقتنا، وعندما أبعدتم من الجامعة العربية وذهبت عنكم إلى تونس وقاطعتكم الحكومات العربية، كان السودان يرعي حقوقكم وينجز معاملتكم بدول الخليج هذه، ولم نوغر صدور الآخرين ضدكم. أما أن تحرض الدول الخليجية الصديقة التي وسع الله لها في الرزق ضد شقيق عربي مسلم آخر فذلك خطأ إن لم يكن عيباً فادحاً. وبالمناسبة أنا ضد النظام الحاكم في السودان كما يشهد بذلك الحضور بهذه القاعة، ولكن المصالح الإستراتيجية المتعلقة بمستقبل السودان وشعب السودان يهمني أمرها.)

وكان رد أبو الغيط مهذباً ولكنه خارج الموضوع، وقال فيما قال:

(الغريبة أنا قابلت وزير الخارجية السوداني علي عثمان محمد طه في اجتماع وزاري بالجزائر وقال لي نفس الكلام الذي سمعته من هذا "الزول")، كأنما أراد أن يشير من طرف خفي إلى أنني أحمل نفس أفكار الإخوان المسلمين الحاكمين في السودان، وتلك فرية وفتنة وإيغار آخر للصدور.

وعموماً، قابلت الأستاذ أحمد أبو الغيط بعد ذلك بعام في معرض الكتب بالشارقة حيث دشنت كتاباً صدر لي في ذلك العام 2015 بعنوان "السودان في عام"، وشققت صف حراسه *entourage* وسلمت عليه وسألته إن كان يذكرني، وعلى الرغم من أنني كنت متمنطقاً بجلباب سوداني وعباءة وعمامة ضخمة إلا أنه عرفني علي الفور قائلاً: (إنت القدع بتاع الخارجية، مش كده؟). فقلت له: "نعم، ولقد قضيت عامي المنصرم بعيداً عن تلك الوزارة وكتبت حزمة مقالات جمعتها في هذا الكتاب الذي أود أن أهديك هذه النسخة منه." وناولته الكتاب، (مع ملاحظة أنني لم أكتب إهداءً له ولم أمهره بتوقيعي)، وتمنيت أن يقرأ المقال الأخير "الفهم المشوش لجنوب الوادي" ص 319، الذي أوردت فيه بعضاً مما قال أبو الغيط في محاضرة وزارة الخارجية، وهو كالاتي:

(تقدم أحد الحضور بسؤال لأبو الغيط قائلاً: "هل لدي الجيش المصري إمكانية لضرب سد النهضة الإثيوبي بالطائرات؟")

(وكانت إجابة أحمد أبو الغيط:

(هذا الموضوع صعب، إلا إذا وافقت السودان على التعاون معنا، فليس لدينا طائرات حربية تستطيع أن تقطع مسافة الألفي ميل بين مصر والحدود الإثيوبية.) أي أنه من حيث المبدأ موافق علي مثل ذلك العدوان على الجارة إثيوبيا.

وعلى هذا، فإنني شخصياً أشك في حياد وموضوعية الأستاذ أحمد أبو الغيط، اللهم إلا إذا كانت الجامعة العربية مؤسسة مملوكة للحكومة المصرية. ولو جاز لي كمواطن "عربي" أن أدلي برأي في هذا الخصوص، فإنني أرى أن جامعة الدول العربية جنين لم يكتمل نموه بعد ما يقرب من القرن، وكيان بلا قيمة أو جدوى سياسية أو اقتصادية، مجرد dead wood أو خيال مآتة لا يصلح حتى لإفزع الطير كما يفعل خيال المآتة. والحالة هذه، لا مفر من ذهاب هذه المؤسسة العاقر وأمينها العام إلى متاحف التاريخ، ولينشأ في مكانها جسم محدد المعالم، ذو رؤية محددة وأهداف آنية متفق عليها يمكن بلوغها وفق جدول زمني موسوم، استشرافاً للهدف الأسمى بعيد المدى وهو الوحدة الاقتصادية والسياسية بين كافة الدول العربية من المحيط إلى الخليج. ولنترك جانبا الشعارات الرومانسية الجوفاء والبكاء على الأطلال والنوستالجيا الخاملة وأحلام الشعراء والتمسك بالقديم فقط لأننا نخشى الجديد ونتهيب المخاطر والتحديات، ولا سبيل للتقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي بدون خوض مثل هذه المخاطر والتحديات، وبدون تجديد الدماء في مؤسساتنا الشمطاء العجفاء ورفدها بالشباب النابه المتوثب، إن لم نستبدلها بمؤسسات أكثر جدوى، من أجل غد مشرق سعيد لمجمل الشعوب العربية، بيضها وحمرها وصفرها وسمرها.

جيوبوليتيكيا الشرق الأوسط

تتسارع القوات العراقية نحو قلب الموصل، "يقدمها ويبرأها" الدعم الجوي والأرضي الأمريكي والغربي والخليجي الحليف المتضرر من التغول الإيراني والأطماع الإخوانية، ومرفودا بقوات البشمركة الكردية الجسورة وغير الهيابة. وحسب تصريح أحد القادة العسكريين الأمريكان صباح اليوم فإن التقدم نحو "الرقّة" في سوريا قد بدأ بالفعل، وسوف يتم فوراً قطع الطريق علي الدواعش الهاربين من العراق غرباً صوب عاصمتهم الأخرى بالمنطقة - الرقة - المنزوية بالشمال الشرقي للشام، قرب الحدود السورية. وبينما أخذت كل المؤشرات تنبئ بقرب هزيمة داعش، انبجست ظاهرة تدعو للحيرة والريبة: فلقد توغل الجيش التركي داخل الحدود الشمالية الغربية للعراق باتجاه الموصل، ليس مساهمة إيجابية في الحملة العراقية/الدولية التي أخذت بخناق الكيان الداعشي، إنما حاجة في نفس يعقوب **with ulterior motive**، وترجمتها استهداف المقاتلين الأكراد، الفصيل المحوري الحاسم في حملة استعادة الموصل. إنه رقص خارج الحلبة، وتقمص لدور الثور في مستودع الخنزير (أو ديك العدة)، وتدخل في غير زمانه ومكانه، وإرباك للمعادلة التي أخذت تتشكل على أرض الواقع، وهو في ظني محاولة ثعلبية خسيصة لتقديم الدعم للدواعش بصورة غير مباشرة. فلماذا تفعل تركيا ذلك؟

لا يحتاج المرء لفهامة سحرية ليدرك أن حزب رجب طيب أردوغان ونظامه جزء من المنظومة الإخوانية العالمية التي لم يبق لها في الشرق الأوسط أي وجود فعال إلا في تركيا نفسها والسودان وإيران واليمن، بالإضافة للفلول العصاباتية الحاملة للسلاح - داعش والقاعدة في سوريا والعراق وليبيا وسيناء والصحراء الكبرى

وأدغال غرب إفريقيا والصومال وأفغانستان. هذه هي الجهات الوحيدة التي استشاطت غضباً جراء محاولة الانقلاب العسكري التركي، والتي طربت وما زالت تهلل لدحر الانقلابيين وزجهم في السجون بالآلاف، والتأهب لجز رؤوسهم مثلما حدث لقوم أحمد سوكارنو بإندونيسيا في الستينات. وآخر مظاهر التماهي مع الموقف الأردوغاني الفظ تجاه معارضيهِ المتهمين زوراً بالضلوع في الانقلاب هو ما حدث في السودان البارحة، فقد أعلنت الحكومة إغلاق جميع المدارس التركية التي أنشأتها منظمة فتح الله غولن في السودان وطرد المسؤولين عنها من البلاد، وتلك هي مساهمة النظام السوداني في حماية الأمن القومي التركي، فيما قال الدكتور غندور وزير الخارجية السوداني البارحة في المؤتمر الصحفي الذي عقده في أنقرة مع نظيره التركي، والذي أعلن فيه تحديداً: (إن أمن تركيا يشكل أحد الخطوط الحمراء للسودان).

لقد كانت محاولة الانقلاب العسكري الفاشلة قبل أربعة شهور فرصة لأردوغان وحزبه للتخلص من كل العلمانيين ليس فقط في الجيش، إنما في القضاء بشكل خاص وفي كل مناحي الدولة بشكل عام، ووسيلة جديدة للتمكين هبطت علي حزب العدالة من السماء؛ أم لعلها مؤامرة من أصلها شبيهة بما كانت السي آي إي تفعل للتخلص من قوى اليسار: في السودان في يوليو 1971 وفي شيلي بعد ذلك بعام، علي سبيل المثال. ومن الواضح كذلك أن الأردوغانيين طهّروا بلادهم من المعارضين انتقاماً لما حدث للإخوان المسلمين في مصر على يد السيسي وثورة 30 يونيو 2013. وكما ينشط النظام السوداني في ملاحقة معارضيهِ المدنيين والحاملين للسلاح، فإن النظام الإخواني التركي يطارد المدنيين في أنقرة وإسطنبول وغيرها، كما يتحرش بالأكراد أينما ثقّفهم، ليس لأنهم حركة انفصالية، إنما لأنهم عرفوا منذ عشرات السنين بكونهم علمانيين ومحبين للديمقراطية وحقوق الإنسان، وبكونهم جزء من القوى التقدمية والعلمانية التركية والعراقية.

بيد أن الصورة الكلية ليست فى صالح النظام التركي وحلفائه الإخوانية: فما أن يتم كسر شوكة الدواعش فى العراق وسوريا، والحوثيين فى اليمن، حتى يمكن التعامل بصورة أكثر وضوحاً وحسماً مع جيش بشار الأسد وحلفائه الإيرانيين والروس. وفي هذه الأثناء، وبعد شهرين بالتمام والكمال، سوف تجلس هيلاري كلنتون على كرسي الرئاسة بالبيت الأبيض وبذلك يتبخر الأمل الذى عقدته بعض الجهات على دونالد ترامب، ذلك الكاويوي الرجعي الساذج الداعي للتعاون مع روسيا ونظام الأسد (الذين يري فيهما عدواً أكثر فتكاً بداعش). ومن المرجح أن تبدأ هيلاري ولايتها بالضغط السياسي والعسكري الحازم على روسيا حتى تكف عن التدخل فى الحرب الأهلية السورية، وبذلك ينكشف ظهر بشار وحلفائه الإيرانيين فى بلاد الشام. ومن ناحية أخرى، ستستمر الإدارة الأمريكية فى سياستها الرامية للضغط على النظام السوداني لاستصحاب المعارضة المدنية والمسلحة فى حوار المزعوم، وذلك يعنى فيما يعنى قبول أجندة تلك القوى الداعية لتفكيك النظام وترسيخ حقوق الإنسان وإدارة البلاد بحكومة انتقالية بديلة لنظام الإخوان الحالي. ولن يفيد هذا النظام التملق الذى يمارسه تجاه حلفاء الولايات المتحدة بالمنطقة، ولا مفر لنظام البشير من قلب ظهر المجن لتنظيم الإخوان المسلمين العالمي بطريقة واضحة وشفافة، لا بالمراوغة والتلبيس والتدليس والتمثيل والكذب الصراح.

أما النظام المصري، فهو كالمثلي يوم القيامة الذى لا يطيب له المقام فى الجنة ولا فى النار؛ فلقد تسنم الجيش السلطة فى مصر استجابة لدعوة الشعب المصري الإجماعية إبان ثورته على حكومة الإخوان المسلمين فى 30 يونيو 2013، وكان من المفترض أن يضع الجيش يده فى يد القوى العلمانية المناهضة لفكر الإخوان المسلمين داخل مصر وبالمناطق المجاورة وفق مفهوم إستراتيجي مستمد من مقاصد تلك الثورة الشعبية. ولكنه، وعلى الرغم من البداية الصحيحة بالتحالف مع السعودية والإمارات باعتبارهما أكثر الملدوغين من تنظيم الإخوان المسلمين، إلا أن المسألة انحصرت فى المطالبات الملحة بالدعم المادي (حيث قال السيسي عن هذين الحليفين الإستراتيجيين فى أول أيامه: "دول عندهم فلوس زي الرز")؛ ولم

تتطابق الرؤية المصرية معهما في التصدي للبؤر التآمرية الملتهبة بالمنطقة، إذ تقاوس الجيش المصري عن تقديم أي مساهمة في المجهود الحربي الذي يبذله الحليفان المذكوران ضد الطغمة الانقلابية الحوثية في اليمن المدعومة بالنظام الإيراني. وفيما يختص بالمشهد السوري فقد وقف السيسي موقفاً لا يختلف كثيراً عن سلفه العياط، أي خلط الأوراق والتمويه والتردد وعدم الشفافية؛ فبينما مد العياط يده لإيران واستنهض جسور التعاون معها على الرغم من أنها الداعم الأساس لنظام الأسد الإرهابي الباطش، نجد حكومة السيسي قد تقاربت مع روسيا مؤخراً في مجلس الأمن حول المسألة السورية، ضاربة عرض الحائط بالحلفاء الأكثر أهمية؛ وروسيا تعني سوريا وإيران، أليس كذلك؟

ولقد انفتح النظام المصري الجديد على النظام الإخواني الحاكم في السودان دون أي اكتراث لما يفعله الأخير بالقوى الديمقراطية المعارضة بمدن الشمال، وبالجهاز الحاملة للسلاح بكافة أطراف البلاد، بدارفور وجبال النوبة وجنوب النيل الأزرق، وما يقوم به من إيواء أريحي واحتضان مبالغ فيه لشراذم الإخوان المسلمين الفارين من مصر....وعقد معه الاتفاقية تلو الاتفاقية للاستثمار وفلاحة وإعمار الأرض بتكالب ونهم لا يعرف الحدود، وكلها في نظر الشعب السوداني مجرد حبر على ورق، وعماً قريب سيتم تمزيقها كأنها لم تكن.

وهكذا، فلقد دب الشك في صدور المتعاطفين مع النظام المصري إزاء موقفه من الإخوان المسلمين: هل هو موقف جاد ومبني على رؤية إستراتيجية وفكرية محددة، أم هو عملية أمنية هادفة بنهاية التحليل فقط إلى الفتك بالخصوم وتكريس السلطة في يد الجيش وقائده الذي قفز لدست الحكم في أول يوليو 2013 ؟ وإذا انحصر الأمر في الملاحقة الأمنية والبطش العشوائي بالإخوان المسلمين المندسين في الحواري المصرية، فإن ذلك قد يؤدي إلى نتائج عكسية، وقد يتعاطف الجمهور مجدداً مع أولئك الإخوان ويعتبرهم أبطالاً كما حدث في أيام حسني مبارك والسادات وناصر، وبذلك يتمكن الإخوان من استقطاب المزيد من الشباب المؤدلج، خاصة في

ظروف الجهل وعدم الوعي السياسي الذى يتمتع به مصريو الأجيال الحديثة، ومن أسباب ذلك الجهل الإعلام المصري الذي يشغل نفسه بكل شيء إلا القضايا الأساسية مثل تنفيذ فكر وممارسة الإخوان المسلمين، وترسيخ المعاني السامية للحرية والديمقراطية من خلال السماح بالتعبير الحر ورفع الكوابح والسنسرة، وقيام النقابات والاتحادات عبر كل القطاعات، وتنشيط وإطلاق حركة المجتمع المدني من عقالها.

وعموماً، ومهما تعثر النظام الحاكم في مصر، ومهما عانى من الاختناقات الاقتصادية التى يساهم في تعميقها الإخوان المسلمون، ومهما عانى من التشويش وعدم وضوح الرؤية فى مجال السياسات الخارجية، خاصة تجاه الجار الجنب - السودان - فإن العودة لما قبل 30 يونيو من الاستحالة بمكان، وليس هناك أوبة لحكم الإخوان المسلمين في المحروسة على الإطلاق، (وهنا تتحقق نظرية نهاية التاريخ لفوكوياما)، خاصة وأن التكلس والألزهيمر الفكري والسياسي قد حل بهذا التنظيم على مستوى الشرق الأوسط برمته، وأنصع نموذج لذلك الإفلاس هو النظام الإخواني السوداني الذى أورد بلاده موارد التهلكة خلال سبع وعشرين سنة من الإنفراد بالحكم والتخبط والتجريب العشوائي وتعلم الحلاقة على رؤوس الأيتام، مما نجم عنه انفصال ثلث الوطن والاقتراب من فصل ثلث آخر ممثّل في دارفور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق.

وبمناسبة الاختناقات الاقتصادية، فلقد جنت على نفسها براقش، وسوف تؤثر المواقف الدبلوماسية المصرية الملتبسة تجاه المشكلة السورية والأزمة اليمنية على تدفق المليارات البترودولارية التى أخذت طريقها صوب نظام السيسي من دول الخليج منذ أول أيامه، كما سوف يفاقم من هذا الإحجام والانسداد ما ظل يشهده سعر النفط من تدن مضطرد منذ بضع سنوات. وقد شهدنا الدول النفطية المعنية وهي تعيد النظر في سياساتها الاقتصادية بهدف كبح جماح الصرف البذخي والإكسسواري، وبغرض ترشيد الاستهلاك بصفة عامة، كما رأينا مؤخراً كيف أقدمت

السعودية على خفض الرواتب والبدلات بالنسبة للموظفين الحكوميين، وشهدنا كيف أقدمت معظم دول الخليج على تخفيض العمالة الوافدة عبر الإحلال والتوطين، ومن خلال التخلص من العديد من المشاريع التي لا تتمتع بأولوية قصوى. وباختصار، يشهد الشرق الأوسط بصفة عامة هبوطاً اقتصادياً ضاعفت من وتيرته حروب الأوس والخزرج المشتعلة بكافة أركانها، وما خلفته من نقص في الأنفس والثمرات، ومن عدم استقرار يؤثر على التجارة والسياحة والاستثمار. (لقد علمت أن سعر القذيفة الواحدة التي تطلقها الطائرات الحربية في اليمن تساوى مائة ألف دولار). ومن جراء ذلك سوف يتصاعد السعي نحو الحلول السلمية التي تكفي المؤمنين شر القتال، وقد يعني ذلك في نفس الوقت تصعيد تلك الحروب وتكثيفها إلى أقصى حد ممكن بغرض حسمها على جناح السرعة، حتى لا تستفحل (وتتسبب - أسوة بحرب البسوس) وتستمر لسنوات وسنوات مثلما فعلت الحرب الأهلية السورية. وفي سبيل مثل هذا الحسم قد تتبدل التحالفات بعض الشيء بغرض إعطاء الغرب - وتحديداً الولايات المتحدة - مساحة أوفر للتدخل العسكري المباشر وغرس أنيابها العسكرية **boots on the ground** في المعامع، على الرغم من المخاطر الجيوبوليتيكية التكتونية التي يندر بها مثل هذا السيناريو.

ومهما يكن من أمر، فإن أسهم الإخوان المسلمين قد طاحت إلى أسفل سافلين، وداعش تلفظ أنفاسها الأخيرة، وسوف تتقهقر الإمبراطورية الشيعية الإيرانية إلى حدودها الأصلية، تاركة وراءها الحلم الفارسي الساساني الذي ظل يدغدغ مخيخها منذ عهد الشاهنشاه، بعد أن يتوارى وينتكس حلقاؤها الإخوان والدواعش والقاعدة. وقد يستمر العنف الإرهابي المنفلت هنا وهناك، ولكنه سيظل كحية بلا رأس. وإذا أرادت الدول العربية الساعية للسلام والاستقرار أن تتأقلم مع السيناريو الجديد المظل على الشرق الأوسط مع بزوغ العام القادم، فعليها أن تفتح أكثر على حرية التعبير والتنظيم بالنسبة لجماهيرها، بهدف إشراكها في الأمر، فقد ولي عهد الأتوقراطيات والدكتاتوريات والأوليقياريات، وجاء عصر الشعوب الحرة، وعصر التداول السلمي للسلطة، في إطار الشفافية والاحتكام لرأي الأغلبية وحرية الصحافة

ونزاهة واستقلال القضاء. ومن يحكم بغير ذلك عليه أن يعيد النظر فى أمر نفسه، قبل أن تجبره على ذلك الثورة الجماهيرية الكاسحة التى تغذيها الكتل الجائعة من أصحاب العيون مقروحة الأغوار ذابلة البريق، ويا ويل المستبدين عندما تصحو تلك العيون. أو كما قال أحمد فؤاد نجم: (مش من مصلحتك لما أفوق).

الحالة السودانية المتردية

قضيت الخمسة شهور ونيف المنصرمة بالسودان - ما عدا رمضان المعظم الذي استمتعت بجزءٍ منه في أديس على قمة المرتفعات الإثيوبية، ثم عدت لأمعاني (أي فلذات كبدي) بأبو ظبي في العشرة الأواخر؛ وقفلت راجعاً للخرطوم فجر ثاني أيام العيد، وغادرتها أخيراً إلى أبو ظبي قبيل عيد الأضحى بيوم. ولقد سعدت أيما سعادة بالتتام الشمل مع الأقارب والأصدقاء القدامى وأبناء الدفعة في وطن النجوم، وبنوستالجيا الأطلال - مراتع الصبا ومهد الطفولة - وبحفلات الأعراس وجلسات الأنس البريء على بنابر بائعات القهوة، وليالي مراسي الغربة بشاطئ النيل، وثمة حلقة ذكر صوفي تحت أجنحة الختم والبرزنجي ذات مرة، وقعدات المثقفين بالخميسيات؛ وما انفك الغناء السوداني يطربني ويشجيني رغم تقدم السن ووهن العظم وطول هم بات يعروني - كما قال محمد سعيد العباسي.

وما زال في غالبية أبناء السودان قبس من روح نضالية ونخوة وكرم ودفئ وحنان وشجاعة ورباطة جأش مع خفة دم؛ بيد أن الثقافة التي سادت مؤخراً على الرغم من كل ذلك هي القيم المادية والتهافت على الثراء الحرام وأكل السحت والكذب واللف والدوران وشيوع ممارسات السماسرة السوقية **hustling** والأنانية والحلول الفردية وانحسار الوطنية، تحت غطاء الإسلام السياسي والمتاجرة بالدين والتنسك المظهري الذي تراه أينما ذهبت، متسربلاً بالبراقع والجوارب والعباءات السوداء التي تستبطن أكداً من الحلي الذهبية، وغير ذلك من المظهرات التي تميز برجوازية المدن الورمية المتأسلمة، بالنسبة للنساء؛ واللحى الشعثاء والجلابيب القصيرة والقلنسوة بلا عمامة في حالة الذكور، مع التخاطب بلغة إسلاموعصابية وافدة، تمنحك جواز

مرور للتماهي مع الطغمة الحاكمة، أو على الأقل للتعايش معها وفق نواമيسها ولهجتها المفعمة بالرمزية: يا شيخنا، وسع الله لنا فى الرزق، جزاك الله خيراً، الابتلاءات، جعلها الله فى ميزان حسناتك... إلخ؛ أو الهتاف "الله أكبر!" بمناسبة وبغير مناسبة، كالمهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد.

وإذا غصنا فى تلافيف الحياة، وتعاطينا الواقع الاجتماعى بكافة تجلياته أفقياً ورأسياً، وتقاسمنا اللقمة وافترشنا الثرى مع المسحوقين بالأحياء الشعبية أو فى الأصقاع النائية مثل قرية (قنتى) عند منحني النيل قبل أن يتجه شمالاً صوب الريف (أى مصر)، أو اتكأنا (تجدعنا) على الأرائك والطنافس التركية والخليجية الوثيرة بالقصور المخملية التى رصعت الأطراف الراقية - كالبصلة فى الروب - بالعاصمة المثلىة وحواضر أخرى طفت عليها مثل مدني وسنار، لأدركنا تماماً أننا بصدد انشطار طبقي لم يحدث مثله فى تاريخ السودان، ولا شبيه له إلا فى نيجيريا؛ بل ربما يكون النموذج الأقرب للحالة السودانية هو الهند - حيث طبقة المهرجات البراهمين الأرستقراطية الصناعية/التجارية فى القمة، والمنبوذين ومئات الملايين من الكادحين الهنود فى القاع. غير أن براهميين السودان هم كوادى الأمن والمؤتمر الوطنى، الإفرزات المستولدة من تنظيم الإخوان المسلمين، ومن سار فى فلكهم من الأقارب والأصهار، مثل طه عثمان الحسين الذى ما كاد يخدم بالقصر الجمهورى مديراً لمكتب الرئيس لبضع سنوات حتى اقتنى فيلاً بمدينة النخيل بدبي فى الأول من يناير الماضى (يوم الذكرى الستين لاستقلال السودان) سعرها خمسة ملايين دولار (كما وثق لذلك الباحث عبد الرحمن الأمين بصحف الأربعاء 28 سبتمبر)، وقطعة أرض فى كافورى بالخرطوم بحري بنفس المبلغ، كما اقتنى عروساً جديدة - لعلها الثالثة أو الرابعة - فى ذات العام؛ بينما هناك عشرات ملايين الأسر التى ما برحت تكابد العيش، وبالكاد تستطيع أن توفر وجبة واحدة فى اليوم لأطفالها، دع عنك السكن ومصاريف المدارس وتكاليف العلاج والمواصلات... إلخ.

ويعطيك السياسيون - الحاكمون والمعارضون - انطباعاً بأن أولوياتهم ليست معاناة الجماهير والتردي الاقتصادي والتهتك الاجتماعي والانهييار التام لصحة البيئة، بقدر ما هي تقاسم كيكة السلطة واستمرار الأوضاع الطبقيّة الراهنة، مع تغييرات طفيفة window dressing لا تمس إلا بعض رموز الطاقم الحاكم الذين يعاد تدويرهم نحو مواقع أخرى بنفس المخصصات والأبهاء والحرس الرسمي. وكما كان الحال أيام الطاغية نميري، فهناك ثوابت لا معدى عنها ولا محيص، (أي: سيك سيك أبو الدنان معلق فيك)، وهي الرئيس شخصياً ورهطه الأقربون من أشقاء وأصهار، وبعض الرموز الأمنية والعسكرية الهادفة لتذكير من يهمهم الأمر بأن هذه السلطة باقية بسطوة الحديد والنار ومقيمة ما أقام عسيب، علي طريقة الجنرال فرانسيسكو فرانكو الذي حكم اسبانيا لأربع وأربعين سنة خلال القرن العشرين بمباركة الغرب والشرق.

ومن هنا نقرأ المباشرات الجارية حالياً بالخرطوم وأديس أبابا لمحاولة إنزال النظام سلبياً soft landing وحل الأزمة السودانية. وما يدل على أنها مجرد تحصيل حاصل هو أنها ليست المحاولة الأولى من نوعها، فلقد ظلت الإنقاذ منذ مجيئها للسلطة في 1989 تمنى المعارضة بالمشاركة في السلطة، وتلقي إليها بعظمة ما، وتلقي في روعها أن سلطة الإخوان المسلمين منفتحة ومرنة وقابلة للتفاهم، وتدخل معها في عشرات الحوارات والتفاهمات والاتفاقيات؛ بيد أن الأوضاع ظلت كما كانت قبل سبع وعشرين سنة: فلا زالت السلطة في يد رجل واحد، وما انفكت المعارضة تتلمظ الأحاديث عن كيفية الخروج من النفق الإخواني المظلم، بينما يظفر النظام من كل جولة بالإنفراد بأحد فصائل خصومه، وبالمزيد من التشطي والفتن التي يزرعها داخل صفوف المعارضة. وفي هذه الأثناء، تم فصل ثلث الرقعة السودانية بذهاب الجنوب عام 2011، وما انفكت الحرب ضروساً ونازفة كشلال الدم بدارفور وجبال النوبة وجنوب النيل الأزرق، مما ينبئ بفصل تلك الأقاليم كذلك وانضمامها لدولة الجنوب بحكم المتاخمة الجغرافية والتماثل الإثني والغبن المشترك ضد الشمال الذي يصر الإخوان المسلمون على إلباسه هوية مستعربة ومتأسلمة "بالعافية"،

وجعله غير عابئ ببني وطنه الأكثر إفريقية وسواد سحنة، الذين يتوجب الجهاد ضدهم حتى يدخلوا فى جحر ضب خرب، كما حدث فى الجنوب ويحدث الآن فى المناطق المذكورة.

ومن بين هذا الركام والاستسلام لتكتيكات النظام الثعلبية المراوغة والمخاتلة يلفت نظرك النضال الذى يخوضه بعض الشباب والطلاب السودانيين المصادين؛ إنهم يعفون عن المغرم ويخوضون الوغى فى عقر دار النظام، فوق المنابر الأدهوكية التى ينصبونها كيفما اتفق بالعاصمة المثلثة والأقاليم، وحيثما يجدون أي تجمع للسودانيين المستبسلين مثلهم، والذين لا يولون الأدبار كالحمر المستنفرة إذا لمحوا سيارة أمن ذات دفع رباعي مدججة بالجلالوزة القتلة متجهه نحوهم. ولكنه فى رأى جهد معرض للوهن والقنوط والتشبع ومن ثم التكلس والضياح - إذا لم يلتئم مع نضالات الطبقة العاملة عبر تشكيلاتها النقابية، ومع الحركة الشبابية عبر الاتحادات الطلابية؛ وبما أن تلك النقابات والاتحادات مزيفة الإرادة فى الغالب الأعم، ومختركة من قبل تنظيم الإخوان، فمن الأفضل التركيز على إعادة اصطافافها وتنقية صفوفها و"تكريب" مفاصلها تماماً قبل خوض الجولات القادمة من الصدام مع النظام الفاشستي الحاكم. إن التغيير الذى يأتي عبر الغرف المغلقة بفنادق أديس الفاخرة وردعات الخرطوم حيث تلتقى النخب الحاكمة والمعارضة سلوك بيروقراطي مضروب ومخترق وزائف وعقيم (شغل أفندية)، مثله مثل ذلك الجهد الذى أتى بحكومة سر الختم الخليفة بعد ثورة أكتوبر وما تمخض عنها من ديمقراطية كسيحة، 1964-1969، أدت فى النهاية لانقلاب مايو 1969؛ والجهد الذى أتى بحكومة الجزولي دفع الله (الإخوانجي) بعد انتفاضة أبريل 1985 وما تمخض عنها من ديمقراطية أشد كساحاً، 1986-1989، قادت فى النهاية لانقلاب الإخوان المسلمين فى يونيو 1989؛ نحن فى الواقع أسري للحلقة الشريرة المعروفة: انقلاب - ديمقراطية معطوبة - انقلاب عسكري، حتى إعلان آخر.

لا مفر من أن يأتي التغيير علي يد الجماهير المكتوية بالنار فى قاع السلم الاجتماعي؛ وبالطبع، يجب ألا تتحرك تلك القوى بصورة عشوائية وفوضوية، حيث أن مثل هذه التحركات قصيرة النفس، وتهزم نفسها بنفسها، وتجيد الأنظمة القمعية التعامل معها ووأدها فى مهدها؛ إذ تحتاج القوى الشعبية لمن ينظمها ويقودها عبر مسالك النضال بصورة تتميز بالإتقان والصبر والتؤدة والعيش وسط الجماهير والإلمام بكافة قضاياها ومطالبها وبمشروعيتها وسندها القانوني والعرفي، وبكافة الأساليب النقابية والنضالية التى تتقدم بها الحركة الجماهيرية خطوة خطوة نحو الثورة الشعبية الشاملة التى تقتلع النظام من جذوره وتأتي بآخر قائم على إرادة الشعب وبمحض اختياره الحر، تحت رايات الديمقراطية الحقيقية والالتزام بحقوق الإنسان. وليس ذلك ضرب من التنظير السفسطائي ولكنه قراءة للمستقبل القريب مؤسسة علي تاريخ السودان وتاريخ البشرية الزاخر بالهبات الشعبية السلمية والمسلحة التى أودت بأشرس الدكتاتوريات والأوليغارشيات: الثورة الأمريكية 1775 والثورة الفرنسية 1789 ، وثورة 1848 التى انطلقت من جزيرة كورسيكا بالبحر الأبيض المتوسط واكتسحت أوروبا ودكت حصون الإقطاع، والثورة البلشفية الاشتراكية فى روسيا 1917، وثورة أكتوبر 1964 السودانية وأختها انتفاضة أبريل 1985، وأخيراً انتفاضات الربيع العربي بالشرق الأوسط، وآخرها وأهمها انتفاضة الشعب المصري فى 3 يوليو 2013 التى أطاحت بحكم الإخوان المسلمين الذين اختطفوا ثورة 2012.

آخر الكلم:

هذا أو الطوفان! أي إن البديل للثورة الشعبية القاعدية هو التكتكة والتحالفات الزئبقية والمطاوولات والتعقيدات التى نشهدها اليوم، والتى لن تحل الضائقة الاقتصادية ولن تضع الخبز على موائد الكادحين السودانيين، إنما ستقود رأساً لثورة الجيعان - ثورة سبارتاكوس الإغريقي والقرامطة العباسيين. وبالطبع لن تتمخض ثورة

كهذه عن وطن جديد ديمقراطي معافى متماسك وسليم الرقعة، ولكننا سنجد أنفسنا فى وضع مماثل للصومال، أو قل سوريا واليمن وجنوب السودان وسيراليون وزائير وإفريقيا الوسطى. إن القوى الإقليمية المحيطة بنا لن تسعفنا ولن تسعى بالحسنى بيننا، فكل منها أجندتها الخاصة، وكثير منها لا تحرص على وحدة السودان لأنها لا تستبشر خيراً بسودان تسود فيه ديمقراطية وسلام وتعلو فيه رايات حقوق الإنسان، إذ أن معظم القوى المتاخمة للسودان تحكمها أوليغاركيات قرونوسطية، والحديث عن الحرية وحقوق الإنسان يسبب لها حساسية وغثيان؛ فليس أمام السودانيين غير الاعتماد على أنفسهم، وعلى إرادة الجماهير، ولا بد من صنعاء ولو طال السفر.

وإذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسر

سد النهضة وسدود الحسرة

لقد بلغت المرحلة الأولى من سد النهضة الإثيوبي أطوار التنفيذ النهائية، ولم يتم تشييده بليل ودون علم الشعب الإثيوبي، إنما تم التخطيط والتحضير له بشفافية كاملة، وبالتفاهم المستمر مع السلطات المصرية والسودانية لإجلاء الحقائق وتبديد هالات الريبة التي يبيتها الإعلام المصري تحديداً، والمخاوف غير المؤسسة للبرجوازية المصرية التي ما انفك جزء منها يفكر بالعقلية الخديوية، ويحسب أن النيل هبة الله لمصر وحدها ولتذهب دول المنبع والدول المشاطئة الأخرى إلى حيث شاعت. ومن آيات إشراك الجماهير الإثيوبية في الأمر أن السد يتم بناؤه بالجهد الشعبي بالدرجة الأولى، وذلك بتحويل صندوق تمويله لسندات وأسهم مفتوحة لكل أفراد الجمهور الإثيوبي، وليس بالتسول لدى الدول النفطية أو لدى المؤسسات المالية الغربية الإمبريالية التي تعطي باليمين وتأخذ باليسار - في شكل تدخل سافر في سياسات وتوجهات الجهة المستفيدة، وفرض شروط المؤسسات المالية الغربية وفلسفة الرأسمالية الغربية الطاحنة عليها.

ويقع هذا السد عند السفح الغربي للمرتفعات الإثيوبية المطل على الحدود السودانية الجنوبية الشرقية، على مسافة عشرين ميلاً من تلك الحدود، ولقد جاوز ارتفاعه سبعين متراً حتى الآن، ومع حلول يونيو من هذا العام سيبلغ ارتفاعه مائة متراً تقريباً، بطاقة تخزينية تصل إلى 14 مليار متراً مكعباً، وعند ذاك سوف يتم تشغيل عدد 2 تورباين لتوليد الكهرباء (700 ميقات/ العام)، وعندما يكتمل السد بالعام القادم -2017- ستكون به 16 تورباينات تنتج ستة آلاف ميقات/ العام؛ وسيبلغ ارتفاعه 145 متراً بطاقة تخزينية قدرها أربعة وسبعين مليار متراً مكعباً.

هذا، وقد تم تشييد حائط مستطيل بالقرب من هذا السد عبارة عن جسر يساعد في توجيه المياه صوب البحيرة الأساسية - يسمى السد الرديف،

auxiliary "saddle" dam

والهدف الوحيد لبناء السد هو توليد الكهرباء فقط لا غير، إذ لا تسمح قوانين الجاذبية بصعود المياه منه إلى الهضبة الإثيوبية حيث يعيش الإثيوبيون ويفلحون الأرض على حواف الجبال Sud Agriculture معتمدين على أمطارهم الغزيرة؛ والجهة الوحيدة التي يمكن أن تستفيد من مياه السد هي السودان - لو كان من الحصافة بحيث يقاوض الإثيوبيين بالموافقة التامة (وعدم التآمر مع مصر لتدمير المنشأة كما هددت بعض الدوائر هناك)، في مقابل كهرباء بسعر أقل من المعروض حالياً، بالإضافة لقناة تتفرع من الشق الجنوبي للسد - تماماً كقناتي الجزيرة والمناقل المنطقتين من خزان سنار - لتنسب على السهول الممتدة من الكرمك على الحدود، مروراً برورو وقولي وبوط والمزموم، وعبر صقائع أم دلوز حتى مشارف النيل الأبيض، وشمالاً حتى تخوم مشروع سكر كنانة. ومن جراء ذلك، سوف يتم توطين سكان هذه المنطقة من القمز والبرون والوطايط والإنقسنا، بالإضافة لأعراب كنانة ورفاعة أصحاب الضأن عالي الجودة المعروف باسم (وتيش)، وهي قبائل عربية ظلت بادية ولم تنعم بمزايا الحضارة كخدمات الصحة والتعليم منذ دخولها السودان قبل خمسمائة عام إلى يومنا هذا.

ولن يصيب السودان من هذا السد إلا عيب واحد مقدور عليه، وهو الضربة التي ستوجه لزراعة "الجروف" بصفتي النيل الأزرق flood plain agriculture، إذ أن منسوب المياه سوف يظل مستقراً طوال العام، ولن تتوفر هناك أراض ينحسر عنها النيل وتزرع بطيخاً وشماماً وعجوراً ودردقو.... إلخ؛ ولكن هذه الخاصية نفسها نعمة كبرى لأصحاب الظلمبات مما سيساهم في مضاعفة المساحات المزروعة بالري الصناعي على جنبات النيل؛ وهذا ما سيمكّن السودان من إنتاج كميات هائلة من الخضروات والموالح والمانجو والجوافة والموز والأعلاف، ومن تصديرها للدول المتعطشة لمنتجات زراعية لم تمسسها المخصبات الكيماوية، ومما

يرفع من مقدرات السودان التنافسية في الأسواق الشرق أوسطية، وهذا ما يخشاه جيراننا المنتجون لنفس الأصناف، وهذا هو سر اعتراضها على سد النهضة الإثيوبي.

ويتحدث المعارضون على السد عن الكميات التي يحتاجها للتخزين في بحيرته الصناعية reservoir (74 مليار متراً مكعباً) حتى تستطيع التوربينات أن تعمل بكفاءة تامة، وذلك قد يكون على حساب (مئة النيل) التي تنتهي إلى مصر؛ ولقد تحسّب المخططون لذلك بمد فترة التعبئة لأربع إلى ست سنوات لكي لا تتأثر مصر. وإذا حدث نقص مؤقت في مياه النيل الأزرق فإنه سيكون على حساب السودان إذا وافق على التنازل عن حصته التي ظل يقرضها لمصر منذ عام 1959 والبالغة ست مليارات متراً مكعباً في العام، والتي ظلت تذهب لمصر بموجب اتفاقية ذلك العام كدين مستحق يعود لصاحبه في أي وقت يطالب به؛ وهذا سلاح آخر تستطيع حكومة السودان أن تستخدمه للحصول على المزيد من الفوائد من سد النهضة، خاصة الكهرباء التي يمكن أن تمتد شبكاتها إلى ولاية النيل والولاية الشمالية، وتدحض بذلك الحجج التي تدعم قيام "سدود الحسرة"، الشريك وكجبار ودال، إذ يمكن أن يحصل السودان من سد النهضة على ضعف الكهرباء التي ينتجها سد مري (1200 ميقات)، وبتكلفة أقل.

أما سدود الحسرة هذه، فإن الشكوك تغمرها من قعرها إلى رأسها: إذ ما هو الهدف من قيامها؟ الكهرباء أم الري الانسيابي؟ وإذا كان المراد هو الكهرباء، فماذا حدث لسد مروي الذي كان يقال بأنه سوف يلبي حاجة ولايتي النيل والشمالية، كما سوف يذهب الفائض منه إلى الخرطوم ليغذي الشبكة القومية؟ وهل تحتاج هذه القبائل المتضررة من السدود المزمعة للكهرباء تحديداً؟ هل طالبت بها؟ إذن، الهدف الثاني هو لمقصود، أي تشييد الشريك ودال وكجبار من أجل الري الانسيابي المتوجه للمشايخ المزمعة على مقربة من النيل، لعله تحقيقاً للرؤية التي كشف النقاب عنها وزير الخارجية السابق على كرسي عندما قال البارحة، كما طالعنا في الصحف

الإسفيرية: (المسافة من الخرطوم إلى حلفا تساوي ألف ميلاً، بها مليون نسمة فقط، والمسافة من أسوان إلى الإسكندرية أيضاً تساوي ألف ميلاً، وبها تسعون مليون نسمة؛ فلماذا لا نتيح للمصريين الفرصة لفلاحة الفيافي السودانية بولايتي النيل (والشمالية؟). ويبدو أن هذه هي النية الحقيقية المبيتة لتشييد السدود المذكورة، خاصة وأنها محاطة بتكتم وهمس وسرية تدعو للريبة العميقة؛ والسيد كرتي الذي تحول فجأة إلى مؤيد لوحدة وادي النيل، ليس حياً في الخير المندرج من تلاحم الشعبين، إنما شأنه شأن الكلب الذي يعوي حرصاً على ذيله، فهو يريد أن يتقرب للمصريين حتى يدعموا ترشيحه لمنصب أمين عام الجامعة العربية بعد الذهاب الوشيك لأحمد العربي، وهو بالقطع يفكر في هذا المنصب بحكم الأجواء المواتية على إثر اشتراك نظام البشير في "عاصفة الحزم"، ورضاء السعودية والإمارات عنه في الآونة الأخيرة؛ وهكذا، فإن كيزان السودان كعادتهم (يسرقون اللحمة في اللقمة).

(وبهذه المناسبة، فقد جاء في أنباء البارحة كذلك أن الحكومة المصرية قد ترشح أحمد أبو الغيط وزير خارجية حسني مبارك، ولكنه مرفوض من بعض الجهات، خاصة السعودية؛ وبالقطع سيعترض السودان أيضاً لسبب واحد - وهو أنه يفكر في حجز الخانة لعل كرتي. ولي تجربة مع أحمد أبو الغيط رويتها من قبل، وهي أنه وقف محاضراً بديوان وزارة الخارجية الإماراتية بأبو ظبي في نوفمبر 2013 أمام حشد غفير من المسؤولين والدبلوماسيين الإماراتيين بالإضافة لموظفي الوزارة من أمثالي، وكان موضوع المحاضرة هو "حرب العبور: أكتوبر 1973"؛ ولكنه فجأة خرج عن النص وقال: "على فكرة، أنا لما كنت وزير خارجية مصر أرسلت خطاباً لسمو وزير الخارجية الإماراتي طالباً من حكومته عدم تقديم أي دعم للسودان أو لأي دولة مشاطئة للنيل تنوي إنشاء أي مشروع زراعي أو كهربائي عليه، لأن ذلك سيضر بالمصالح المصرية." وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تحامله ضد السودان وعدم حيده وموضوعيته، وعلى أنه يفرض من نفسه وصياً على الدول الخليجية، وعلى أنه يوغر الصدور ويسعى بالفتنة بين الدول العربية، وعلى أنه

يضحي بالجيران من أجل ما يحسبه مصالح مصرية ضيقة لا تعرف التفاهم أو التعايش أو التنازلات المتبادلة بين الإخوة والجيران، وعلى أنه عنصري وشوفيني منغلق).

كما لا بد أن ندرك أن علي كرتي بدعوته لاستجلاب الفلاحين المصريين إنما فقط يكرّر ويؤكد reiterates and confirms ما قاله وزير الصناعة السابق جلال الدقير في الثالث من أبريل 2008 لصحيفة "المصري اليوم"، كنوع من المزايدة والتملّق للإخوان المسلمين السودانيين وللمصريين:-

(تلقّى السودان عرضاً من مصر والإمارات وقطر لاستزراع ستة ملايين فدان قمح بالولاية الشمالية لخصوبة التربة وتوفر المياه ومواعدة الطقس، وأن السودان في حاجة إلى خمسة آلاف من الفلاحين المصريين للمرحلة الأولى من هذا المشروع، وأن مصر آتية للسودان شئت أم أبيت).

وهكذا، يبدو أن وراء الأكمة ما وراءها؛ ومما يدعو للدهشة في نفس هذا السياق أن المصريين كانوا يعترضون بملء أشداق إعلامهم على سد مروي، ويحاولون إيقاف الدعم العربي له، ولكنهم الآن يلوذون بصمت القبور إزاء السدود المزمعة: الشريك وكجبار ودال.

وفيما يختص بهذه السدود الثلاثة المزمعة، فإننا نكتفي بالحجج الداحضة لها التي قدمها بكل شجاعة ومثابرة وموضوعية أبناء القبائل والمناطق المتضررة، والتي شملت كل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والإسقاطات الديموغرافية والثقافية جراء قيام هذه السدود؛ ومن أهم اعتراضات هذه المجموعات مسألتان:-

1. ما هي تجربة أهل ولايتي الشمالية والنيل مع سدي أسون (السد العالي) ومروي؟ فالكل يذكر ما حدث لأهل حلفا الذين تم ترحيلهم بالترهيب والترغيب إلى بلاد طيرها أعجمي، دون تعويض يذكر، مع التدمير التام لمدن وقرى ظلت قائمة منذ آلاف السنين، ومع الطمر الكلي لآثار وحفريات مكتشفة

ومقترحة لا تقدر بثمن. أما بالنسبة لمن تبقى من الحلفاويين بأطراف البحيرة الممتدة الجديدة (بحيرة ناصر)، فإن مصر لم تعرض إنتهاهاً طوال الست وخمسين سنة المنصرمة، ولم تشملهم بأي نصيب من الكهرباء التي تم توليدها من السد، ولا بأي بنية تحتية كالطريق المسفلت أو البواخر الحديثة أو السكة الحديدية التي تحمل الركاب والبضائع من وإلى أسوان؛ على العكس تماماً من الإثيوبيين الذين أعلنوا مراراً وتكراراً قبل الفراغ من بناء سددهم أنهم مستعدون لبيع الكهرباء للسودان بأقل من نصف سعر الكهرباء الخارجة من السد العالي ومن مروي.

وتجربة قبائل المناصير وأمري والحامداب مشابهة لأهل حلفا دغيم ونواحيها، حيث تم ترحيلهم على عجل إلى مناطق لم تكن جاهزة لاستقبالهم، منها شريحة ضخمة بالقرب من قنتي إسمها "عقبة الحادو"، ليست من الخصوبة بمكان ومملوكة أصلاً لأهل قنتي، مما دفع النازحين لبيع حيازاتهم والتشتت في بلاد الله شرقاً وغرباً.

2. والمسألة الثانية هي: ما هو الغرض من هذه السدود أصلاً؟ فإذا كان الأمر هو انتاج المزيد من الكهرباء لمصلحة قرى اللماطق المذكورة، الشريك وكجبار ودال، لا بد أن نسأل مرة أخرى ماذا حدث لكهرباء مروي؟ وما الذي يمنع تكرار نفس أنواع الفساد التي شهدتها سد موي: توريينات "ضاربة" ومنتهية الصلاحية، ودفن لنفايات أخرى كتلك التي سممت منطقة مروي وجعلت فأرها بحجم الضبع بفضل ال **mutation** الذي حدث له؟ لقد أصبح مألوفاً أن تتفتق عبقرية الإخوان المسلمين عن مشاريع تبدو مفيدة للبلاد في ظاهرها، مصحوبة بزفات إعلامية هائلة (الرد في السد.... إلخ!)، لكنها في حقيقة أمرها فرص للنهب والثراء الحرام الفاحش لرهط البشير من إخوانه وأصهاره، وللعديد من متنفذي المافيا الإخوانية التي ظلت جالسة على أنفاس السودانين منذ نيف وربع قرن.

آخر الكلام:

لقد هبط سد النهضة هبة من السماء ليس فقط للشعب الإثيوبي، إنما لأهل السودان كذلك، وربما للمصريين أيضاً لو ترجلوا من أبراجهم العاجية، ودخلوا في مبادرات مشتركة مع الجيران المشاطئين للنيل، كما ظلت تفعل جميع دول اسكندنافيا والعديد من البلدان الأوروبية؛ ومعروف للجميع أن الكهرباء المولدة من مساقط المياه لا تكلف طاقة أو نفطاً، وكمياتها دائماً مهولة للغاية، ويجود من لديه مثل هذه المنشآت على من ليس لديه كهرباء من الجيران. ولو كان المصريون أيام جمال عبد الناصر في أواخر الخمسينات ذوي بعد نظر لشيدوا السد العالي ليس في أسوان إنما في الموقع الذي يحتله سد النهضة الآن، ولحصدوا الفوائد التالية:

1. ليس هنالك تبخر بالدرجة التي تعاني منها بحيرة ناصر حيث يذهب ربع الماء المخزن بها متبخراً إلى طبقات الجو العليا في منطقة هي الأكثر سخونة في العالم.

2. ولو تم تشييد ذلك السد بتمويل وأيدى مصرية لكان ذلك جميلاً يطوق الشعبين الإثيوبي والسوداني إلى الأبد، وعربوناً أكثر فعالية للوحدة العربية التي كان الناصريون يحلمون بها ويتفانون في سبيلها؛ وربما كان ذلك خير توطئة للمزيد من المشاريع التكاملية التي تقرب هذه البلدان لبعضها البعض، ربما على طريق الوحدة الكنفدرالية في نهاية الأمر.

3. ولو تم ذلك السد، لبطلت الحوجة للسد العالي ولسد مروى والثلاثة سدود الوشبكة، بل ولخزان الدمازين كذلك، ولما كان هناك حاجة لترحيل كل هذه الشعوب المكرومة والمحرومة من مساقط رؤوسها، الحلفاويين والكنوز والعبادة والمحس والسكوت والمناصير.

لقد ألحق الإخوان المسلمون ورهط المؤتمر الوطني الحاكم أضراراً جسيمة بالسودان؛ فقد تنازلوا عن ثلثه للجنوب دون مبرر يذكر، وهم بصدد التنازل عن دارفور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق، وكذلك جزء ضخم من شمال البلاد

للمصريين ومن خلفهم الممولين القطريين، دون التوقف للتدبر فيما يقترفونه وهم في سكرة الحكم ونشوة السلطة والاستمتاع بما يقبضون من رشي. ولو كان بهم مزعة من وطنية ومسحة من أخلاق لحولوا المفاوضات الدائرة حالياً حول سد النهضة لمصلحة السودان، من أجل الكهرباء والقنوات التي يمكن أن تعمر مساحة بين النيلين الأبيض والأزرق تبلغ أربعة أضعاف مشروع الجزيرة والمناقل، في منطقة أكثر خصوبة وأجمل طقساً، ولكفوا عن المضي في طريق الشريك ومكجبار ودال.

إلى جنات الخلد يا مصطفى عبد الماجد!

صلاة الله خالقنا حنوً
على الوجه المكفّن بالجلال
على المدفون قبل التراب صوناً
وقبل اللحد في كرم الخصال
وأفجع من فقدنا من وجدنا
قبيل الفقد مفقود المثل

غيب الموت قبل بضعة أيام البروفيسير مصطفى محمد عبد الماجد مؤسس ورئيس
شعبة اللغويات بكلية آداب جامعة الخرطوم بالسبعينات والثمانينات، جعل الله قبره
روضة من رياض الجنة، وجعل البركة في بنتيه وزوجه الفضلى محاسن محمد
حسن عبد الله وفي إخوانه بكري والآخرين وفي نسل محمد عبد الماجد أجمعين.
ولقد تقاطعت حياتي في عدة منحيات مع الراحل المقيم، ووجدته أستاذاً جليلاً
وعالماً نحريراً وصديقاً وفيّاً خدوماً لمعارفه وطلابه، وجليساً لا تمل أنسه وعمق
إلمامه بالأدب الإنجليزي والعربي، ومحباً للنكتة والقفشات، وراويّاً للمشاهد الطريفة
مما يقوله ويفعله زملاء العمل والسابلة أثناء تصريفهم لحياتهم اليومية، ووطنياً
مخلصاً ومحباً لبلاده، تجده دائماً على الجانب الصحيح من التاريخ، دون انتماء
لحزب سياسي معين، ولكنه بالقطع لم يكن يمينياً أو رجعياً في أي يوم من الأيام.

وعندما وصلت لكلية السنتين ببخت الرضا ضمن الفرقة 23 في يوليو 1963 كان
مصطفى قد عاد لتوه من جامعة بيروت الأمريكية، وشرع في تقديم مادة اللغويات
Linguistics لنا بالإضافة لمادة تدريس الإنجليزية ELT، وكان مبهرّاً من حيث

غزارة علمه وطريقة عرضه وتدريسه وجزالة نطقه للإنجليزية وحسن هندامه وصرامته في وقت الجد، وخفة دمه وطلاوة حديثه في كل الأوقات الأخرى. وعلى الرغم من الاحترام المتبادل الذي نشأ بيننا على الفور، فقد احتفظت بمسافة بيني وبينه لكي لا يقال بأنني أتقرب لأستاذي لحاجة في نفس يعقوب، إلى أن وصلنا لاختبارات الفصل الأول First Term للفرقة 23، فاستدعاني الأستاذ مصطفى لمكتبه وأشاد بأدائي في تلك الامتحانات، ودعاني لشاي العصر بمنزلهما هو والأستاذ ربيع عمر بشير أستاذ التربية وعلم النفس، واصطبحت معي ابن الدفعة وزميلي منذ التدريس بسنار الأميرية طه الأمين الشريف عليه رحمة الله؛ ومنذ ذلك اليوم أصبح أربعتنا أصدقاء لصيقين، بالإضافة للعلاقة المهنية (الشيخ / الحوار) مع كل ما تنطوي عليه من تجيل واحترام وفق التقاليد السودانية الراسخة. ولقد كان مصطفى يدعونا بين الفينة والأخرى لكي نستمتع بأسطوانات الشاعر الويلزي ديلان توماس الذي توفي في شرخ الشباب من فرط الخندريس، وقد كان جزءاً من حركة الوجوديين الجدد بشعره المتمرد في الخمسينات، تلك الحركة التي جسدها جون أوزبورن (Look Back in Anger 1956)، وكولن ولسون صاحب (The Outsider - (اللامنتمي)، كما أسمعننا أسطوانات تي إس إليوت وهو يلقي أشعاره، وكان يشرحها لنا بيتاً بيتاً، خاصة:

The Love Song of J. Alfred Prufrock

و كذلك The Waste Land - الأرض اليباب.

كما لفت نظري مصطفى لكتابات ومواقف الدكتور اللورد بيرتراند رسل علامة الرياضيات والفلسفة ونصير السلام العالمي والمناهض للقنبلة النووية، وأهداني كتابه "اقتحام السعادة" The Conquest of Happiness وهو أجمل ما قرأت في حياتي مما صنف البشر على الإطلاق، كما عرفني بالكثير من الأدباء البريطانيين الآخرين الذين كانت مكتبة بخت الرضا تزخر بأعمالهم، وكان أمين المكتبة هو الشاعر الفذ عمران العاقب عليه رحمت الله الذي ما انفك يتمتم ويتأتئ

إلا عندما يتلو شعره للملأ مهما طال زمن الإلقاء، وتلك من ملاحظات مصطفى التي لا أنساها.

وفي العام التالي 1964 كانت بخت الرضا تعد للاحتفال بعيدها الثاني والثلاثين، في أكتوبر، فقرر مصطفى بعد استشارتنا أن تشترك الفرقة 23 بمسرحية إنجليزية بإخراج باذخ، ووقع الاختيار على النص *The Prince Who Was A Piper*، وتم اختياري لتمثيل دور "الأمير"، بينما كان "الأميرة" طه الأمين الشريف، وكان عادياً في تلك الأيام أن يقوم الذكور بدور الإناث على المسرح، كما شارك في التمثيل أحمد المصطفى (القبجي) من أهالي نيالا؛ ولقد أخرج مصطفى المسرحية بمساعدة كل من الموهوب الحوري أستاذ المسرح عليه رحمة الله، وأستاذ الموسيقى الماحي إسماعيل المكي أمد الله في أيامه الذي أسس معهد الموسيقى لاحقاً والذي كان في زيارة لبخت الرضا مرتع سنينه الأولى بمهنة التدريس. وكان مصطفى مفتوناً بسخرية الماحي ومقدرته على صناعة الفكاهة ونجر الألقاب: (اللواري، وسيلة المواصلات الوحيدة من وإلى الدويم، أسماها "اللواري الكُنس" على وزن "الجواري الكُنس"، وأسمى أستاذ التربية البدنية عبد الحميد الجمل "مسيو دي كاميللو"، وأطلق على آخر "مسيو دو لا فيج".... إلخ).

وجاءت ليلة عرض المسرحية يوم 23 أكتوبر 1964، واعتلينا الخشبة وأدينا أداءً بهر الحضور، وعلى رأسهم وزير التربية اللواء محمد طلعت فريد وعميد معهد بخت الرضا مندور المهدي، غير أنني لاحظت ثمة جلبة وحراك بين الصفوف الخلفية، واكتشفنا لاحقاً أن ثورة أكتوبر كانت قد اندلعت وتناهت إلى الدويم، فجاء بعض من شبابها لبخت الرضا وحاولوا أن يتظاهروا، ولكن الحراسة كانت مشددة، وتم قمع ذلك التحرك وإسكاته إلى أن غادر طلعت فريد، وفي مساء اليوم التالي انفجرت ثكنات بخت الرضا وشوارعها بجموع المدرسين المشاركين في ثورة أكتوبر.

ولقد عرفت من مصطفى أنه أصلاً من محس صوارده، وابن عمة الفنان محمد وردي، وبه لحمه جعليه من ناحية جدته لأبيه؛ وقد انتقلت الأسرة إلى عطبرة منذ

وقت مبكر، حيث عمل أبوه تزيياً، وكان من الشخصيات المعروفة بعطبرة وعضواً
بنادي الخريجين. وأخبرني مصطفى إنه درس كل المراحل بعطبرة والثانوي بوادي
سيدنا، ومن ثم التحق مباشرة بوزارة المعارف معلماً بالمدارس الوسطى ليساعد في
تربية إخوانه بما أنه كبيرهم، وبعد عامين جاء لكلية السنتين وتخرج فيها بدرجة
ممتاز، فتم ابتعاثه نتيجة لذلك للجامعة الأمريكية ببيروت في أواخر الخمسينات. و
كان الأستاذ مصطفى يحفزني ويشجعني لأن أسلك نفس الطريق، وأن أدخل جامعة
الخرطوم بعد بخت الرضا طالما أن البعثات إلى بيروت قد تم إلغائها؛ وبالفعل راقت
لي الفكرة، ولكن الظروف لم تسمح لي بتطبيقها إلا بعد عشر سنوات من ذلك، أي
في عام 1974، وكان الدكتور مصطفى قد عاد لتوه من أدنبره والتحق بكلية التربية
محاضراً، ثم انتقل في نفس العام لقسم الإنجليزي بكلية الآداب تمهيداً لتأسيس
شعبة اللغويات، وألح علي مرة أخرى لدخول الجامعة، وأصبح أستاذاً لي للمرة
الثانية، وكنت تلميذاً مؤدباً بالنهار، وكثيراً ما كان يدعوني بالمساء في معية نفر
من الأصدقاء مثل الدكتور حسن تنجر لتناول العشاء وما تيسر بنادي الأساتذة.
وما بين بخت الرضا التي كان آخر عهدي بها في أكتوبر 1964، وجامعة
الخرطوم في يناير 1974، كانت قد تدفقت مياه كثيرة تحت الجسر.

فقد ظل مصطفى ببخت الرضا لعقد من الزمان يدرّب مدرّسي الوسطيات، ويذهب في
رحلات تفتيشية للمدارس الحكومية بكل البلاد، ويشرف على صياغة وتجريب
وتطبيق مناهج اللغة الإنجليزية بالوسطى والثانوي حتى بعد أن تم نقل قسم المناهج
إلى الخرطوم، كما ظل يضع ورقة الإنجليزي بامتحان الشهادة السودانية كل عام.
ولقد عمل مصطفى بالسودان كل عمره ولم يفكر في الاغتراب بالدول النفطية التي
كانت تستقطب المعلمين السودانيين، خاصة أساتذة الإنجليزية، وهو أمر كانت
تتحلب له أشداق معظم المتعلمين من مهنين وفنيين، إذ كان مصطفى يرى بأنه
ليس من الوطنية أو الخلق الكريم أن تمر بكل المراحل الدراسية المجانية وتذهب
لعدة بعثات خارجية على حساب الدولة بالعملة الصعبة، ثم تولي الأدبار نحو الدول
الأكثر ثراءً لكي تكنز الدراهم والدنانير قبل أن تسدد فاتورة بلادك التي تطوق عنقك.

ولم يرضخ مصطفى لهذه النزعة إلا بعد أن تقاعد في بداية التسعينات على إثر خدمة متصلة بوزارة المعارف/التربية وجامعة الخرطوم جاوزت الأربعين سنة، وبعد أن اكتشف أنه ظل مقيماً بمنزل أهل زوجه - آل محمد حسن عبد الله - جوار مسجد شروني، وأن كل خدمته بالميري لم تمكنه من تشييد أي مسكن للأسرة.

وقبل ذلك، وفي أواخر الستينات، كان مصطفى قد ابتعث لأدنبره ببريطانيا، وهناك وجد أحمد الزين صغيرون عليه رحمة الله الذي كان يحضر للدكتوراة في تاريخ الفنون، بينما أعد مصطفى أطروحته عن أهداف تدريس اللغة الإنجليزية بالسودان. وكان مصطفى يرأسني وأنا مدرس بسنار الثانوية بنين ثم الثانوية بنات، فقد انتدبت بعد بخت الرضا للثانويات بفضل النتيجة التي أحرزتها (مع إضافة خمس جنيهاً لراتبي الشهري)؛ ولقد أرسل لي مصطفى **hard cover** مذكرات اللورد بيرتراند رسل **Autobiography** بعد صدوره مباشرة بالبريد من تلك الحاضرة الاسكتلندية، ووصلني في زمن قياسي بسنار.

ثم هبت عواصف 22/19 يوليو 1971، ووجدت نفسي لاجئاً بتشيكوسلوفاكيا، وطالباً بجامعة في براغ إسمها (17 نوفمبر!)، قضيت بها عامين، ثم قرر فرع الحزب هناك أن يعود للسودان كل من أتى لتلك الدولة بسبب أحداث 19 يوليو، بمن فيهم الطلبة بالجامعات، وبمن فيهم شخصي على الرغم من اجتيازي لاختبار الإنترميديات "المتوسط" بامتياز (فيبورني **Viborny**)؛ ولقد رحبت بالعودة لأنني حمدت الله الذي استلني من تلك الجامعة التعيسة (التي لم تكن جامعة بالمعنى المعروف، إذ ليس بها سوى الطلاب الأجانب، ويستكف التشيك أنفسهم عن دخولها، وليس بها مكتبة أو كتب أو مراجع أو رياضة أو أي نشاط ثقافي أو جرائد حائط، بل دفاتر ضامرة (ملزمات) مطبوعة بالآلة الكاتبة يوزعها الأساتذة، وكلهم **part-timers**؛ ولما زرت براغ قبل عامين وذهبت أبحث عن جامعتي السابقة لم أجد لها أثراً، لا في الأرض ولا في الأرشيف ولا في الذاكرة الجمعية). ولقد نويت كذلك أن أغادر براغ لأحقق وصية أستاذي مصطفى بدخول جامعة الخرطوم والتخرج

فيها. وكان قد كتب لي في براغ متسائلاً: (ألم تكتشف يا صديقي حتى الآن ألا فرق بين الشيوعية والسعودية؟).

ولما وصلت إلى الخرطوم عام 1973 وجدت أن مصطفى قد عاد للتو من بريطانيا، وذهب معي للراحل الأستاذ دهب عبد الجابر بوزارة التربية في محاولة مستميتة لإعادتي للعمل، فقد تم فصلي في أواخر يوليو 1971 بينما كنت في مهمة تابعة لوزارة الجنوب ببوغندا، ولقد كتبت عبارة على ظهر ملفي تقول (أحد الهاربين بالخارج)؛ وكان ذلك الملف بحوزة الأستاذ دهب، وكلما نأتيه أنا ومصطفى يأخذ الملف تحت إبطه ويسعى بين مكاتب المسؤولين ثم يعود لنا بخفي حنين؛ واستمر هذا السيناريو لتسع شهور كاملة. وفي مرة من المرات سأل دهب مصطفى بالبطانة: (إنت الزول ده تعبان معاه كده ليه؟ هو أكبنجننا واللا إيه؟) فرد عليه مصطفى بالعربي: (هو ما أكبنجننا لكن سوداني ومعلم ذو كفاءة). ومنذ ذلك اليوم أصبحت استخدم كلمة أكبنجننا وسط الأصدقاء المحسن، مع بعض الكلمات الأخرى التي التقطتها منه ومن فاروق كدودة عليهما رحمة الله. وفي خلال تلك الفترة كنت أعمل بالفصول المسائية معلماً للإنجليزية، وكان مصطفى، الأستاذ الجامعي، يتولى عني حصص مساء الخميس دون أجر لأنني كنت أذهب لأسرتي بسنار لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وبعد تسعة شهور وبعد تدخل أيضاً من صديقنا المشترك إبراهيم دقش وصديقه الراحل محمد الحسن أحمد أرجعتني الوزارة لوظيفتي بأثر رجعي، منذ تاريخ عودتي من تشيكوسلوفاكيا، ونقلتني للعمل بمدرسة في الخرطوم بحري. ولكنني كنت قد قدمت أوراقى لجامعة الخرطوم بإيعاز من الدكتور مصطفى الذي أدخل أوراقى لمجلس كلية الآداب بعد موسم القبول بعدة شهور، باعتباري أصلاً مؤهل لدخول الكلية، بالإضافة لدبلوم بخت الوضا، (وبالطبع لم نذكر شيئاً عن جامعة 17 نوفمبر)، وكان أستاذى مصطفى يدفع باتجاه تخطي السنتين الأوائل وقبولي بالسنة الثالثة رأساً، ولكن المجلس رأى بأن البداية يجب أن تكون من السنة الثانية حتى أتمكن من اجتياز الشهادة المتوسطة، ولأنني بعد ذلك أستطيع أن أواصل بالآداب أو أتحول إلى كلية الاقتصاد إذا تخصصت في العلوم السياسية

على سبيل المثال؛ وبما أن العام قد أوشك أن يتصرم (ونحن فى يناير 1974)، وامتحان المتوسطة على الأبواب (فى مارس)، فلقد قبل مصطفى بقرار المجلس، وقبلت به بالطبع؛ وبدأت الدراسة، وبعد شهر واحد دخل الطلاب فى أجمل إضراب مر على فى حياتي، إذ أغلقت الجامعة حتى يوليو، فكانت تلك فرصة وقعت لي من السماء تمكنت خلالها من إعداد نفسي للامتحانات فى أغسطس بنفس هادئ. وفى نفس الوقت ظلت أكافح لكي أحصل على بعثة داخلية من الوزارة لتفرغ للدراسة مع كامل راتبي، ولقد نجح ذلك المسعى لأن الوزارة كانت ملتزمة بأربع منح سنوية لمعلمي الوسطى الذين يتم قبولهم بجامعة الخرطوم، ولم تكن هناك منافسة فى هذا المجال، إذ كان كل المتقدمين أربعة أساتذة فقط.

وبالطبع لن أنسى عام 1976 عندما أتيت للدكتور مصطفى بأوراق صهري شقيق زوجي محمد الحسن السيد الذي تخرج فى جامعة القاهرة فرع الخرطوم وقدم لوظيفة مخرج بالتلفزيون؛ فأخذ مصطفى الأوراق وذهب لمدير الجهاز الدكتور أحمد الزين صغيرون العائد من أدنبره كذلك، ولم يطلب منه أن يعامل محمد معاملة استثنائية إنما فقط أن يتم فحص المتقدمين بشفافية ونزاهة وعدل حتى يجد أمثال محمد فرصة فى منافسة شريفة وموضوعية، وقد حدث بالفعل أن أشرف المدير شخصياً (Mr. Big Man كما كان يناديه مصطفى) على ذلك الموضوع، إذ كانت تلك الأجهزة - الإذاعة والتلفزيون - حكراً لأسر معينة من برجوازية العاصمة المثثة، ولكن هذه المرة فتحت الفرص أمام أبناء الكادحين السودانيين بالقسطاس، وكان محمد السيد أحد المحظوظين الذين تم تعيينهم فى ذلك العام.

وبعد أن أكملت الجامعة فى 1978 التحقت بجامعة جوبا مساعداً للتدريس، ثم أوفدت فى بعثة لأدنبره عام 1979، وحيثما ذهبت هناك وجدت إشاعات السمعة الطبية الذي تركها مصطفى وراءه. وعدت للخرطوم عام 1985 بعد الانتفاضة، وكان مصطفى مستقراً بشعبته، مع القيام ببعض الأنشطة الأخرى فى مجلس إدارة KIPS "مدرسة الخرطوم الابتدائية للتدريس بالإنجليزية"، وفى كافة لجان المناهج

بوزارة التربية التي كان البروفيسير مصطفى ينتدب لها بانتظام، ومدرسة الخرطوم الصيفية للغة الإنجليزية KSSE التي أسسها وأشرف عليها.

وأردت أن "أُتخرج" من جوبا نسبة لظروفي الأسرية، وتقدمت باستقالتني منها وبطلب للعمل في كلية التربية بجامعة الجزيرة، وأخبرت مصطفى باعتباره referee قام بتدريسي في كل من بخت الرضا وجامعة الخرطوم، فأرفق طلبي بتوصيته وسلمه لعميد تربية الجزيرة الدكتور عبد السلام محمود؛ وبالفعل انضمت لهيئة تدريس جامعة الجزيرة، وبقيت بها إلى أن جاء هذا النظام الذي أحالني للتقاعد. وفي نفس تلك الأيام، ترك مصطفى السودان كذلك (مكرهاً أخاك) وذهب لجامعة أبها بالعربية السعودية، وظل بها حتى تقاعد بصفة نهائية ليجلس مع الأسرة بمنزلهم في حي شمبات الأراضي، إلى أن أخذ رب العالمين وديعته ذات يوم كالح السواد من هذا الشهر.

لقد نشأ مصطفى في زخم الأربعينات والخمسينات بعطبرة، وشارك في تظاهراتها وندواتها وأجوانها المضمخة برائحة الغاز المسيل للدموع وبأصوات الخطباء من أمثال قاسم أمين ومحمد السيد سلام وعثمان جصور وهم يحدون ركب الثوار نحو معارك التحرر الوطني؛ وقد أخبرني إنه كان عضواً بهيئة السلام السودانية فرع عطبرة، أي كان يصنف نفسه ضمن القوى التقدمية. ولقد شبَّ مصطفى عن الطوق وهو محب لوطنه ومتفان في خدمته بمجال تخصصه وهو تدريس اللغة الانجليزية. وبالطبع لم يكن مصطفى من النوع النرجسي الوالغ في الملذات، أو الباحث عن الشهرة والظهور، إنما كان من الزاهدين الذين وصفهم حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: (أهل الجنة كل ذي ظمير لا يؤبه له، ولو وزع نوره على الناس أجمعين يوم القيامة لوسعهم). ولقد ترك مصطفى وراءه خدمة ناهزت نصف القرن بالسودان دون أن يتم تكريمه أو حتى ذكره، إذ يبدو أن الأجواء قد ازدحمت والآفاق سدت بالصعاليك والسوقة وشححي الذكاء the mediocrity وضامري الثقافة الذين يجهلون فيما يجهلون اللغة الإنجليزية وآدابها واللغة العربية نفسها،

وضاربي الدف وحارقي البخور والثقلاء. ومن يحتاج لتكريم من مثل هؤلاء
الهكسوس البدائيين؟ تكفي تماماً المكانة التي يحتلها مصطفى في قلوب طلابه
وزملائه وأصدقائه وكل من جمعته به دروب الحياة؛ فنسأل الله أن يتقبله بين
الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً.

إنهض يا صديقي حيدر!

المجد عوفي إذ عوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك الألم

وحيدر أسم على مسمى - الليث الهظبر، وأنا أتحدث هنا عن البروفيسير حيدر إبراهيم علي الذي أملت به وعكة أسأل الله أن تكون طارئة؛ ولقد افتقدت عموده لبضع أسابيع، وظل هاتفه لا يرد على جميع الكولات، فلعب الفأر في عبي، إلى أن جاءني الخبر المزعج من الصديق المشترك أحمد إبراهيم المقيم بالإمارات العربية المتحدة مثلي، إذ قال : لقد توقف الدم فجأة عن السريان لجزء من الدماغ، فأخذوا حيدر للمستشفى؛ ولكن هاتفه ما انفك لا يستجيب، إلى أن عاد ابنه مظفر من انجلترا وأتاني البارحة بالخبر اليقين: لقد تماثل حيدر للشفاء وخرج من المستشفى، ويجلس الآن متنقهاً بشقته بالمعادي، بعد أن هزم المرض بصموده الأسطوري وجنانه الثابت عند الملمات وشجاعته الغضنفرية، مع رحمة رب العالمين الذي لا بد أن الشفقة قد أخذته بعبد صالح من عباده لم يظلم أحداً ولم يسرق مع السارقين ولم ينبطح مع المنبطحين، ولم يداهن أو ينافق أو يطأطي هامته أمام حاكم، ولم يوغر الصدور ولم يخض في سيرة الخلق أو يسعى بالفتنة أو يساهم في اغتيال شخصية، ولم يقطع رزقاً أو يقتل نفساً، أو حتى يجرح شعور إنسان منذ صغره حتى اليوم؛ فعاد تدفق الدم للدماغ العظيم المترع بالخير وحب الخير، كما ظلت العلوم تتدفق وتسكن بجوفه، واستعاد المريض ذاكرته الخرافية في زمن قياسي.

وعندما اتصلت بمظفر البارحة كان حيدر في سنة من النوم، ولكنه سوف يستطيع أن يرد على هاتفي بعد أن يستيقظ. كما لم يحدث أي خلل لحركة المفاصل

والأطراف، إلا من بعض ألم قديم يتاور إحدى حلقات السلسلة الفقرية بين الآونة والأخرى، ناتج عن الانقلاب على الحاسوب لأكثر من ست عشرة ساعة كل يوم، قراءة ونقرأ على المفاتيح منذ أن تم اختراع هذه الآلة وتناهد إلى يد حيدر.

ويعاني حيدر كل ذلك بعيداً عن وطنه الذى لا يكرم الخيار من أبنائه، ويسلم القياد لشذاذ الآفاق واللثام منهم. ويقع حيدر ويقوم فى أرض مصر التى تفتأها بعد أن لفظته بلاده على إثر إغلاق مركزه البحثي وملاحقته وتضييق الخناق عليه من قبل جهاز الأمن، أمام صمت غير لائق من جانب منظمات الحركة الجماهيرية مثل اتحاد الكتاب. وتتمر الأيام العصبية الماضية فى تزامن غريب (لعله من آيات وحدة الوجود التى يتحدث عنها المتصوفة) مع التجربة التى مر بها الأستاذ كمال الجزولي بمستشفى آخر بالقاهرة، حيث أجريت له عملية توسيع شرايين، وخرج منها معافى بحمد الله وعاد لبلده وأهله فى السودان. بيد أن حيدر لم يحظ بأي اهتمام حتى هذه اللحظة من المنابر الديمقراطية والتقدمية التى طالما أثارها بمساهماته المتواصلة، إلا فى الأسابيع الأخيرة. ولكن دعنا نحسن الظن، كما هو حري بحيدر أن يفعل دائماً فى مثل هذه الظروف، إذ ربما كانت الصورة الكاملة غائبة عن الجميع، مثلي فى الأيام الفائتة، أو لعلهم خمنوا - كما فعلت - أن حيدر ربما "خفس" فى إحدى "خفساته" الراتبية لجمهورية التشيك حيث العلاج الطبيعى، أو لبريطانيا حيث يقيم ويعمل ابنه مظفر.

لقد عرفت حيدر منذ بداية الستينات عندما كان زميلاً لابن دفعتي وصديق العمر أمين عمر أحمد بمعهد المعلمين العالي، بينما كنت معلماً بالوسطيات، ولقد سعدنا بذلك الشايفي المحصص ابن الكادحين مثلنا الذى كان يحرر صحيفة حائط بمفرده، ويمهر مقالاته بتوقيع (باحث عن الحقيقة)، ويحدثنا عن ابن خلدون وكارل ماركس والذين أتوا بعده من علماء الاجتماع مثل ماكس وبيبر وديركهايم وتونيس، وعندما لاحظ توقفنا كالدابة الحرون عند محطة ماركس وفردريك إنجلز ورفضنا لغيرهما من الفلاسفة، كان يقول لنا إن حواء ليست عقيم، بينما كان يتفق معنا

حول التكتيكات التى استنبطها اليسار السودانى من تلك النظرية (الماركسية اللينينية) وطبقها على أرض الواقع. وكنا فى تلك الفترة نعيش دكتاتورية عبود وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة، بكل زخم المقاومة، من كتابة على الحيطان والمنشورات السرية المطالبة بالحرية والشاجبة للمخططات الإمبريالية بالمنطقة، والمتضامنة مع أيقونات حركة التحرر الوطنى، عبد الناصر وكوامى نكروما وسيكو توري... إلخ.

ودارت الأيام، وذهب حيدر إلى جامعة فرانكفورت بألمانيا الغربية للتحضير للدكتوراة فى علم الاجتماع، ولقد زرته هناك فى صيف 1975 وقضيت معه أسبوعين بغرفته الصغيرة بالداخلية، وكان يفترش لحافاً على الثرى وأنا على السرير بإصرار شديد منه؛ وقد تسامرنا فى محيط الطلاب مع كل قبائل اليسار العربية والإفريقية والألمانية، وأمضينا الساعات الطوال بالمكتبة، وتعلمت من حيدر الكثير، خاصة أبجديات البحث العلمى ومهارة الفرز والتمييز، بحيث تتعرف على المواد التى تستحق الإطلاع والتأمل والتدبر، وتلك التى لا تستحق سوى المسح العابر، أو التجاهل.

ثم التحق الدكتور حيدر بكلية الاقتصاد جامعة الجزيرة محاضراً فى علم الاجتماع عام 1986 بعد فترة قضاها بالخارج، وكنت آنئذ أعمل بقسم اللغة الإنجليزية بكلية التربية؛ غير أن المقام لم يطب له، وغادرنا فى نفس العام. وكان قد عمل لفترة معتبرة بجامعة العين بالإمارات، ولما أتيت لهذه الدولة عام 1990 محالاً للتقاعد للصالح العام بعد مجيء الإخوان المسلمين للسلطة بستة شهور، وجدت سيرة عطرة للدكتور حيدر تسير بها الركبان فى الإمارات، طلاباً وأساتذة، عرفاناً لغزارة علمه وعمق ثقافته وصبره وتسامحه وروحه الأبوية الدافئة وعدم فجوره فى الخصومة، وشجاعته الأدبية ومقدرته على الصدع برأيه أمام أعتى الخصوم الفكرين والسياسيين، بل هو أكاديمي موضوعي متجرد وليس له خصوم أصلاً، وكانت له صداقات مع العديد من الشيوعيين والإخوان المسلمين فى نفس الوقت.

وفى بداية التسعينات، أي بعد سطو الإخوان المسلمين على السلطة، خرج حيدر مرة أخرى من البلاد وأسس مركزاً للبحوث فى القاهرة، ثم نقله إلى المغرب حيث أقام بعض الوقت، وعاد مرة أخرى ليقم فى القاهرة. وفى تلك الأثناء، وتحديداً بعد اتفاقية القاهرة بين نظام البشير والتجمع الوطنى الديمقراطى فى يونيو 2005، عاد حيدر للخرطوم ظناً منه أن الاتفاقية قد جلبت معها هامشاً يسمح بالنشاط الفكرى الحر من خلال مركز الدراسات السودانية. ولكنه كان برقاً خلباً سرعان ما انكشف أمره، وسرعان ما ارتد النظام على العهود والوعود التى قطعها فى القاهرة، وأغلق مركز الدراسات السودانية وصادر أثاثاته وأدواته.

وحيثما ذهب حيدر كان له حضور مشع vibrant بالعلم والمعلومات المفيدة والرأى الموضوعى المؤسس على الأدلة والبراهين، والموقف الوطنى الصحيح. فلقد ظل رافضاً لدكتاتورية الإخوان المسلمين بالسودان منذ اختطافهم للسلطة فى يونيو 1989 حتى اليوم، وكان من أول المعارضين المقيمين بالقاهرة فى مطلع التسعينات، الساعين بكل استماتة لتوحيد صف المعارضة حول استراتيجية واضحة المعالم، ليس فقط لإزالة النظام، إنما للبناء الديمقراطى والتحول الاجتماعى والتقدم الاقتصادى الذى يجب أن يأتى فى أعقاب النظام الظلامى الراهن. وكان يدعو لرجوع الكوادر المعارضة للسودان مهما كانت مخاطر القمع والسجن، وقد أعلن هو ومحمد الحسن عبد الله يس بأنهما سوف يكونا على رأس أول فوج عائد للخرطوم، إذ لاحظ حيدر أن نشاط المعارضة أصبح مجرد جعجة من خلف الأسوار ومجرد أصوات خجولة فى ديار المنفى، كما توقعت الجماعات المعارضة داخل حلقات وشليات بانسة، وتفتت بينها عادات انصرافية سلبية، وهى ما برحت خاضعة لأجندة الدول المضيفة، خاصة تلك التى لها مصالح مباشرة مع نظام الخرطوم، والتى قد تنقلب عليها فى أى لحظة، كما حدث لاحقاً عندما فرضت السلطات المصرية على التجمع أن يقبل باتفاقية يونيو 2005، والتى فعلاً قبلها ووقعها وعاد بموجبها للخرطوم، وشارك فى السلطة وفى البرلمان، وما هى إلا بضعة شهور

حتى تنكر النظام لتلك الاتفاقية، وانقلب على المعارضة تنكيلاً وتكميماً، بادئاً بمركز حيدر للدراسات السودانية.

ولقد زرت حيدر بالقاهرة عام 2012 عندما كنت بصدد طباعة كتابي الأول (السودان يكون أو لا يكون)، وقدمني لصاحب دار جزيرة الورد، كما قدمني للعديد من المثقفين والكتاب التقدميين المصريين، وذهبت معه لحفل أقامه حزب التجمع بداره تكريماً لشاعر مصري هو حلمي سالم، كان يعاني من سرطان الدم في مراحله الأخيرة وقد توفي بعد ذلك ببضع أيام، وعلى الرغم من ذلك جاء الرجل وألقى قصيدة طويلة عصماء، وتم تكريمه من قبل قادة الحزب، وكانت باقة الزهور الضخمة الوحيدة أمام المحتفى به هي التي أحضرها حيدر - ذلك الجنّتلان السوداني المتحضر الرقيق - وقدمها للشاعر المحتفى به عند دخولنا للقاعة؛ فحيدر رجل معطاء وفنان رفيع الذوق ومفرط الإنسانية، ومهذب ودائم الابتسامة ومتواضع، يترخص مع بسطاء الناس، مثل النادل في المطعم وصاحب كشك الجرائيل وسائق التاكسي، أولئك العوام الذين لا يعيرهم البرجوازيون الصغار انتباهاً، وفي نفس الوقت يسمو حيدر إلى ذري قادة الفكر المصريين، مثل خالد محي الدين والدكتور سعد الدين إبراهيم وزعماء التجمع وكتاب روز اليوسف، ويتحاور معهم بندية تدعو للإعجاب والتعجب، بل يكاد يستقطبهم لموقفه في أي مناقشة حضرتها له معهم، وهو المثقف السوداني المعاصر الوحيد، حسب علمي، الذي تغلغل في مجتمعات المفكرين المصريين، مثل الطيب صالح عطر الله ثراه، والذي يعملون له ألف حساب.

إن البروفيسير حيدر لا يحتاج لتعريف من قبل شخص مثلي، فهو أسبق للكتابة وأكثر إنتاجية وأطول باعاً في مجالات البحث والاستقصاء والتوثيق للقضايا السودانية من ألفها إلى يائها، ولقد ساهم بآلاف الكتب والإصدارات والبحوث والمحاضرات والأعمدة الراتبية، ولقد ظل مهموماً بمعاونة الغلبة السودانيين حتى كادت أن تهدد الأرزاء، وحتى تكسرت النصال على النصال في جسده المنهك.

إنهض يا صديقي الوفي في زمن عز فيه الأصدقاء الأوفياء! فنحن في حاجة ماسة لقلمك العبقري ورأيك الحكيم وعلمك الغزير وكرمك الفياض وأدبك الجم وحبك لبلدك وتفانيك في شعبك المغلوب على أمره. انهض يا صديقي، فنحن ندخرك للنظام القادم الذي يخالسنا من بين طيات السحاب، ونراك في عين العقل The mind's eye رئيساً للسودان الحر الديمقراطي، أو على الأقل وزيراً للتربية والتعليم العالي والثقافة والبحوث - ولت كل هذه الحقائق أضغمت في وزارة واحدة يديرها حيدر بإذن الملك العلام. إنهض يا صديقي حتى يسكت هذا الوسواس الذي يأكل قلبي، فلقد ظل قلبي "يأكلني" منذ بضع أسابيع، وما كنت أدري ما هو السبب حتى بلغني خبر وعكتك. إنهض يا صديقي بقوة الإرادة ومضاء العزيمة وصلابة الشكيمة التي أعرفها عنك، وستتثال من أجلك دعوات أبناء الكادحين القلبية الصادقة وصلوات أولياء الله الصالحين السودانيين، من الشيخ فرح ود تكتوك حتى إمام المجددين والمجاهدين الشهيد محمود محمد طه.

إنهض يا أخ الروح، فإنك من الذين يمنحون الطعم للانتماء السوداني، ومن الذين يلهمون الصمود في وجه الظلام الحاكم ببلادنا، ويرسمون لوحات الأمل الذي نمني به النفس، الأمل في غد مشرق سعيد يسود فيه أمثال حيدر إبراهيم علي، وليس اللاعبون الحاليون على المسرح، السباع الضارية والكلاب الهاوية والعقارب اللاسعة والأفاعي النهاشة، عليهم لعنات الله والملائكة والسماء.

إنهض يا صديقي، فإنني في طريقي إليك بأم الدنيا علنا نجلس في مقهى ريش، وفي مقهى نجيب محفوظ بالحسين، وبنادق التجمع، وحتى نجتز أشعار أحمد فؤاد نجم، ونشرف آذاننا بمواويل وأغاني فيروز بألحان نجلها وزجها الراحل وشقيقه، ونتجاذب أطراف الحديث مع من تبقى من رهط اليسار المصري.

إنهض يا صديقي، فنحن نحن إليك حنين (الفرد)، ما حنت هوادي العشار.

ثمة اختطاف للثورة المصرية!

وقف شقيقي محمد عباس NASR البلوقر Blogger بإحدى الإصدارات الإسفيرية السودانية موقفاً سلبياً من انتفاضة 30 يونيو 2013 المصرية التي أتت بالسياسي في نهاية أمرها لرئاسة الجمهورية؛ وظل محمد مصراً على أن المسألة مجرد انقلاب عسكري جاء بدكتاتور على شاكلة حسني مبارك وعمر البشير، وأنه سرعان ما سوف "يتوهط" في السلطة مستغلاً "الشرعية الثورية"، ويشرع في تغيير قوانين اللعبة كما فعل الإخوان المسلمون من قبله، حتى "يتمكن" تماماً ويتحول إلى فرعون آخر يقهر الشعب المصري ويتجبر ويعسكر الدولة ويجيشها؛ وربما ينقلب على الجبران بعد ذلك، كما فعل الطغاة مثل صدام حسين، حتى يشغل جيشه بمعارك إنصرافية بعيدة عن القاهرة، وحتى يبرّر سياساته الاقتصادية الخرقاء بضرورات الأمن الوطني التي أملت بعض التحرشات بالجبران، كأنه سيف الدولة الحمداني، مع أنه في الحروب نعاماً - (فيما يختص بالعدو الرئيس: إسرائيل).

ولقد اختلفنا مع محمد وناصبناه اللجاجة والمرج لأننا كنا ننظر للمسألة المصرية من زاوية واحدة، وهي أن الإخوان المسلمين خطر وشر لا بدّ من التخلص منه أولاً، وما يأتي بعد ذلك أمر ثانوي، ولكل حدث حديث. وكنا نحسب أن إجماع الشعب المصري الذي شهدته شوارع القاهرة والأمصار والداكر في الثلاثين من يونيو مشهد ثوري عبقرى يعطي الإحساس بأن الشعب يعرف ماذا يريد، وهو في دكة القيادة بلا أدنى ريب، وأنه يستطيع أن يفعلها مرة أخرى إذا تعرضت انتفاضته لأي عملية سرقة، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ ولقد أطنبنا في تقريظ أهل الكنانة العباقرة الدهاة (الذين لا تفوت عليهم فائتة)، فهم ليسوا مثلنا، إذ صبرنا على الإخوان المسلمين لربع قرن كامل وهم ينهبون البلاد باسم الدين ويفصلون الجنوب ويشعلون الحروب

ويكمنون الأفواه ويبطشون بالمعارضين. وعلى العكس منا، وأد المصريون الفتنة في مهدها، (وتعدّوا بالإخوان قبل أن يتعشوا بهم)، وخرجوا للشوارع عن بكرة أبيهم مستغيثين بالجيش باعتباره أحد المؤسسات القليلة التي لم ينجح الإخوان المسلمون في اختراقها وتزوير إرادتها وتغيير عقيدتها العسكرية؛ وتصادف أن رئيس أركان هذا الجيش كان الفريق السيسي الذي لم يعرف عنه أي علاقة بالإخوان المسلمين، والذي لا يبدو عليه أي تعطش أو نهم للسلطة، إلا ما كان في السرائر التي لا يعلم مكنوناتها سوى رب العالمين.

ولم يجد شقيقي محمد من يشاطره رأيه في حركة 30 يونيو، إذ وقف المثقفون التقدميون السودانيون مع تلك الحركة وراهنوا عليها بكل ما يملكون، خاصة عندما واجهتها بالعداء جهات مشبوهة كثيرة مثل قناة الجزيرة ورجب طيب أردوغان والقرضاوي وتنظيم الإخوان المسلمين الدولي، وتشككت فيها المخابرات الأمريكية والبريطانية ولم يرحب بها الإعلام الغربي، حيث أنها بعثت الأشواق القومية العربية المعادية للإمبريالية، وحيث أن كثيراً من المتظاهرين كانوا يحملون صور جمال عبد الناصر، وحيث أن ذلك قد ينذر بزلزال في الشرق الأوسط يهدّد الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي، ويهدد المصالح الأمريكية والغربية في المنطقة، وقد يضرب مثلاً تقتدي به شعوب عربية كثيرة أخرى ظلت تروم الانعتاق من ربة الأنظمة الأوتوقراطية، وتنشد الحرية تحت ظلال دولة المؤسسات التي يتم فيها الفصل بين السلطات وترسيخ حكم القانون وتحقيق العدالة الاجتماعية.

وظل أخي محمد مصراً على رأيه وهو مقيم بأقصى غرب أمريكا يناضل من أجل لقمة عيش صعبة المنال كأنه ينتزعها من شقوق الأراقم، فليست له مصلحة مادية في هذا الموقف، ولا يبتغي من ورائه مزيدة تقربه من هذا أو تبعده عن ذاك، فهو ما انفك واضحاً في رفضه للدكتاتورية الإخوانية في السودان، على الرغم من تعاطفه مع الشرعية التي جاءت بمرسي العياط لكرسي الحكم، وانقلب عليها الجيش في 30 يونيو حسب رؤية محمد. (وذلك لعمرى عناد دمامابي أصيل، نسبة لجد أُمي لأُمها

سيد أحمد أمامة أحد زعماء البديرية الدهامشة بقتي الذي لاقاه نفر من جهادية الأمير يونس ود الدكيم وبطشوا به دون سبب، وخلعوا عمامته وخنقوه وجروه بها، فأقسم ألا يرتدي عمامة بعد ذلك، ولم يفعل حتى توفاه الله بعد المهدية بزمن طويل).

بيد أن موقف محمد عباس صار يبدو منطقياً شيئاً فشيئاً. ولقد وقفت ملياً عند حادثة الإعلامي إسلام البحيري الذي حكمت إحدى محاكم الاستئناف بالقاهرة بسجنه لمدة عام، نتيجة لشكوى تقدم بها الأزهر الشريف ضده متهماً إياه بسبب المعتقدات الدينية، وهو نفس المصير الذي كان قد حاق بالدكتور نصر أبوزيد أيام حسني مبارك، ونفس المصير الذي تعرض له عادل إمام أيام الدكتور محمد مرسي؛ إنه مصادرة لحرية التعبير ليس إلا.

فقد جاء في أخبار رأس السنة أن إسلام بحيري رئيس مركز الدراسات الإسلامية بمؤسسة "اليوم السابع" ومقدم برنامج (مع إسلام) حتى أبريل المنصرم، تمت إدانته بإحدى محاكم القاهرة في وقت سابق تحت مادة "إذراء الأديان"، وحكمت عليه المحكمة بخمس سنوات سجنًا، ثم خففت محكمة الاستئناف ذلك الحكم إلى سنة واحدة؛ وكان برنامج (مع إسلام) قد تم إيقافه من قناة "القاهرة والناس" في أبريل استجابة لطلب من شيخ الأزهر.

وجاء الآتي بصحف الخميس 12/31:

(أعربت الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان اليوم عن انزعاجها الشديد على استمرار التردّي في أوضاع حرية التعبير في مصر. الحكم بالحبس بسبب آراء واجتهادات دينية يمثل صدمة هائلة وضربة قاصمة لحرية التعبير، وفي القلب منها حق النقد والاجتهاد الديني والأكاديمي، فضلاً عن استمرار إمساك العصا من المنتصف وترك الباب مفتوحاً لما يسمى بقضايا الحسبة السياسية والدينية، حيث

ينصبّ البعض أنفسهم وكلاء عن المجتمع ويلاحقون أصحاب الرأي أو الفنانين دونما صفة أو مصلحة مباشرة لهم في القضية.)

ونحن، أي المثقفون الوطنيون، لا نحسب أن هذا الكلام يهدف للتعاطف مع الإخوان المسلمين الذين تعجّ بهم السجون المصرية حالياً، إذ أنهم يتجرعون من نفس الكأس التي كانوا يخططون لإقامتها الشعب المصري، ويتلقون ذات المعاملة التي ظل إخوانهم الإسلاميون السودانيون يعرضون لها خصومهم منذ ست وعشرين سنة؛ إلا أننا في نفس الوقت نرى أن الحسم المشروع والناجع للإخوان المصريين لا يكمن في تكديس المعتقلات بهم، بل في تقديمهم لمحاكمات عادلة وفق القوانين والتشريعات الخاصة بالإرهاب والمتاجرة بالدين وهلم جراً.

كما أصبح لافتاً للنظر أن حكومة السيسي ليست جادة في الحرب على الإرهاب، فهي لم تشارك في المجهود الحربي الذي تقوم به السعودية وبعض دول الخليج لاستعادة الشرعية في اليمن من براثن الحوثيين المدعومين من النظام الإيراني والمتحالفين مع المخلوع على عبد الله صالح؛ ولم تشارك حكومة السيسي كذلك في الطلعات الجوية على معاقل جيش بشار الأسد وعلى دولة داعش بالرقعة في شمال شرق سوريا وبالمدين المحتلة بشمال وغرب العراق. ويبرز نظام السيسي هذه المواقف السلبية بأن الإرهاب الداخلي مازال نشطاً بسيناء وفي غيرها من المدن المصرية بعد مرور سنتين ونصف على انتفاضة 30 يونيو، ومازال الجيش وقوات الأمن المصرية في حالة كَرّ وفرّ واستنفار مستمر أوشك أن يرهقها ويفتّ في عضدها؛ وإذا استمرت هذه الحرب مع جماعات الإخوان الشبكية (كالرجل الخفي The Invisible Man) فإن الإجراءات والقوانين الاستثنائية الخاصة بالحجر على الحريات سوف تسمتد، متكئة على حجة "الدواعي الأمنية"، كما هو الحال في السودان منذ ربع قرن، أي منذ أن سطا الإخوان المسلمون على السلطة هناك، وكما كان الحال في المحروسة منذ 23 يوليو 1952 حتى انهيار نظام حسني مبارك عام 2011؛ وهو الحال الذي أبدع أحمد فؤاد نجم في توصيفه:-

(كل الجنود كل الجهود للمعركة)

والشعب صاع الشعب ضاع في معركة

وأكلنا عيش إسود بلون المعركة.)

وفي الحقيقة، تعاطف التقدميون العرب والسودانيون مع انتفاضة 30 يونيو باعتبارها ثورة ضد الطغيان ومن أجل الديمقراطية، وظنوها ستشرع فوراً في تثبيت دعائم النظام البديل الجديد بإصدار التشريعات الهادفة لخلق مجتمع تسود فيه القيم التالي ذكرها:-

- الضمان الكامل لحقوق الإنسان المصري في التعبير والتنظيم والعمل والعلاج والتعليم والتقاضي والسفر... إلخ.
- الفصل بين السلطة السيادية ممثلة في رأس الدولة والسلطة التنفيذية، أي الحكومة، والسلطة القضائية والسلطة التشريعية، أي البرلمان الذي يتم انتخابه بشفافية ونزاهة، مع الآليات الكابحة والمحقة للتوازن بين هذه السلطات الأربع checks and balances.
- استقلال الإعلام تماماً، ويمكن أن تمتلك الحكومة قناة واحدة، على نسق هيئة الإذاعة البريطانية، لها مجلس إدارة محايد ومستديم ومؤلف من كافة الأحزاب والاتجاهات السياسية، وليس عشرات القنوات التي تصرف عليها الدولة مثل أجهزة البريوقاندا التي شهدتها ألمانيا النازية تحت إدارة قوبلز، والتي شهدتها الدول الاشتراكية قبل انهيار حائط برلين.
- انتهاج سياسة خارجية تضع مصالح الدولة المصرية في اعتبارها، ولكنها تجعل مصر نصيراً للسلام العالمي وضد مخططات الإمبريالية والصهيونية بالمنطقة، ومتضامنة مع حركات التحرر في باقي العالم، ومع الشعوب المستضعفة المناضلة من أجل الحرية والتقدم، بعيداً عن الأحلاف المشبوهة.

- وجود إيجابي وصحي عربياً وإفريقياً حتى تستعيد مصر دورها الرائد أيام الراحل جمال عبد الناصر الذي فجر الوعي الثوري العربي المناهض للاستعمار ولأحلافه وقواعده، والذي أنشأ حلفاً تقدماً مع أفضل وأجمل القادة الأفارقة الموجودين في ذلك الزمن - الملك محمد الخامس المغربي وكوامي نكروما الرئيس الغاني، وأحمد سيكو توري رئيس غينيا ورئيس مالي موديبو كيتا؛ كما أنشأ علاقة وطيدة مع الزعيم الثائر باتريس لوممبا محرر الكونغو الذي سرعان ما تأمر عليه الغرب وأودى بحياته (وجاء عبد الناصر بأرملته وأطفاله للقاهرة حيث ترعرعوا وتعلموا وأصبحوا من كبار المثقفين والصحفيين المصريين/الأفارقة).

لم يحدث أي شيء من هذا القبيل طوال الفترة الحالية التي يحكم فيها السيسي، ويبدو أن الحكومة تريد أن تلجم انتفاضة الشعب وتحيلها إلى تغيير شكلي في قمة الدولة، مع الإبقاء على المؤسسات والقوانين الموروثة منذ عهد حسني مبارك؛ ويبدو أنها مكبلة ومثقلة بالاعتبارات التالية، مما جعلها تتقدم خطوة للأمام وخطوتين للخلف:-

- لا زالت مصر ملتزمة باتفاقيات كامب ديفيد التي جعلتها تتبادل التمثيل الدبلوماسي مع إسرائيل، وتتعهد بالسلام الدائم معها وبعدم خوض أي عدائيات ضدها، وإلا....

- وإلا يتوقف الدعم الأمريكي اللوجستي والاقتصادي لمصر البالغ قدره ملياري دولار في العام، في شكل قمح وأسلحة وقطع غيار وتدريب... إلخ، (الذي لم يفعل سوى إثراء منسوبي مؤسسة الجيش المدجن).

- الاقتصاد المصري في حالة انهيار تام منذ عدة سنوات، فقد أدت الهجمات الإرهابية المتكررة على الفنادق والمنجعات إلى غياب السواح وكساد السياحة، وإلى تجفيف هذه الصناعة الإستراتيجية وتشريد مئات الآلاف من المصريين الذين يكسبون عيشهم منها. ولقد لجأت الحكومة للمؤسسات المالية الغربية التي لا تمنح قروضاً أو تمويلاً إلا بشروط استعمارية قاسية لا تساهم إلا في

المزيد من الإفكار للسود الأعظم من الشعب، والمزيد من اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، والخنوع التام للرأسمالية الغربية.

- مليارات الدولارات التي ضختها الأنظمة العربية الصديقة لحكومة السيسي كانت مثل ماء في قربة مثقوبة، إذ أنها لم تذهب لمشاريع إنتاجية متوسطة وصغيرة تنتعش بها الطبقات الوسطى، ومن ثم تدفع الاقتصاد المصري برمته نحو التقدم والرخاء؛ ولكنها ذهبت لسد الفجوات بجهاز الدولة المترهل، خاصة في قطاعه الأمني من قوات نظامية وأجهزة أمنية تتحجج بأنها في حرب عالية التكلفة مع الإرهاب، ويجب أن تكون لها اليد العليا والنصيب الأكبر من موارد الدولة (المحلية والخارجية).

- وجدت حكومة السيسي التي انبثقت عن انتفاضة معادية للإخوان المسلمين، وجدت نفسها مضطرة للتعاطي مع نظام للإخوان المسلمين كامل الدسم، وهو النظام الحاكم بالسودان الجارالجنب؛ ولقد نجم عن هذا الوضع مواقف متناقضة ومرتبكة ومخاتلة في كثير من الأحيان، إذ لا مفر من تأمين المساندة السودانية لمصر في صراعها مع الدول الإحدى عشرة المشاطئة للنيل، وعلى رأسها إثيوبيا منبع النيل الأزرق وصاحبة "سد النهضة" الذي أشيع بأنه يشكل تهديداً مباشراً لحصة مصر من مياه النيل. وبينما تخطب حكومة السيسي ود الإخوان المسلمين السودانيين، يقود الإعلام المصري حملة للتجهيل والتشكيك في حق السودان في مثلث حلايب الذي احتله الجيش المصري عام 1995 (بعيد محاولة اغتيال حسني مبارك بأديس أبابا التي كان النظام السوداني ضالعا فيها)؛ بل تذهب تلك الحملة للتشكيك في حق السودان في الوجود كدولة مستقلة وذات سيادة، حيث أنه كان جزءاً من الممتلكات الخديوية في إفريقيا، وقد حان الوقت لاستعادته؛ أي أن يطول الحرب أخذت في الإلزام مستهدفة إثيوبيا، ولا سبيل لوصولها إلا عبر السودان.

- اتخذت حكومة السيسي مواقف مرتبكة أيضاً إزاء مشكلة "سد النهضة"، ولكنها في الغالب الأعم أرخت العنان للاتجاهات الشوفينية jingoistic والعدوانية التي

عبر عنها بعض أنصاف المتعلمين بالإعلام المصري؛ ويبدو أنها تخطط لهجمة عسكرية ربما تبدأ بالسودان، (حيث تستطيع المخابرات المصرية أن تدبر انقلاباً عسكرياً لصالحها كما فعلت في 25 مايو 1969 وأتت بضباطها في قيادته - نميري وخالد حسن عباس وبابكر عوض الله ومحمد عبد الحليم)، ممهدة الطريق للزحف نحو التخوم الغربية لإثيوبيا حيث يقبع سد النهضة على بعد عشرين كيلومتراً من الحدود السودانية. ولقد تبلور المخطط المصري في شكل عملية مخابراتية طفحت بها الصحف والفضائيات في الأسابيع القليلة الماضية، وهي ما قيل بأنها انتفاضة لشعب الأرومو رافضة لسد النهضة (تمهيداً للضربة الاستباقية التي ينوي الجيش المصري القيام بها لتدمير ذلك السد). إن شعب الأرومو أقل الشعوب الإثيوبية حظاً من التعليم والثروة، ولا يعيش في منطقة السد التي تحفها الجبال الصخرية الجرداء، ومن وسطها يتجه النيل بسرعة فائقة نحو مجراه الذي يشق السودان. ولا يعرف الأرومو شيئاً اسمه المظاهرات أو الموكب. ولقد أخذت أجهزة الإعلام لقطات لطواير الإثيوبيين أمام مراكز توزيع إغاثات الطعام التي وصلت إليهم بعد الموسم الزراعي الأخير الفاشل، ثم بثت تلك الصور على أساس أنها تظاهرات سياسية رافضة لسد النهضة، وهي إفك وفهلوة استخباراتية تدعو للضحك، بل تبعث على الشك في القوى العقلية لمروجيها.

إن المتتبع لمجريات الأمور بمصر خلال العامين المنصرمين لا يحس بأي وجود لتداعيات الانتفاضة الشعبية الكاسحة التي أرسلت الإخوان المسلمين إلى مزبلة التاريخ؛ فليس هنالك طرح فكري وإعلامي وأكاديمي متماسك للمنهج البديل المفترض، ولا يعرف الشخص المصري العادي شيئاً عن الفلسفات التي عرفتها البشرية التي تخلصت من الحكم الشيوعي واثوقراطية الكنيسة، ولا عن مفهوم المواطنة الذي يجعل القبطي مساوياً للمسلم في الحقوق والواجبات، والذي يستطيع بموجبه أن يترشح لرئاسة الجمهورية شأنه شأن المواطن المسلم. ولم تشهد الفترة الماضية صعوداً للحركة النقابية ومنظمات المجتمع، ولم نسمع بأي مؤتمر عام

لمثل هذه الكيانات التي تركز عليها الديمقراطية الحقيقية أكثر من الأحزاب. ويبدو لي أن الإخوان المسلمين الموجودين بحرز الحكومة وفي غياهب سجونها لهم أشباح تأتى في الظلام لترسل الرعب في نفوس كثير من المسؤولين المصريين، مثل قادة الأزهر الشريف الذين يلاحقون عالماً ومفكراً موضوعياً وذا إجازات عليا من غرب أوروبا مثل إسلام البحيري، وما كان له ذنب سوى رفع راية التجديد الديني الذي طالب به علماء الأزهر أنفسهم منذ محمد عبده حتى الآن.

أما فيما يختص بسياسة النظام المصري الخارجية، فهي تبعد بفراسخ عديدة عن ما كان يجسده الراحل جمال عبد الناصر أحد الآباء المؤسسين لمنظمة الوحدة الإفريقية، والزعيم الملهم لحركة الوحدة العربية. صحيح أن الظروف مختلفة، وأن التاريخ لا يكرر نفسه بالمسطرة؛ وصحيح أن النظام الناصري تعرض لحرق الأصابع عدة مرات جراء تدخلاته الخارجية، من فشل الوحدة مع سوريا والعودة منها عام 1961، وفشل التدخل في اليمن بعد حرب استمرت من 1962 إلى مؤتمر اللاءات الثلاثة بالخرطوم عام 1967 بعد النكسة، ومن فشل لغزو ليبيا الذي قام به أنور السادات عام 1977، ومن هزيمة نكراء في يونيو 1967 أمام الجيش الإسرائيلي.

على الرغم من كل ذلك، يظل عبد الناصر رمزاً للتضامن العربي والإفريقي، ولقد كان عدوه الأساس هو الإمبريالية الغربية وريببتها إسرائيل، ومن أجل التصدي لهذا التناقض الرئيس دعا الشعوب العربية والإفريقية للوحدة والتآزر مع بعضها البعض: (وحدة الهدف). أما أن تتجه الدولة المصرية الآن لحسم خلافاتها مع الجيران عن طريق الحرب والعدوان فذلك لن يعود عليها إلا بالخسران.

إن المتتبع لما يطفح به الإعلام المصري هذه الأيام من تحريض وتتمر وتهئية سايكلوجية للاعتداء على اثيوبيا، ربما عبر صفقة مع نظام البشير القابل للشراء تحت كل الظروف، لا يملك إلا أن يتفق مع رؤية شقيقي محمد عباس بأن ما حدث في مصر مجرد انقلاب عسكري، أتى للسلطة بضابط طموح ضئيل الثقافة السياسية وأداة طيعة في يد الجيش المتضخم والمرفود بالمؤسسة العسكرية الرأسمالية

الأخطبوطية، والمدعوم من الولايات المتحدة الأمريكية . وإذا صحت ذات يوم ووجدتم الجيش المصري على مشارف الحدود السودانية الإثيوبية، فلا تستغربوا؛ فقد فعلها السادات في 21 يوليو 1977 عندما توغل جيشه بمسافة مئتي ميل داخل الحدود الليبية، وبقي هناك لأربعة أيام كاملة قبل أن تجبره الأسرة الدولية على المغادرة في نهاية الأمر.

ما كان العشم أن تستحيل الثورة المصرية إلى ملك عضود، شأنها شأن البلشفية على يد جوزيف ستالين والبعثية على يد صدام والأسد، وشأن جماعات الإسلام السياسي التي حكمت بلداً كالسودان وطغت وتجبرت فيه، وأحالتة إلى بلقع يباب وأشعلت فيه نيران الفتن الطائفية والقبلية والمناطقية.

كان العشم أن تلهمنا الثورة المصرية بارتياحها فجراً جديداً تعلوه رايات العدالة الاجتماعية وكفالة الحقوق الأساسية، واحترام الجيران والسعي للتكامل والتعاون الاقتصادي معهم، وليس لتصفية الحسابات بالطرق العسكرية غير مضمونة العواقب.

وهكذا، فقد سرق الإخوان المسلمون انتفاضة الربيع المصري العربي في 25 يناير 2011، ويبدو الآن أن الجيش يتربص بانتفاضة 30 يونيو 2013 التصحيحية، بغية وضعها في جيبه وتجريدها من مضمونها التقدمي، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جننا.

ما نتفه التوم النتيفة

كتب الأستاذ التوم النتيفة بالصحف الإسفيرية يوم 6 الجاري مؤرخاً للحركة الشيوعية والديمقراطية السودانية بعنوان: (شيوعيون ووطنيون عصيون على النسيان)، كأنه يعني أن هناك من يمكن أن يشملهم النسيان حسب معياره الانتقائي، وأورد أسماء مؤسسي الشيوعية وحركة النقابات والمجتمع المدني واتحادات المزارعين منذ مطلع الأربعينات؛ غير أنه نسي أو تجاهل أسماء سطعت وتلألأت في تلك السموات وغاصت في وجدان أهل السودان، ولا أدري إن اهتدى في منهجه الانتقائي هذا بعقلية الأخ الأكبر BIG BROTHER في الدولة التوتاليتارية التي وصفها جورج أورويل في كتابه الموسوم "1984" - حيث كانت الدولة تسمح أسم أي مواطن معارض أو منشق من جميع الكشوفات الرسمية وغير الرسمية بما في ذلك سجلات المواليد والوفيات، ويصبح ذلك المواطن (لا شخص (NONPERSON).

على كل حال، أثارت في خاطري تلك القوائم التي أوردها النتيفة كثيراً من الذكريات الشجية لمناضلين أشاوس عرفتهم أو قرأت عنهم أو عملت مع بعض منهم في ساحات النضال الوطني، وعجبت كيف يغيب مثل هؤلاء الصناديد عن سجلات الشرف التي يحفظها التاريخ، اللهم إلا إذا قام على رصدها أشخاص غير موضوعيين وغير منصفين. ولقد تذكرت بعض الأسماء من الذين قضوا نحبتهم ومن الذين ما انفكوا ينتظرون، (والذاكرة قد أنهكتها وبرتها الخطوب التوالي، "ولقد تذكر الخطوب وتُسي" كما قال البحري، فمعدرة)، وأرجو أن يسعفنا الحادبون الآخرون

بالمزيد من مثل هذه النماذج، خاصة تلك المنزوية فى تلافيف الحركة الوطنية
التقدمية وبأرياف السودان النائية، إحقاقاً للحق وإنصافاً للخلق.

وأول أسم قفز لذهني هو الراحل مولانا القاضي الشرعي الرفيق حسن محمد بابكر البداني، من المحسن المقيمين ببيري، الذى أحيل للتقاعد الإجباري التعسفي على إثر أحداث 22/19 يوليو 1971 من وظيفته كنائب قاضي القضاة الشرعيين. ولقد كان مولانا حسن من الكوادر الملتزمة بالحزب الشيوعي منذ الأربعينات، وقد تخرج فى كلية غردون عام 1941، ومن الذين لم ينقسموا (أي من جناح عبد الخالق لآخر لحظة)، ومن مؤسسي حركة السلام وعضوا بسكرتارية هيئة السلام السودانية منذ بدايتها حتى وفاته. وقد تعرفت على مولانا البداني عندما كان قاضياً شرعياً فى سنار بنهاية الخمسينات، ثم جمعتني به ظروف النضال مرة أخرى عام 1970/1971 فى أروقة هيئة السلام السودانية وكافة الأنشطة التضامنية مع الشعوب المكافحة ضد الاستعمار. وكنت أزوره مع محمد مالك من آل بدري الذى عمل بسنار كذلك بأواخر الخمسينات، وكان يدير بوفيه مركز الشرطة حيث كان يخبئ المنشورات أيام دكتاتورية إبراهيم عبود؛ ولقد عاد محمد مالك للخرطوم وكان لديه بوفيه معروف بركن ميدان الأمم المتحدة الشمالي الشرقي المطل على الجامع الكبير. وكنا نذهب كل يوم جمعة "لنقىل" ونصلي بمسجد بري مع مولانا فى منزله الواقع بين منزل أسرة أبو القاسم هاشم من الناحية الشمالية، ومنزل أسرة أبو القاسم محمد إبراهيم من الناحية الغربية، (ولكن بينه وبينهما برازخ شاسعة من حيث الفكر والتوجه). ومن أصدقاء مولانا البداني البروفيسير عبد الله الطيب الذى التقيناه مرات عديدة بالمكتبة الأهلية جوار البنك التجاري التى أصبح مولانا يديرها بعد تقاعده فى يوليو 1971، كما قابلناه عدة مرات بمنزل مولانا عندما كان يأتى ليأخذه لمزرعته ببيري عصر الجمعة، وعندما توفى مولانا رثاه عبد الله الطيب بعصماء مطلعها:

(علي حسن سابكي خلي على حسن)

ولقد ضاعت منى، فأرجو أن يسعفني بها الأبناء النجباء حفظهم الله.

وعلى ذكر سنار، فقد وردت أسماء مولانا شيخ الخير ومحمد فضل الله كمؤسسين لإتحاد مزارعي النيل الأزرق، وعلى ذلك يشكر الأخ النتيفة؛ ولكن الصورة السنارية لا تكتمل إلا بذكر عيسى أحمد آدم (حكيم) سكرتير الإتحاد منذ تأسيسه فى مطلع الخمسينات ومسؤول سياسي فرع الحزب، وبذكر النجار عبد الرحيم عبد الرحمن وجمال حسين الموظف ببنك باركليز وزميله يحيى دفع الله. وبهذه المناسبة كذلك، لا بد من ذكر الشيخ العبيد عامر أحد مؤسسي ورئيس اتحاد مزارعي النيل الأبيض منذ بداية الخمسينات كذلك، ولقد كان هو والشيخ الخير عضوين باللجنة المركزية منذ المؤتمر الرابع؛ ولا بد من وقفة فى كوستى موطن شيخ العبيد لنتذكر شاعرها الفحل شابو أمد الله فى أيامه الذى كتب عن زحف الفساد وأحابيل الإفساد أيام دكتاتورية عبود بقوله:

(زمانك يافتى خرب، فكن يامهجتى خربا!)

ماذا تراه قائلاً اليوم عما نراه من فساد يتقاصر أمامه ما شهدته أيام عبود ونميري؟ كما لا بد أن نذكر من أهل كوستى المناضل المتقف مكي أبو قرجة الذى غيبه الموت مؤخراً، عليه رحمت الله.

ولقد ذكر النتيفة اثنين من المناضلين الأقباط الذين عملت معهم فى مجال السلام والتضامن، هما الراحلين فوزي التوم والدكتور سليم عيسى، ولكنه أورد أسم "صبري جسر" فى معرض رصده لرفاق الخرطوم بحري، بينما نسي أباه عثمان جسر أحد أهم مؤسسي الحركة النقابية العمالية، كما لم يذكر الراحل سعودي دراج. أما محمد عثمان جسر (صبري) الذى اختطفه المنون وهو فى ميعة الشباب فى مطلع سبعينات القرن الماضي، فقد كان شعلة من النشاط منذ عودته من البعثة الدراسية فى رومانيا، وقد زاملته فى (جمعية التضامن مع الشعب اليوناني) أيام كان ذلك البلد يمر بكابوس الدكتاتورية العسكرية؛ ولقد جلبنا فلم "Z" الذى يروى قصة نضال

اليونانيين ضد تلك الدكتاتورية، بمساعدة الراحل البروفيسير على المك ونادى السينما فى شتاء 1970، وأقمنا مهرجاناً دعونا له الموسيقار المناضل ميكى ثيودوراكيس واضع موسيقى فلم Z وكذلك فلم "زوريا الإغريقي"، واحتشد الزملاء أمام مدخل سينما كلوزيوم حاملين اللافتات المكتوبة باليونانية والعربية قبيل عرض الفلم الذى افتتحه ثيودوراكيس، بين هتافات الرفاق: (فيفا ديموكراتيكاً)، فسالت دمعتان على خد ذلك العملاق، وتكرر نفس الشيء فى الحفل الذى أقامته له جمعيتنا بالتعاون مع نادى السينما بداره بالقرب من جامعة الخرطوم، حيث غنى له عبد الكريم الكابلي.

ومن الشخصيات التي يتوجب ذكرها فى مجال العمل التضامني الأستاذة خديجة صفوت التى أسست معنا "هيئة التضامن الإفريقي" لتقديم كل المساعدات السياسية والمعنوية والدعائية الممكنة لحركات التحرر الإفريقية، وكان لها قصب السبق فى بناء الجسور مع العديد من تلك الحركات، بل ولقد واصلت جهودها بعد حصول تلك الدول على استقلالها وعملت ببعض جامعاتها، وصنفت كتاباً بعنوان "رسالة إلى بولين لوممبا"، ومئات الكتب والإصدارات الأخرى، وما زال عطاؤها متواصلاً بالجامعات الأوروبية والبريطانية.

ولقد عجبت لغياب أسماء ناصعة كانت من المؤسسين للحلقات الأولى للماركسيين، على الرغم من تحولهم لاحقاً للحركة الاتحادية، مثل المجاهد محمد أمين حسين وأحمد زين العابدين وعبد الماجد أبو حسبو ومحمد الحسن عبد الله يس وحسن عبد القادر، وغياب أول سكرتير لـ "مؤتمر الشباب" عام 1948، عوض محمد عبد الرازق، من أهالي الجابرية محلية الدبة، قبل أن يتحول أسم الحزب إلى "حستو"، وعمالقة آخرين مثل حسن الطاهر زروق وأحمد محمد خير (المعلم) والطيب حسب الرسول وعبد الوهاب بوب ومحمد سيد احمد صاحب مكتبة الفجر بمذني لاحقاً، وعبد القيوم محمد سعد والبروفيسير على محمد خير والبروفيسير شريف الدشوني والدكتور فاروق محمد إبراهيم والدكتور أسامة عبد الرحمن النور عليه رحمة الله،

وإبراهيم جاد الله وبرير حامد الأنصاري وآدم مهدي عليهم الرحمة، والدكتور محمد مراد أمد الله في أيامه. ولا بد أن نذكر في هذا المجال المناضل الأغبش الفذ يوسف عبد المجيد الذي كان من مؤسسي الحركة الشيوعية إلى أن انشق عنها عام 1963 مع شامي وعبد الرحمن منان وبعض الرفاق ليؤسسوا "الحزب الشيوعي القيادة الثورية" المتأثر بالثورة الصينية وبأفكار الرئيس ماو تسي تونغ، ولقد توجه يوسف للريف مصمماً على تطبيق الشيوعية في جميع تفاصيل حياته، وعلى محاولة بناء الهرم الثوري من أسفله وسط الكادحين أنفسهم، وكان بإمكانه أن يعمل في مجال الأعمال أو السمسرة الكمبرادورية بما له من علاقات أسرية وزمالية منذ أيام الدراسة في مصر، ولكنه اختار الطريق الصعب والشريف، فحاز على حواشة بمشروع "البساطة" واتخذ لنفسه اسماً حركياً (خالد) واختلط بالمزارعين في سعيه لتنظيمهم سياسياً، وكان معارضاً شرساً لكل الأنظمة الدكتاتورية التي حكمت السودان، وكلما يدخل الشيوعيون معتقل كوبر يجدون يوسف قد سبقهم إليه. واستقر به المقام في الثمانينات بحواشة في مشروع السوكي على مقربة من حنتوب، وأقام بمنزل متواضع في مدني كنا نزوره فيه أنا والرفيق الباشمهندس زكريا أبو جودة، وكان يوزع خيرات حواشته من خضروات على الأصدقاء والفقراء، كأنه ولي زاهد من أولياء الله الصالحين، حتى وافته المنية إثر حادث مأساوي بطريق كوستي الأبيض.

وزكريا أبو جودة هذا من أبناء سنار الوفيين لها، فقد كان من مؤسسي فريق النيل الرياضي، وتزعم مشروع بناء المدرسة الشعبية الوسطى بجهد الأهالي عندما كان المهندس المقيم لكهرباء سنار. وعندما اندلعت انتفاضة أبريل 1985 قطع زكريا الكهرباء عن الشبكة التي تنقلها للخرطوم، وتم اعتقاله وكان على وشك مواجهة محاكمة فورية خطيرة لو لا أن الانتفاضة تناهت إلى سنار، فسارت الجماهير الثائرة إلى المركز وأخرجت زكريا من المعتقل محمولاً على الأعناق.

كما استغرقت لاختفاء أسماء باهرة من قائمة مؤسسي الحركة النقابية مثل الراحل الحاج عبد الرحمن نائب رئيس اتحاد العمال وتاج السر محمد عابدون مؤسس وأمين عام نقابة عمال مشروع الجزيرة مع رفيق دربه إبراهيم محمد أحمد الشيخ رئيس تلك النقابة.

وكيف نتحدث عن الحركة النقابية ولا نتذكر المعلمين بكافة المراحل؟ فلقد عرفنا رجالاً كالشموس عملوا على تجميع المدرسين في العديد من النقابات الابتدائية والوسطى والثانوية والمدارس الشعبية، وتم تأسيس اتحاد المعلمين الذي يتألف من كل تلك النقابات والذي كان أمينه العام الراحل مكاوي خوجلي رئيس نقابة معلمي الوسطى، ولقد كان من أبرز مؤسسي حركة المعلمين النقابية محمد سليمان (صاحب "اليسار السوداني في عشر سنوات" وشقيق أحمد سليمان المحامي)، والراحل الشهيد مصطفى محمد صالح مؤسس ورئيس نقابة معلمي المدارس الشعبية (مع زميله علم الدين حمد النيل وزوجه المرحومة سميرة إسحاق) ورئيس رابطة المعلمية الاشتراكيين. وكان مصطفى أحد شهداء حركة 19 يوليو 1971 حيث كان مختفياً وداهمته آلام القرحة، فتم نقله سراً إلى الجناح الجنوبي بمستشفى الخرطوم، ولكن أحد نزلاء الجناح (وهو بصاص معروف) بلغ عنه لجهاز الأمن، فخفت زبانيته للمكان وانتزعوا الأنابيب من مصطفى وأخذوه عنوة لسرايبيهم حيث لقي حتفه على الفور. ومن أقطاب حركة المعلمين النقابية سيداحمد محمود وصالح خليل وصلاح إسماعيل وحسن عبد المنعم والدكتور محمد سعيد القدال، رحم الله من قضى نحبه منهم.

وإن أنسى لا أنسى رفاقاً كالمصاييح عطاءً ونضالاً متواصلًا حتى الرmq الأخير من حياتهم، هما إبنا عبري، الشاعر جيلي عبد الرحمن والدكتور فاروق كدودة، عليهما رحمت الله. فقد عاش جيلي معظم حياته خارج السودان، ما بين القاهرة حيث دار العلوم التي درس بها، وموسكو حيث أنجز الدكتوراة بجامعة طفق يحاضر بها حتى أقعده المرض، ولكنه ظل متواصلًا بشعره وقلمه وحضوره المعنوي مع بلاده

ومنفعلاً بهمومها وبقضايا الكادحين فى كل مكان، وهو الذى أنشد قائلاً عن شاعر
الثورة الإسبانية غارثيا لوركا الذى تم إعدامه عام 1936:-

(يالوركا!)
يا من أعجزت الناي
إنى أعجز عن كلمة،
ولما ساقوك إلى الأجمة....
كان صمتك أبلغ ما خلدت من كلمة.)

والذى كان يأتينا بخبر جيلي وشعره هو صديقي الراحل المقيم فاروق كدودة الذى
خلت منه قوائم النتيفة. ولقد فصل فاروق من جامعة الخرطوم لنشاطه السياسي
وعمل لفترة تحت الأرض فى تحرير "الشرارة"، ثم تسلل خارجاً إلى موسكو حيث
واصل دراسته بجامعة حتى الدكتوراة فى الاقتصاد، وعاد ليناضل فى كل الجبهات
الاقتصادية والأكاديمية والسياسية، وتم اعتقاله عدة مرات، وكان علماً تأتم الهداة
به. جعل الله بركة بلا حدود فى ابنته المناضلة ساندرا.

ومن الرفاق الذين علقت ذكراهم بمؤخرة دماغي (رغم أنى غادرت هذا التنظيم منذ
اثنين وثلاثين سنة) العزيز المناضل جوزيف موديستو الذى غادر الشمال ليصبح
زعيماً لحزبه الشيوعي الجديد بجنوب السودان؛ يا للحسرة وتشتيت الرجال وضياح
الوطن! وكان جوزيف قد تولى الصلات بمن تبقى من المناضلين الأفارقة بالخرطوم،
وهم أساساً ثوار الكنفو (زائير) من رهط باتريس لوممبا، وكان يأخذني لكل
مناسباتهم بالأحياء الشعبية التى أقاموا بها، خاصة الكدرو. وقد عهدته شخصاً
مثقفاً ومرحاً ومتواضعاً ووفياً لأصدقائه وخالياً من عقد البرجوازية الصغيرة ومجسداً
لوحدة السودان التى ظللنا وسنظل نحلم بها. أنعم به من مناضل جسور ووطني
غيور!

وكننت أود أن أتحدث عن شيوعيين ووطنيين جهابذة تخطاهم الأخ النتيفة، مثل عمر مصطفى المكي وابن عمته سيف النصر ميرغنى عقيد والدكتور الطاهر عبد الباسط... إلخ، إذ أنهم يستحقون الذكر لما قدموه حتى زمن (الانقسام)؛ بيد أنني لا أرغب فى الدخول فى جدل حول تلك المسألة.

عموماً، أرى أن كتابة تاريخ الحركة الثورية والتقدمية ليس بالأمر السهل، ويجب أن تتوفر عليه نخبة من الاختصاصيين والاحترافيين المحايدون حياداً إيجابياً، وليس كل من وجد أمامه فأراً ولوحة مفاتيح.

الأزمة السودانية المستفحلة

(ألا أيها الليل الطويل.... ألا انجل!)

كان لدي صديق عزيز من رجالات سنار وهو أصلاً من القطينة، المرحوم بإذنه تعالى معاوية عبد الواحد الخليفة الحسن، الذى توفى قبل بضع سنوات أثناء فترة عصيبة مر بها على يد حكومة الإنقاذ، تخللتها مطالبات ومطاردات لئيمة من مندوبى الضرائب والمصارف، وذلك بعد أن لفظته وانقلبت عليه الجهات التى كانت قد استقطبته للمؤتمر الوطنى، ثم حكمت بأنه قد احترق واستنفذ أغراضه بالنسبة لها؛ وكان المرحوم قد هجر حزب الأمة بعد أن كان أحد أقطابه فى سنار على الرغم من خلفيته الختمية، إذ كان أبوه وجده وعمه جعفر وعمه الطيب عليهم رحمة الله من كبار الخلفاء والاتحاديين بالقطينة وجبل مويه وسنار. ولقد التقيته فى مطلع التسعينات وسألته عن ذلك التحول غير المتوقع، فقال لي: (ياخي إنتو بتقولوا لينا الجماعة ديل ما حيقعدوا فى السلطة لأكثر من ستة شهور، والآن ليهم ست سنوات وأظنهم حيقعدوا ستاشر سنة؛ أنا صاحبي عنده فشل كلوى منذ 15 سنة وياهو داك أنصح من الحديد. بالله إنت وصاحبك عمر نور الدايم شوفو ليكم غراب جزوه.) عليهم رحمة الله جميعهم.

وظل أولادي وبناتي كذلك يتساءلون: (ألم تقل يا أبتاه إن هذه آخر سنة لنظام الإنقاذ؟). بيد أنى ما زلت أصر على أن الصمود فى وجه نظام الإخوان المسلمين بثبات هو الطريق الأوحى والأصوب؛ فلو "انكسرت" لهم وألقيت أسلحتك وطفقت تبحث عن رزق حلال بين ظهرائهم فى بلادك، لن تجد سوى المضايقات

والمماحكات والتكميم والمحاربة، إلا إذا كنت من طينتهم وعقيدتهم السياسية؛ ولو حاولت أن تتلون وتتماهى معهم تقيّة واتقاءً لشروهم فسوف تلقى مصير صديقي المرحوم، ومصير العديدين الذين لا أرضاً قطعوا ولا ظهراً أبقوا. فهذا نظام فاشستي فظ مؤسس على المفاهيم والممارسات الأمنية، ومن أهمها الشك حتى فى أقرب الأقربين، وفى كثير من الحالات يتحول ذلك التشكك الوسواسي إلى بارانويا باثولوجية، بل إلى انفصام شخصية متسريل بكاريزمية السلطان - مثل ذلك الذى أصاب كلاً من القذافي وعيدي أمين وجان بيديل بوكاسا وموبوتو سي سي سوكو فى أواخر أيامهم.

والسبب الآخر لمواصلة النضال ضد هذا النظام المستبد هو أن الظروف الموضوعية بالبلد والبنيات والهياكل والقوانين ما زالت كما هي منذ ست وعشرين سنة، وما زالت السلطة فى يد نفس العصابة، ومهما تغيرت مسميات التنظيم الحاكم فإن قاعه الصخري ما زال هو الحاكم الفعلي للبلاد، متمثلاً فى بضع كوادرات إخوانية عتيقة: د. إبراهيم أحمد عمر، د. نافع، على عثمان، مصطفى عثمان، عوض الجاز، أحمد إبراهيم الطاهر، أحمد عبد الرحمن، الفريق بكري، الفريق عبد الرحيم - كجنود النحل، أما الملكة القابعة فى جوف الخلية فهي البشير وزوجاته وإخوانه.

وليست لهذه العصابة إيديولوجية محددة وثابتة أو نظرية اقتصادية موسومة تهتدى بها، ولكنها تقفز من فنن إلى فنن ومن منبر إلى منبر ومن مدرسة إلى مدرسة، يحدوها هدف واحد: البقاء فى السلطة إلى أبد الآبدين لو أمكن. وهناك آليات مجرية لتحقيق هذه الاستراتيجية، ظلت مستخدمة طوال ربع القرن المنصرم، وهي:-

1. القمع والعنف المفرط تجاه الأفراد والجماعات المعارضة أو المتمردة، والاعتماد بشكل أساسي على أجهزة القمع والاستخبارات والمليشيات التى تستهلك معظم موارد الدولة.

2. التنازل عن الأرض **territory** حيثما استدعى ذلك إرضاء الخصوم الذين لا تجدى معهم الحرب، مثل الجنوب الذى ذهب للحركة الشعبية وجيشها، ومثل

- إقليم حلايب بالإضافة إلى الحيازات الشاسعة بغرب النيل بالشمال وبأواسط البلاد التي منحت للبرجوازيين المصريين لكسب جانب الحكومات المصرية المتعاقبة، ومثل الإقطاعيات الضخمة التي نصبت كشارك لبعض الدول العربية النفطية طمعاً في دولاراتها الزيتية، وفي وقوفها إلى جانب نظام الخرطوم، وفي إسكات أي أصوات للمعارضين السودانيين المغترين لديها.
3. الفت في عضد المعارضة وزرع الفت والانقسامات داخل صفوفها، وإشراك بعض منسوبيها في تورته السلطة بصورة هامشية، كنوع من الرشى، وبغرض تعميق الخلافات بين الحزيبات المتشاكسة التي تتألف منها قوى المعارضة المدجّنة المتهافئة على كراسي الحكم.
4. تكثيف البروبوقاندا وأنشطة العلاقات العامة وتبويض وجه النظام باستمرار عن طريق أجهزة الإعلام الحكومية وشبه الحكومية، مع الخنق والكتب لأي أصوات نشاز معارضة؛ والإكثار من المهرجانات الخطابية بمناسبة وبغير مناسبة، حيث يرقص ويخاطب الرئيس كتلاً مجلوبة من السابلة السانجة الحائرة، ثم تستخدم تلك المشاهد المصورة بواسطة الإعلام المحلي والإقليمي المتعاطف لإظهار الشعبية المتوهمة للنظام (التي لا مثيل لها إلا شعبية القذافي "ملك ملوك إفريقيا").
5. استخدام الكرت الإسلامي (أي الشريعة، مدغمسة كانت أو غير مدغمسة)، كغطاء يستميل به النظام الجماهير المسلمة بالسليقة، ويخيف به الخصوم لأنه يستصحب في معيته مفهوم "الحاكمية لله"، ويجعل من رئيس الدولة "أميراً للمؤمنين" ذا قدسية ولا ينطق عن الهوى، كما حدث للمشير نميري على إثر قوانين الشريعة التي أعلنها في سبتمبر 1983، حيث تمت مبايعته أميراً للمؤمنين، وكان على رأس المبايعين الشيخ حسن الترابي رئيس تنظيم الإخوان المسمين ومستشار رئيس الجمهورية في ذلك الوقت. ولا تتبع الدولة الإخوانية في السودان نموذجاً إسلامياً عرفه الناس من قبل، على الرغم من إعلانها مراراً وتكراراً بأنها لن تتخلى عن الشريعة: فهي لم

تسر على خطى الدولة الإسلامية الأولى، دولة الخلافة الراشدة؛ ولا هي اتبعت النماذج المعاصرة المتمثلة في المملكة العربية السعودية أو الجمهورية الإسلامية الإيرانية. فالدولة الإخوانية السودانية تتلمظ عموميات الشريعة وتهدد بما تحتويه من حدود ردية كل من يخالف قوانينها أو يبدى وجهة نظر لا يقبلها النظام. وفي نفس الوقت تعمل هذه الدولة العجيبة بدستور مدني علماني تم وضعه وإجازته عام 1998 ثم أعيدت صياغته عام 2005 وأضيفت له وثيقة حقوق الإنسان التي وردت مع اتفاقية السلام الشامل CPA وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من ذلك الدستور. وهكذا، فإن الدولة السودانية مصابة ب"انقسام دستوري" من نوع لم تشهده البشرية من قبل، فلا هي علمانية مدنية ودولة مواطنة كما ينص دستورها، ولا هي تحت نظام ثيوقراطي واضح المعالم، إذ يبدو أن ذلك من الصعوبة بمكان في بلد متعدد الإثنيات والثقافات والأديان، ويحكمه رجل لا يتمتع بأي حظ من العلوم الفقهية ولم يتخط تعليمه المرحلة الثانوية ثم التدريب العسكري لمدة عام واحد بالكلية الحربية. (وعلى كل حال، يبدو أن النموذج الأقرب للنظام الشيزوفريني الراهن هو حكومة المهديّة : 1885 - 1898).

6. تجويد فن الحوار اللّج "المستدام" مع الخصوم السياسيين؛ فعندما تزايدت الضغوط المحلية والإقليمية والدولية على النظام، ولما تفجرت الثورات من حوله ضد الطواغيت المشابهين في تونس ومصر واليمن، ابتكر النظام سلسلة متشابهة من الحوارات المتزامنة والمتداخلة والمعقدة مع كثير من الجماعات الحاملة للسلاح، بوساطات قطرية وإفريقية؛ ثم تفتقت عبقريته عن "الحوار الوطني" الداخلي، ذلك المهرجان المستطال باهظ التكلفة الذي دعا له أسراب الحزبيات المتعددة والمتحالفة معه أصلاً. ويستهدى النظام في كل ذلك بنظرية رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إسحق شامير الذي كان ينوى أن يتفاوض مع الفلسطينيين بكل أريحية وصبر لعشرات السنين - وبينما يدغدغ أحلامهم بإقامة دولتهم المصادرة منذ نكبة 1948، تتوسع

وتترسخ المستوطنات اليهودية على الأرض المتنازع عليها؛ ولقد ظل نظام الإخوان المسلمين يتفاوض مع كافة شرائح المعارضة منذ قدومه للحكم، عبر كافة السيناريوهات والمنابر، دون الوصول لصيغة تحكم بها البلاد على أرضية من التوافق والتعايش والاستيعاب لكل الفصائل والإثنيات والمناطق والاتجاهات السياسية التى يتألف منها السودان.

ما هو المخرج؟

لقد ابتدع نظام البشير حيلة جديدة لإطالة عمره وكسب أراضي لدى القوى الأساسية بالمنطقة: مصر والعربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، وذلك بادعائه التخلي عن فكر الإخوان المسلمين وعن حلفه مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية، بل صار ملكياً أكثر من الملك وقطع علاقاته الدبلوماسية مع إيران تضامناً مع السعودية بسبب ما حدث لسفارتها بطهران. ولا أدري ماذا سيفعل هذا النظام إذا عادت المياه إلى مجاريها بين هذين البلدين الكبيرين، خاصة بعد أن دخل الغرب على الخط وشرع في الاستثمارات الضخمة بإيران (حتى تعود المليارات التي كانت مجمدة وأطلق سراحها، حتى تعود لمستقرها بالبنوك الغربية حيث كانت)، على إثر العقود الهائلة ذات الأرقام الفلكية التي تم إبرامها مع الحكومة الإيرانية في الأيام القليلة الماضية. وبقدر ما يرضى الغرب عن إيران، بقدر ما سوف تتصرف بمعقولية واعتدال يناسب هذا الدور الجديد؛ وبالتالي فإن الصورة برمتها في الشرق الأوسط خاضعة لتعديل ما، وربما ينجم عن ذلك ردم للهوة بين إيران وجيرانها العربيات النفطيات، خاصة بعد الزيادة الخيالية التي سوف يشهدها إنتاج النفط الإيراني؛ فلا أقل من أن تتصالح الدول النفطية الشرق أوسطية حتى تتعاون بسلسلة داخل منظمة أوبك، وحتى ترعى مصالحها الدولية بصورة أكثر اتساقاً وحكمة وتوحداً إزاء الدول الغربية وغيرها من الزبائن المشتريّة للنفط والغاز.

ومن ناحية أخرى، فلقد ثابت العديد من المنابر والأقلام في تذكير دول المحور المعادي للإخوان المسلمين بأن نظام البشير ليس بالبراءة التي يدّعيها، فهو على أحسن الفروض طابور خامس سينقل خبرهم للأعداء، وهو على كل حال يسوم نفسه على الدوام لمن يدفع أكثر؛ كما كشف النظام عن نواياه بسرعة فاقت التصور، فما كاد يرسل قواته المشاركة في عاصفة الحزم (وهي مغامرة تهدف من جانبه لإلهاء الجيش السوداني عن أي تفكير في انقلاب عسكري بالخرطوم، وتضمن لحفنة من الضباط والجنود رواتب مجزية تكلفت بها الدول الصديقة، وعتاداً وأزياء جديدة، والتعامل بآليات وأسلحة حديثة، كأنهم في فترة تدريبية خارج البلاد)، ما كادت هذه القوة تأخذ مكانها بالأراضي اليمنية حتى خفّ القادة السودانيون للعواصم المعنية بحرب اليمن لاستلام الدفعيات (البيرزات)، كأنهم يبيعون الماء في حارة السقاين، إذ أن هذه الدول تعرف جيداً كيف ينهب القادة السودانيون مقدرات بلادهم و يحولونها إلى قصور وشقق وحسابات بالمصارف البعيدة عن متناول باقي الشعب المستغيث.

وأذكر أنني التقيت مديراً لمركز بحوث بدبي قبل عامين وسألني: (كيف تصرون على أن هذا النظام إخواني بينما هو ينفي عن نفسه هذه التهمة ليل نهار، وبالقنوات الرسمية وغير الرسمية؟ فقد تحدثت إلى السفير أحمد يوسف محمد الذي قال لي: "نعم كنا إخوان مسلمين، ولكن المفاصلة التي حدثت عام 1999 كان فحواها أن الإخوان المسلمين غادروا السلطة مع رئيسهم حسن الترابي، وما بقي من كوادر بالمؤتمر الوطني هم العلمانيون المعادون للإخوان المسلمين"). فقلت له إن هذه فرية، وشرحت له بعض الأمثلة السودانية (من نوع "إذا تابت صانعة خمر العرقي وتركت بيعه، فإنها سوف تصفّي المريسة")، وغير ذلك مما لا يليق ذكره هاهنا ولكنه لا يخفى على فطنة القارئ. وحدثته عن القوانين القمعية والممارسات الجائرة في حق المعارضة (العلمانية) والوجود الإخواني الراسخ بدولاب الدولة والمؤسسات والمصارف والمنظمات المسموح لها بالعمل والجامعات والأجهزة الإعلامية. إن الإخوان المسلمين ليسوا فقط ذلك العدد الضئيل من الكوادر التي

خرجت مع الترابي وأسست حزب "المؤتمر الشعبي"؛ هذا مجرد رأس جبل الجليد الذي يغوص باقية في تلافيف الدولة العميقة منذ أيام التمكين الأولى عندما سطا هذا التنظيم على السلطة عام 1989م. فقال لي ذلك الأستاذ: (نحن نعرف كل ذلك، وهم لا ينظرون على أحد، ولكني أردت أن أشهدك على مدى استخفافهم بعقول الآخرين، وعلى محاولاتهم الدؤوبة لتسويق أكاذيبهم للأصدقاء والأعداء بكل سذاجة).

عموماً، لقد انهارت كل الأقنعة التي يتستر خلفها نظام الخرطوم، وليس أمامه إلا أن يخرج بمليشياته للطرقات ليحصب شباب السودان المعارض بالرصاص الحي shoot to kill ، ويدمر البلاد كما ظل بشار الأسد يفعل بوطنه منذ خمس سنين؛ أو يذهب عن طريق انقلاب عسكري أو تدخل مسلح مثل محاولة الدكتور خليل إبراهيم وحركة العدل والمساواة التي كادت أن تنجح في مايو 2008م؛ أو يتبنى النظام خطأ واضحاً وجاداً للحوار مع المعارضة، كما فعل دهاقنة الأبارثايد بجنوب إفريقيا مع حزب المؤتمر الإفريقي بقيادة نيسلون مانديلا في مطلع التسعينات، إلى أن توصلوا لانتخابات 1994 التي جاءت بالزعيم مانديلا رئيساً لجنوب إفريقيا السوداء والبيضاء.

آخر الكلام:

على كل حال، ليس هنالك في الأفق ما يشير لتزحزح النظام عن قناعاته التي ظل متشبثاً بها لست وعشرين سنة؛ وكل ما أوردناه عن إمكانية الحوار مع المعارضة قد يكون مجرد أحلام يقظة و wishful thinking. فليس هناك ما يحفز العصبية الحاكمة على التنازل عن امتيازاتها وتعريض ثرواتها للخطر بعد أن راكمتها عبر السنين، وليس في تاريخ البشرية سابقة لطبقة إقطاعية أو برجوازية تنازلت عن نعمائها طائفة مختارة، إنما تم ذلك على الدوام عن طريق الثورات السلمية أو

الدموية أو الاثنين معاً. وحتى المثل الذي ضربناه عن التحول السلمي في جنوب إفريقيا، كان في الواقع تكتيلاً لنضال سلمي ومسلح دام لأكثر من ثلاثين عاماً؛ ولقد اتخذ الكفاح ضد نظام الأبارتايد عدة أوجه:-

1. كانت هناك تفجيرات استهدفت البنية المؤسسية من شبكات للطاقة وخلافه، كما استهدفت التكنات العسكرية، وفي نفس الوقت توالى الإضرابات العمالية والتظاهرات الطلابية الراكضة بالشوارع على أنغام الأغاني الثورية والأناشيد.
2. وبينما كان مانديلا والعديد من قادة المؤتمر نزلاء بسجن جزيرة روبن منذ 1965، هاجر معظم الباقين لينظموا المعارضة السياسية في لندن وغيرها من العواصم الغربية، حيث كانوا يصرون العديد من الدوريات مثل **The African Communist** والكتيبات والإصدارات والمنشورات، وقيمون الندوات والمهرجانات التضامنية بالتعاون مع الحركات النقابية والأحزاب التقدمية ومنظمات حقوق الإنسان.
3. ولقد كان من نتائج تلك الحملات الدعائية اكتساب الرأي العام الأوروبي والأمريكي والدولي لصالح الموقف الإفريقي، وضد نظام الفصل العنصري بجنوب إفريقيا؛ ونتيجة لذلك صدرت قرارات المقاطعة الاقتصادية ضد حكومة الأبارتايد ليس فقط من الحكومات الغربية، ولكن من الأمم المتحدة نفسها ومن كافة المنظمات الدولية والإقليمية مثل منظمة الوحدة الإفريقية وجامعة الدول العربية.

وعلى هذا المنوال، فإن عناد حكومة البشير وإصرارها على التثبيت بالسلطة، مع المراوغة والتمويه والكذب في تعاملها مع المعارضة، يجب أن يقابله سلاح واحد، وهو وحدة الهدف ووحدة الصف بالنسبة لقوى المعارضة، والتأسي بالنماذج الرائدة الناجحة مثل ثورة السود في جنوب إفريقيا، واستبطان تكتيكاتها الذكية التي مكنتها من القضاء على أقوى دولة على نطاق القارة الإفريقية. يجب أن تتحول الهياكل الحالية مثل قوى التحالف ونداء السودان والجبهة الثورية إلى تحالف شبيه

بالمؤتمر الإفريقي الذي كان يضم الشيوعيين والوطنيين وكافة المعارضين لنظام الأبارتايد تحت راية واحدة: وهي الكفاح ضد دولة الفصل العنصري والمطالبة بالصوت الواحد لكل مواطن، أبيضاً كان أم أسود: **ONE MAN ONE VOTE**، إلى أن فككوا ذلك النظام البغيض وأقاموا دولة المواطنة والديموقراطية الحقيقية.

وبمثل هذه الوحدة تستطيع المعارضة السودانية أن تضع نهاية لنظام البشير في زمن قياسي. وفى نهاية التحليل، لا مفر من الصمود أمام هذا النظام المشوه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، ذاكرين البيت المنقوش على شاهد ضريح صديقي المرحوم الباشمهندس حسن بابكر الحاج بمقابر الشيخ فرح ود تكتوك بشرق سنار:

قف دون رأيك فى الحياة مجاهداً إن الحياة عقيدة وجهاد

وما قال أبو الطيب:

كالحات... ولا يلاقى الهوانا

غير أن الفتى يلاقى المنايا

فمن العجز أن تموت جبانا

وإذا لم يكن من الموت بد

رسالة إلى المناضل عمر الدقيير

عزيزي الباشمهندس عمر،

كدتُ أطير من الفرح لفوزك الكاسح برئاسة حزب المؤتمر، على الرغم من أنني كنت أحس بها منذ مغادرتك غير المتوقعة لأبوظبي في مطلع العام المنصرم، إذ كنت أدرك بأن هناك من يعرف قدرك ومن سيضعك في المكان اللائق بك؛ بيد أنه فرح يظله إشفاق عليك من الأمانة التي حملتَ بينما عجزت عن حملها الجبال، وهو إشفاق لم يدم طويلاً لما تذكرت عمر الغضنفر الصنديد، واسع الصدر طويل البال، الذي يجأر بالحق عندما يطأطئ الآخرون هاماتهم طمعاً في دنيا زائلة أو اغتراب يجعل منك مجرد عمالة رخيصة، أو خوفاً من جلاوزة الأمن؛ ولما تذكرت أن بناء الحركة الديمقراطية التقدمية والعمالية والفلاحية كانوا في أعمار تقل عن نصف عمرك وعمر المناضل إبراهيم الشيخ الآن، فعندما تفتقت أكمام الحزب الشيوعي مستظلاً بـ "الجبهة المعادية للاستعمار" عام 1946 وبدأت أول نقابة للعمال في عطبرة "هيئة شؤون العمال" عام 1947 كان مهندسوها - عبد الخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ وقاسم أمين والجزولي سعيد وإبراهيم زكريا - في الطاشرات teenagers والعشرينات من أعمارهم: (ولد عبد الخالق عام 1927 وولد الشفيع عام 1924).

ولقد فرح بكم وبحزبكم وبمؤتمركم الخامس كل الوطنيين السودانيين المناوئين للحكم الدكتاتوري الراهن، كما شهد بذلك ممثلوهم الذين أتوا من كل فج عميق وخطبوا مؤتمرهم التاريخي بأشخاصهم أو عبر الفيديو كونفرنس. وتؤكد يا أخ عمر أن شعبنا يعول عليكم كثيراً رغم تركيزكم على فئة الطلاب والشباب ومثقفي الأسافير، فالمسرح جاهز أمامكم والأبواب مشرعة لكي تنفذوا منها إلى جميع إثنيات وطوائف

وفئات وطبقات المجتمع، كما فعلت الحركة التقدمية منذ بواكيرها. وقد شاخت الأحزاب الأخرى وتكلسّت وزهرمت وشبعت انشطاراً أميبياً، وفعلت بها دكتاتورية الإخوان الأفاعيل بالرشى والإفساد والتلويح بالإشراك فى الغنائم، أو بالتدجين والبطش والكبت وقطع الأرزاق والملاحقة، فتحوّلت إلى شرانم من الـ **zombies** الرومبيات (البعايت)، وإلى هرة تحكى انتفاخاً صولة الأسد. فما هي هذه الأحزاب التى أفرزتها الحركة الوطنية منذ النضال ضد المستعمر، مروراً بالومضات الديمقراطية المبتسرة والمجهضة بانتظام: 1958/1954 و 1964/1969 و 1985/1989، وما تخلل ذلك من فترات مقاومة للدكتاتوريات العسكرية؟

1. حزب الأمة:-

منذ تأسيسه عام 1945، كان شعاره الأساس هو (السودان للسودانيين)، وأبلى بلاءً حسناً فى مقاومة المخططات الخديوية المصرية الساعية لإدراج السودان تحت التاج المصري، إلى أن تكلّل نضاله بعود الحزب الغريم - الوطني الاتحادي - عن فكرة الاندماج فى الجار الجنب، وبالإعلان التوافقي للاستقلال من داخل البرلمان فى ديسمبر 1955. بيد أن حزب الأمة بلغ الطعمة الاستعمارية الهادفة لخلق طبقة برجوازية محلية صنواً للطبقة الحاكمة فى بريطانيا، فتبنت الإدارة البريطانية أبناء القادة المهديين وبيوتات الإدارة الأهلية، وقدمت لهم حداً أدنى من التعليم وأردفتهم بالوظائف الدنيا فى جهاز الدولة، ثم منحتهم الإقطاعات الشاسعة على ضفاف النيلين الأبيض والأزرق ليزرعوها قطناً طويلاً التيلة كانت مصانع يوركشاير متعطشة له، بقروض حسنة من الحكومة وتسهيلات مصرفية، وبعمالة رخيصة مجلوبة من دار فور وكردفان - من أبناء الأنصار وأعضاء حزب الأمة القاعديين **the cannon fodder**؛ فانقسم الحزب إلى طبقتين منذ نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات: أصحاب المشاريع من جانب، والمزارعون والعمال الزراعيون من

الجانب الآخر. ولقد تجلّى ذلك الاستقطاب فى (حادث عنبر جودة) عام 1956 الذى قال عنه الشاعر صلاح أحمد إبراهيم:
(لكنهم رعا،

من الرزيقات...من الحسينات...من المساليت،
من الحثالات التى فى القاع،
من الذين انغرست فى قلوبهم براثن الإقطاع،
وسملت عيونهم مراود الخداع،
حتى إذا ناداهم حقهم المضاع
عند الذين حولوا لهائهم ضياع
واستلموا مجهودهم قطناً، وسَلّموه داء.)

فى ذلك العنبر القمى بمركز شرطة جودة بضواحي كوستى استشهد 194 مزارعاً اختناقاً، كما اغتالت الشرطة خمسة مزارعين آخرين جاءوا كغيرهم محتجين سلمياً على عدم صرف استحقاقاتهم المتراكمة منذ عدة مواسم، وكان صاحب مشروع جودة هو عبد الحافظ عبد المنعم ابن أكثر رجال الأعمال شهرة وثراء فى ذلك الزمن، وكان جده قاضياً فى المهديّة، رغم أنه من أصل مصري، ولم يكن عضواً فى حزب الأمة، بينما كانت جميع المشاريع الخاصة المجاورة بالنيل الأبيض ومعظم مشاريع النيل الأزرق (بمساحة إجمالية تبلغ ستمائة وعشرين ألف فداناً) ملكاً للأمرء والسادة قادة حزب الأمة، باستثناء حفنة إقطاعيات ذهبت للآخرين: مشروع كساب للسيد على الميرغني ومشروع أم بنين للدكتور سيد أحمد عبد الهادي ومشروع آخر لعلي الأزهرى وشركائه. (ولقد ترقّع عن هذه الغنائم أحد أهم مؤسسي حزب الأمة وهو عبد الرحمن على طه، الذى رفض عرضاً من السيد عبد الرحمن المهدي برئاسة الحكومة، وبعد انقلاب 1958 أثر أن يذهب لقريته أربجي من أعمال الحصاصيصا، كي يفلح أرض أبيه وجده العمدة طه، وبها عاش حتى توفاه

الله عام 1969. كما ترفع عن هذه الغنائم كل من محمد احمد محبوب وأمين التوم وعبد الله نقد الله).

وهكذا، فقد انشطر حزب الأمة إلى نصفين، أحدهما يستغل الآخر ويبني مجده الاقتصادي والسياسي على أكتافه. وفي النصف الأول من الخمسينات دخلت البلاد في أزمات اقتصادية بسبب بوار القطن وكساد تجارته بعد اكتشاف النسيج الصناعي **synthetic**، ولم تجد الطبقات الحاكمة بداً من الإثراء على حساب الخزينة العامة (بالرخص التجارية والتسهيلات المصرفية والفساد الحكومي... إلخ)، واستمر هذا الامتصاص البرازيلي طوال الفترات الديمقراطية، وزادته الأنظمة العسكرية ضغطاً على إباله، فكانت مجرد وجه آخر لنفس العملة.

كما ظهر عامل جديد أربك الصفوف داخل الحزب وعمق الفتن الإثنية وساهم في مفارقة أزمة الجنوب، وهو الإسلام السياسي الذي جلبه الإخوان المسلمون للساحة بعد ثورة أكتوبر 1964، والذي صادف هوىً في نفس الصادق المهدي ونفر من مثقفي الستينات، (كما صادف هوىً في نفس المخابرات المركزية الأمريكية باعتباره ترياقاً فعالاً ضد الشيوعية، بل أكثر الأسلحة فتكاً بها في الشرق الأوسط)؛ وفي هذا الإطار برزت الدعوة للدستور الإسلامي الذي كاد برلمان 1968 أن يجيزه لو لا القوميين العرب الناصريين والشيوعيين الذين قطعوا عليه الطريق بانقلاب 25 مايو 1969. ومنذ تلك الأيام تناقص نفوذ حزب الأمة وفت في عضده الإنقسام داخل أسرة المهدي الذي خرج منه حزيان: الأمة جناح الصادق، والأمة جناح الإمام الهادي؛ وظل فاقداً لبوصلته - فلا هو يميني تقليدي يقوده الكولاك والسماصرة، ولا هو حزب إسلامي كامل الدسم كالإخوان المسلمين؛ ولا زالت البلبلة السياسية والفكرية تكبل خطاه، فبينما تجد رئيس الحزب معارضاً للنظام الإخواني ولاجئاً بمصر، تجد ابنه مساعداً لرئيس الجمهورية، وابنُه الآخر ضابطاً عظيمًا بجهاز أمن الدولة رديء السمعة. أما فيما يختص بالعضوية القاعدية **rank-and-filers** فقد تناثر معظمها في الحركات الحاملة للسلاح بدار فور وجنوب كردفان، أو في الدياسبورا، أو (ببيوت الكرتون) بهوامش الحواضر السودانية كادحين إلى الله كدحاً.

2. الأحزاب الاتحادية:

تكوّن الحزب الوطني الاتحادي بمنزل الرئيس المصري اللواء محمد نجيب ذي الأصول السودانية عام 1952، جامعاً للأحزاب الاتحادية (أي الداعية للوحدة مع مصر)، وفاز بأول انتخابات قبيل الإستقلال (53/1954)، وبعد عام واحد فقط انقسم إلى حزبين: الشعب الديمقراطي والوطني الاتحادي، وأصبح بينهما ما طرق الحداد؛ ثم توحدوا بعد ثورة أكتوبر 1964 تحت مسمى الاتحادي الديمقراطي. ولقد نشأ هذا الحزب بسواعد المثقفين الوطنيين لحمة وسدى مؤتمر الخريجين، ولكنهم تسربلوا بالكسل السياسي الذي أودى بهم وبحزبهم في نهاية الأمر، وهو الارتهان للطائفية، أولاً في اتجاه السيد عبد الرحمن المهدي ومؤسسته الأنصارية، ثم في اتجاه السيد علي الميرغني راعي طائفة الختمية، ولم يتوجها صوب القاع الصخري للحركة الوطنية المتمثل في النقابات العمالية والفلاحية التي شبت عن الطوق واستوى عودها مع نهاية الأربعينات، إذ حسبوا أن الطائفية سوف تجلب لهم الدوائر المضمونة في أرياف الشمال والشرق وبعض مناطق الوسط، بالإضافة لدوائر الكبايش المعروفة بشمال كردفان.

وكانت الطامة الكبرى بالنسبة لهذا الحزب المدني العلماني تنكّره لمبادئ الديمقراطية التي شرحها مؤسسه اسماعيل الأزهري في مصنفه (الطريق إلى البرلمان)، ولقد تجلّى ذلك التنكر للديمقراطية في مشايعته، بل تبنيه لحملة الإخوان المسلمين ضد الحزب الشيوعي عام 1965، حتى قرر البرلمان حل ذلك الحزب وطرد نوابه بأغلبية ساحقة، (باستثناء نائب اتحادي واحد هو الراحل الباشمهندس حسن بابكر الحاج). ثم ارتدى الحزب الاتحادي أكثر وأكثر في أحضان اليمين الإخواني، وسأيره في لجنة الدستور التي اقترحت دستوراً إسلامياً ثيوقراطياً لحكم السودان، مما دفع النواب الجنوبيين للإنسحاب من تلك اللجنة، ومما دفع حركة التمرد الجنوبية لرفع سقف مطالبها من مجرد الحكم الذاتي الإقليمي إلى حق تقرير المصير الذي أدى لانفصال الجنوب عام 2011. إذن، وعلى الرغم من أن "القورو" الأخير الذي صنع

الانفصال هو نظام الإخوان المسلمين، إلا أن الإتحاديين وحزب الأمة كانوا قد وضعوا اللبنة الأولى لهذا الاتجاه الشوفيني التقسيمي السلبي منذ منتصف الستينات. وفي نهاية التحليل، فقد الحزب الإتحادي بوصلته كذلك واستبد به التشويش. ولقد جرت محاولة على يد الشريف حسين الهندي لإرجاعه صوب منابته الديمقراطية العلمانية أثناء نضاله ضد ديكتاتورية النميري، ولكن يديه كانتا مكتوفتين إلى حد ما بحلفه مع حزب الأمة والإخوان المسلمين (في الجبهة الوطنية)، ولكن يحمد له أنه لم يذهب معهما لآخر المشوار، وذلك بفرضه المصالحة التي تمت بينهما وبين النظام عام 1977، والتي تهافت بموجبها الإخوان و حزب الأمة وألقوا سلاحهما وانخرطا في نظام شمولي فظ لم يتنازل قيد أنملة عن ممارسات القمع والفساد التي دعتهم لمعارضته أول الأمر.

بيد أن الشريف حسين لقي ربه في المنفى عام 1982، وآل أمر الحزب للطائفية من أوسع أبوابها، إذ أصبح رئيسه هو راعي طائفة الختمية السيد محمد عثمان الميرغني. وعلى الرغم من خلفيته الطائفية، وقف مولانا السيد محمد عثمان موقفاً وطنياً شجاعاً بتوقيعه مبادرة أديس أبابا للسلام في 16 نوفمبر 1988 مع رئيس الحركة الشعبية الدكتور جون قرنق، التي تأمر عليها الإخوان المسلمون وأجهضوها تماماً باختطافهم للسلطة بعدها ببضع شهور. كما وقف السيد محمد عثمان موقفاً وطنياً ناصعاً آخرًا برئاسته للتجمع الوطني الديمقراطي الذي حمل راية النضال ضد ديكتاتورية الإخوان المسلمين، وأعلن عزمه على اقتلاعها من جذورها، وأصدر إنذاره الحاسم لها: (سلم تسلم) - مباشرة بعد مؤتمر أسمر للقطايا المصرية في يونيو 1995.

ولكن الإخوان المسلمين كانوا من المكر والخبث بمكان، إذ توصلوا لصلح منفرد مع الحركة الشعبية الجنوبية، أحد أهم ركائز التجمع الوطني، في نيفاشا عام 2005؛ وكانوا قد عقدوا اتفاقاً إنفرادياً مع حزب الأمة في جيبوتي عام 1999 عاد بموجبه ذلك الحزب وانخرط في نظام البشير الدكتاتوري تماماً كما فعل مع النميري عام 1977م. فما كان مما تبقى من فعاليات التجمع الوطني الديمقراطي، الحزب

الإتحادي والحزب الشيوعي، إلا أن يلحقوا بالركب عن طريق اتفاقية يونيو 2005 بالقاهرة التي عادت بموجبها آخر فلول التجمع للخرطوم وأصبحت جزءاً من أجهزة الحكومة التنفيذية والتشريعية، وهو الأمر الواقع حتى اليوم، بشكل أو بآخر. و كنت قد كتبت رافضاً لتلك الترتيبات، مذكراً بالنشيد الذي كان يتغنى به الشيوعيون في الخمسينات أثناء المقاومة لمشروع آيزنهاور والنقطة الرابعة والمعونة الأمريكية وكافة المخططات الإمبريالية:- (أخي إن رضينا بأحلافهم، وحيل النضال إلى البرلمان، فإننا نبارك أحلافهم، ليهتك أعراسنا الأمريكان).

ولا يختلف الموقف الراهن للحزب الإتحادي عن رصيفه حزب الأمة، إذ يجلس السيد حسن الميرغني إبن رئيس الحزب بالقصر الجمهوري كخيال مآته أو ربما رهينة حتى يعود السيد محمد عثمان من لندن التي استقر بها منذ عامين؛ و لا يخالجني أدنى شك في أن السيد محمد عثمان يكره الإخوان المسلمين كراهية التحريم، و لكن يبدو أن في فمه ماء، وغالباً ما يكمن السر في تهديد مبطن بإعادة مصادرة الممتلكات أو بالتصفية الجسدية، مثلما فعلوا مع نائب رئيس الحزب علي محمود حسنين الذي آثر الهجرة إلى سوانزي بويلز حيث تقيم كريمته، وبما أنه لا يملك ما يخشى عليه في السودان من أنفس وممتلكات فقد استمر في التواصل مع الشعب عبر النت ومن خلال المقابلات التلفازية والبيانات الشاجبة لنظام الخرطوم (من باب القحة ولا صمة الخشم). وثمة زعيم اتحادي آخر لم يفلح النظام في استمالته أو إفساده أو تدجينه، هو البطل حاتم السر علي، وبضعة مناضلون آخرون أسأل الله لهم السلامة والصمود. أما فيما عدا ذلك، فقد أصبح الحزب الاتحادي نسياً منسياً.

3. الحزب الشيوعي :-

منذ بروزه للسطح بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، وبفضل عبقرية آباهه المؤسسين وعلى رأسهم عبدالخالق محجوب، ارتبط الحزب الشيوعي، منذ أن كان اسمه حسنو (الحركة السودانية للتحرر الوطني)، بالطبقة العاملة المتحالفة مع

الفلاحين، ودفع بكوادره الشابة منذ 1945 نحو التجمع العمالي الأكبر في عطبرة، ونحو الريف ممثلاً في مشروع الجزيرة ومشاريع النيلين الأبيض والأزرق، بل كانت هناك خلايا شيوعية بجمال النوبة حيث بدأت زراعة القطن قصير التيلة بالأمطار، وخلايا أخرى في شمال وشرق السودان، بالإضافة لمريدي وأنزارا بجنوب السودان حيث شيد الإنجليز مصنعاً للغزل. ومنذ ذلك الوقت المبكر تغلغل الشيوعيون في الحركة الطلابية وسيطروا عليها من خلال تنظيمهم الجبهوي المرن (المؤتمر) ثم "الجبهة الديمقراطية"، كما جندوا شباب المدن في "اتحاد الشباب"، والنساء في "الاتحاد النسائي" الذي قادتته منذ ولادته فاطمة طالب والدكتورة خالدة زاهر سرور وفاطمة أحمد ابراهيم؛ ولقد أسس الشيوعيون وأصدقائهم "هيئة السلام السودانية" والعديد من المنظمات الداعية للتضامن مع الشعوب المكافحة من أجل الاستقلال منذ الأربعينات حتى بداية السبعينات، وبالتحديد حتى وقعت المصيبة الكبرى المسماة حركة 19 يوليو 1971، التي ارتد عليها النميري بعد ثلاثة أيام وأعدم قادتها ورموز الحزب ووضع نهاية مؤسفة للحركة الديمقراطية والنقابية بشكلها المعروف حتى ذلك التاريخ.

لقد تعايش الحزب الشيوعي مع الديمقراطية اللبرالية واستبطن قوانينها وثقافتها، وقرر أن يتطور نحو السلطة بالطرق المشروعة السلمية و(بالعمل الصبور الدؤوب)، ويضرب مدايمكه في أعماق المجتمع بالتى هي أحسن وبالمثاقفة والحجة والمنطق، وبتبني قضايا الجماهير الحياتية وإبرازها عبر الأنشطة النقابية القانونية: العرائض والشكاوى القضائية والعمل الدعائي والمسيرات السلمية والإضراب عن العمل (وعن الطعام في المعتقلات). ولكن فجأة طغت على الحزب روح البرجوازية الصغيرة التي كثيراً ما حذر منها عبد الخالق، وبالتحديد عندما كانت شريحة من ل م بقيادة أحمد سليمان تخطط مع القوميين العرب لإنقلاب 25 مايو 1969، عندما خاطب عبد الخالق محجوب اجتماع اللجنة المركزية في مارس 1969 قائلاً: "فهى - أي البرجوازية الصغيرة - لا تسير بالثورة فى خط مستقيم، وتعرضها لانتكاسات جمة بما تعانيه من تذبذب واستعجال للسلطة". وعلى الرغم من ذلك،

وافق الشيوعيون على انقلاب مايو فى آخر لحظة، موافقة مشوية بالتحفظ، وشاركوا فى مجلس ثورته (بالعقيد بابكر النور والراند هاشم العطا)، وفى مجلس وزرائه بأربعة من أعضاء ل م (محبوب عثمان وجوزيف قرنق والدكتور موريس سدره وفاروق أبو عيسى).

وكان ذلك خطأ تكتيكياً قاتلاً، (وموفقاً لا يختلف عما فعله الإخوان المسلمون لاحقاً بإنقلاب 30 يونيو 1989 على الرغم من أنهم - أي الإخوان المسلمين - ممثلون فى البرلمان بثلاثة وخمسين نائباً، ولهم وجود واضح بالإعلام والشارع والحركة الطلابية). ولكن، جاءت القشة التى قصمت ظهر البعير بعد انقلاب مايو بعامين، وهى حركة 19 يوليو (التصحيحية). ولقد وضعت تلك الحركة نهاية مأساوية للحزب، ولا داعي للخوض فى تفاصيلها، فقد طفت بها الأسافير. بإختصار، قد يكون الباعث لتلك الحركة ليس فقط تهافت البرجوازية الصغيرة، إنما تنفيذ حلقة أخرى من حلقات المخطط الأمريكى الرامى لتحطيم أحزاب شيوعية معينة بالعالم الثالث لها كاريزمية واستقلالية وضعتها فوق الأحزاب التى فى السلطة، كالحزب السوفيتى الذى لطخت الستالينية سمعته لدرجة بعيدة، وهى بالتحديد حزب تودة الإيرانى الذى تكفلت به السى آى إي والإم آى سكس، ومعه صديقه الدكتور مصدق، عبر إنقلاب 1953؛ والحزب الشيوعى الإندونيسى الذى تمت تصفيته بالكامل، ومعه صديقه أحمد سوكارنو، عام 1967؛ ثم الحزب الشيوعى السودانى عام 1971؛ ثم الحزب الشيوعى التشيلى ونظام سلفادور ألندي بعد ذلك بعام. ومما لا شك فيه أن نظام أنور السادات كان ضالعا فى إجهاض حركة 19 يوليو، وكان ذا صلة وثيقة بالمخابرات الغربية ومنفذاً لتعليماتها.

وعلى كل حال، سقط النموذج الشيوعى كنظام للحكم بسقوط حائط برلين، وبالثورات الشعبية المخملية عام 1989/1991 التى أطاحت بحكومات الأحزاب الشيوعية فى بولندا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبلغاريا والإتحاد السوفيتى ورومانيا ويوغسلافيا، ولم تبق إلا كوبا، كأنها جزيرة روبنسن كروزو، وكوريا الشمالية كآخر نموذج يدل على خطر الشيوعية عندما تتحول إلى ملك

وراثي عضود، وفيتنام الشمالية والصين اللتا دخلتا في شراكة مع الرأسمالية الأمريكية، واستطعمتا النمو الإقتصادي الرأسمالي مع ما جلبه من استقطاب إجتماعي كانت الشيوعية قد تخلصت منه. وهما على كل حال في مفترق طرق، وغالباً ما ينصهران عبر آليات السوق (دينهما الجديد) في النظام الرأسمالي العالمي، ويصبجان تحت رحمة الدولار والمؤسسات المالية الأمريكية، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جئنا.

أما ما تبقى من الحزب الشيوعي السوداني، فهو مجموعة بسيطة من المناضلين الشرفاء الشجعان، حداة النضال ضد الدكتاتورية الراهنة، ولكن تنقصهم الرؤية التي كان يتنفس بها الحزب في غابر الزمن: الحركة النقابية وال جماهيرية. وحيث أن معظم الأحزاب الشيوعية في العالم قد غيرت أسماءها وتبنت الإشتراكية الديمقراطية Social Democracy فإن الشيوعيين السودانيين سيفعلون ذلك من خلال مؤتمريهم القادم في الغالب الأعم، حتى يتأقلموا مع حقائق العصر وينفتحوا على الجماهير مرة أخرى، ويستقطبوا القوى الوطنية المدركة لمآلات الصراع الطبقي ومزالق التطور الرأسمالي غير المستأنس، والملتزمة بقضايا الكادحين. وعند ذاك، كما أرى بعين رأسي، سوف ينشأ تحالف استراتيجي معكم، ومع الحزب الإتحادي الديمقراطي إذا تمكن من عقد مؤتمره واستطاع أن يفرز قيادة من طراز الشريف حسين الهندي - على غرار التحالف الذي جمع حزب الأحرار البريطاني مع المنشقين من حزب العمال عام 1981، والذي انصهر في حزب واحد عام 1988 يسمى The Social Democratic Party – SDP.

الكرة في ملعبكم:-

لم يشمل التوصيف أعلاه أحزاب الإسلام السياسي لأنني لا أعتبرها أحزاباً، بل هي جسم غريب على الديمقراطية oxymoron كالحزب النازي الألماني والفاشي الإيطالي اللذين تم منعهما من ممارسة أي نشاط سياسي بعد الحرب بموجب

الذساتير الديمقراطية الجديدة. وعلى نفس المنوال، وكما حدث فى مصر بعد ثورة 30 يونيو 2013، فإن الأحزاب الدينية سوف تشطب من قائمة الأحزاب المشروعة. إنني أختلف مع ما قلته لأحد الصحفيين الذى حاورك البارحة، بأنكم لا ترون ما يمنع الإسلاميين من ممارسة العمل السياسى فى إطار الترتيبات المزمعة؛ وأرى أن هذا الموقف ربما أملتة الظروف التى ما زلتم تعانون منها بالداخل، وأنتم فى عس الدبابير، أو جحر الثعالب. بيد أن الحقيقة التى يتعين على السياسيين السودانين وعلى هؤلاء الإسلاميين إدراكها هي أنه لا مكان لهم من الإعراب فى النظام الديمقراطى، فلقد أثبتت التجارب أنهم يأتون بالفتنة الطائفية والمذهبية التى تنسف نسيج المجتمع، وأنهم يستفيدون من معطيات الديمقراطية ثم ينقلبون ضدها، وقد يفوزون فى الانتخابات بما لهم من زخم إعلامى وشوكة إقتصادية ودعم لا ينضب من بعض القوى بالشرق الأوسط، وربما من المخابرات الغربية؛ وما أن يتسمنوا السلطة حتى يسعون لتغيير قواعد اللعبة وتحوير الدستور لضمان البقاء فى كرسي الحكم إلى أبد الآبدين، كما حدث فى مصر. وتأتى هذه الأحزاب الإسلامية بمفهوم "الحاكمية لله"، فتنصب رئيساً يتحول إلى خليفة للمسلمين، ويصبح التعرض له بالنقد فتنة وزندقة تؤدى للعقاب الصارم (الذى قد يكون قتلاً وصلباً).

إن ما حدث فى مصر يتطابق مع نظرية فرانسيس فوكوياما (نهاية التاريخ)، ورغم أنه كان يتحدث عن أوروبا فيما بعد إنهيار الأنظمة الشمولية بشرقها، وانضمام معظم الدول المنعقة من حلف وارسو إلى حلف الأطنطى، إلا أن مصر فيما بعد 30 يونيو معنية بهذا المفهوم كذلك؛ وبقدر ما تترسخ فيها الديمقراطية، ويتم توطين الدستور المدنى الديمقراطى فى أرض الكنانة، بقدر ما ستبخر أحلام الإخوان المسلمين بإقامة دولة الخلافة فى المحروسة، وبقدرا ستذروها الرياح؛ ولا مفر أمامهم إلا أن يبحثوا عن إسم وفلسفة جديدة للحكم لا تقصى أحداً ولا تعامل أصحاب الديانات الأخرى كأهل ذمة، أى مواطنين من الدرجة الثانية، يدفعون الجزية وهم صاغرون.

لقد سقط الفكر الإخواني كما سقطت الشيوعية (وليس الاشتراكية) والبعثية وكافة أنواع التوتاليتارية. والنماذج التي ما زالت حية وتقف شاهداً على فشل هذه الإيديولوجيات هي كوريا الشمالية بالنسبة للشيوعية كنظام حكم، ونظام الإخوان السوداني، والدولة الداعشية بسوريا والعراق وبإقليم سرت في ليبيا، ومحاولات القاعدة بتمبكتو شمال مالي وبوكو حرام في الشمال الشرقي لنيجيريا. ولن تجد القوى التقدمية غريباً ينازعها السلطة على نطاق الإتحادات الطلابية أو على نطاق الحكم، غريباً يسمى الإتجاه الإسلامي، بعد اليوم.

أما الأحزاب التقليدية الأخرى كالأمة والإتحادي فإنها كحزب الأحرار البريطاني الذي ساد الساحة في انجلترا طوال القرن التاسع عشر، وأصبح رئيسه قلاستون (ت1894) رئيساً للوزراء أربع مرات، وأنجز دولة الرفاهية Welfare State؛ ولقد جاء حزب الأحرار للحكم في الفترة 1908-1916 بقيادة أسكويث، وخلفه ديفيد لويد جورج حتى عام 1922، وبعد ذلك تضاعل نفوذ حزب الأحرار ولم يعد لرقم عشرة داوننق ستريت" حتى اليوم، إذ فاز بستة مقاعد فقط عام 1950. ولقد حل محله بجدارة حزب العمال منذ 1922 وأصبح يتبادل رئاسة الوزارة مع حزب المحافظين إلى يومنا هذا.

آخر الكلام:-

قد تبرز أحزاب في منحنيات تاريخية معينة لتلبي احتياجات فرضتها الظروف، ثم تضمحل وتختفي مع ظهور تيارات وأحزاب جديدة أقرب إلى وجدان وثقافة ومصالح الأجيال الصاعدة. ومن هذا المنطلق فإن كثيراً من السودانيين يرون فيكم وفي حزبكم خميرة مناسبة للقوة السياسية المرشحة للاضطلاع بالمهام التي تواجهها الحركة الوطنية في هذا المنعطف. ولن يتحقق ذلك بالطبع ما لم تنتشروا وسط الجماهير، مستصحبين تجربة حستو والحزب الشيوعي في الأربعينات والخمسينات،

ومستفيدين من الأخطاء التي صاحبت تلك المسيرة والتي أقعدت الأنظمة التي جعلت من الشيوعية إيديولوجية للانفراد بالحكم ورفض الآخر حتى لو كان معهم في نفس الخندق. إن شعبنا قد أصابته التخمة من الإيديولوجيات ومن الديماغوجيين الذين يمارسون الهندسة الاجتماعية لصياغة الإنسان بصورة جديدة، فيعكفون على التفاصيل التافهة الذاتية كعدم شرعية فستان هذه المرأة أو طول لحية ذلك الرجل، كغطاء للممارسة الظلامية الحقيقية التي تدور خلف الكواليس، وهي الإثراء على حساب مقدرات الدولة، وإشاعة الفساد والمحسوبية والقبلية والشوفينية والانحطاط الثقافي والأخلاقي. إن شعبنا يحتاج لمن يأخذ بيده نحو العلاج والتعليم المجاني وسد الرمق وفرص العمل، على طريق التقدم الاقتصادي والتحول الاجتماعي، فوق أرضية الشفافية وحرية التعبير والعدالة الحقوقية والمعايشة السلمية بين كل الإثنيات والمناطق التي يتألف منها السودان، بما في ذلك الجنوب الذي يتوق أهله للعودة (للسودان الجديد)، كما يتوق أهلنا في الشمال لرتق الفتق ولم الشمل مرة أخرى بإذنه تعالى.

وفقمك الله وسدد خطاكم بحق أسمائه وأنبيائه وأوليائه الصالحين.
والسلام.

مخلصكم الفاضل عباس

إيران فوق بركان

كان هذا عنوان أول كتاب صنفه محمد حسنين هيكل مراسل (آخر ساعة) آنذ بإيران في مطلع الخمسينات، عندما كانت في أوج التوتر على خلفية الصراع بين الدكتور محمد مصدق وحزبه (الجبهة الوطنية) وحلفائه حزب تودة الماركسي وملاي "قم" بقيادة آية الله كاشاني والنقابات العمالية من جانب، وبين الشاه محمد رضا بهلوي ورهطه المدعومين من قبل شركة النفط الإيرانية البريطانية AIOC الخاضعة تماماً لشركة البترول BP بريتيش بتروليم، ومعها جهاز المخابرات البريطانية MI6، من الجانب الآخر. وعلى الرغم من أن الكتاب صدر عام 1951 إلا أنه لم يقع في يدي بالسودان إلا عام 1956 كأول كتاب سياسي قرأته في حياتي. ومنذ ذلك الوقت المبكر تنبهنا للحركة الثورية الإيرانية باعتبارها قيمة مضافة محتملة لشقيقتها حركة التحرر الوطني العربية، بما لدى الحركتين من قواسم مشتركة - النضال ضد الاستعمار بكافة تجلياته الاحتلالية والاقتصادية والاحتكارية والاستخباراتية، والتأثر بالظلال الساقطة من الثورة الاشتراكية الماوية التي حققت انتصارها في الصين عام 1949، ومن الحركة الوطنية الإندونيسية بقيادة أحمد سوكارنو التي حققت استقلال بلادها عام 1945 بعد يومين من نهاية الحرب الكونية الثانية، ومن الحركة الوطنية الهندية التي كللت نضالها بالاستقلال عام 1947. ذلك هو المحيط الجغرافي/ السياسي الذي كان يحف بإيران.

ولقد تتابعت الأحداث في إيران بسرعة مذهلة بعد انتخاب الدكتور مصدق رئيساً للوزراء بأغلبية البرلمان الساحقة في 28 يناير 1951، فدخلت حكومته على الفور في حوارات ومفاوضات مضنية ومطوّلة ومعقدة مع الشركة الأنجلو إيرانية (التي

يملك الجانب البريطاني أكثر من 90% من أسهمها منذ تأسيسها عام 1913)،
علماً بأن النفط الإيراني هو أول نפט تدفق بالشرق الأوسط في عام 1915. وقد
استندت حكومة مصدق في حيثياتها على سابقة أرامكو السعودية التي كانت تتقاسم
إيرادات النفط مع الجانب السعودي بنسبة 50% لكل منهما، بفضل حكمة وشجاعة
ودهاء وإصرار الملك عبد العزيز آل سعود. بيد أن الإنجليز رفضوا التنازل قيد أنملة
للمفاوض الإيراني. ودخل الأمريكيان على الخط بدعوى مكافحة الشيوعية، إذ تم
تصنيف دكتور مصدق كشيوعي، كما حدث بالنسبة لجمال عبد الناصر لاحقاً، لأنه
دافع عن حقوق شعبه القانونية، ولأنه شرع في تنفيذ برنامج للإصلاح الزراعي تم
بموجبه نزع شرائح من إقطاعيات الأرستقراطيين الكولاك، وتم توزيعها على الفلاحين
الإيرانيين العاملين فيها كأقنان وعمال سخرة؛ كما شرع في تطبيق العلاج المجاني
على منوال برنامج الـ National Health الذي طبقتة حكومة حزب العمال
البريطانية إثر فوزها بانتخابات 1946 بعد الحرب الثانية مباشرة؛ وشرع كذلك في
تحسين أوضاع العمال بصفة عامة. وعند ذاك وضع الرئيس الأمريكي الجديد دوايت
آيزنهاور ووزير خارجيته المستر جون فوستر دالاس مليون دولار تحت تصرف
شقيقه ألان دالاس مدير السي آي إي من أجل زعزعة حكومة مصدق ودرجتها
نحو الانهيار.

ولما استيأس مصدق من سلاح التفاوض، قام بتأميم شركة AIOC في أول مايو
1951 (الذي صادف يوم عيد العمال العالمي)، وفي أكتوبر من عام 1952 قطعت
إيران علاقاتها الدبلوماسية مع المملكة المتحدة، فاتحة بذلك ثغرة ولج منها
الأمريكان، وقامت السي آي إي بالتنسيق مع الـ MI6 البريطانية بإنفاذ (عملية
أجاكس) التي أدت لإسقاط حكومة مصدق في مارس 1953، وتم اعتقال الدكتور
مصدق وحكم عليه بالسجن ثم بالحبس في مدينة نائية حتى وفاته عام 1967،
كما تم إعدام وزير خارجيته الوطني النزيه الجنرال حسين فاطمي. ومنذ تلك اللحظة
حتى سقوطه عام 1979 أصبح الشاهنشاه رضا بهلوي الدكتاتور الأوحده والمنفذ

بالحرف للمخططات الأمريكية؛ هذا ولقد تضاعل النفوذ البريطاني، و"سحلبت" الشركات النفطية البريطانية نحو مناطق أخرى بالشرق الأوسط.

بيد أن المؤسف بحق وحقيق أن المخابرات الأمريكية استمالت قادة الشيعة أمثال كاشاني وابنه، بعد غسيل أدمغتهم بأن الجبهة الوطنية التي تزعمها مصدق ليست إلا مجرد واجهة للشيوعية، فهي حليفة لحزب توده الذي ألصق به الأمريكان تهمة العمالة للإتحاد السوفيتي؛ وأصبح ابن كاشاني أحد رموز العهد الجديد الذي جاء بعد حكومة مصدق.

والمؤسف أيضاً أن حركة الملالي بقيادة أية الله الخميني التي وجدت نفسها بعد ذلك بعقدين في مربع المعارضة لنظام الشاه، قلبت ظهر المجن للإرث الوطني المصدقي، ولم تستلهم الخط الوطني الذي جسده مصدق وحزب الجبهة الوطنية، الهادف للإصلاح الاجتماعي والتقدم الاقتصادي تحت رايات الديمقراطية الحقيقية، وبيارادة الجماهير الحرة التي جاءت بالجبهة الوطنية للحكم مرتين على أساس انتخابات نزيهة وشفافة خاضتها أحزاب متعددة، وعلى أساس الموقف الوطني الواضح في وجه مؤسسات الاحتكار الغربية والإمبريالية، وهو الموقف الذي كان سيقرب الملالي من حركة التحرر الوطني العالمية، ومن الأنظمة والأحزاب والتيارات التقدمية المعادية للاستعمار والمساندة للشعوب المحتلة والمستضعفة - وليس للتنظيمات الخارجة من بردة الاستخبارات الغربية مثل الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية والبعث السوري، الذين سقط الملالي في قبضتهم منذئذ.

والمؤسف حقاً أن أية الله الخميني لما سئل عن خططه للإصلاح الاقتصادي ولتحسين معيشة الجماهير بعد سقوط الشاه، رد قائلاً: (إن الثورة الإسلامية لم تتفجر لتحدد سعر البطيخ). ومنذ أول أيامها رفعت ثورة الملالي الشعارات المتطرفة والطائفية الديماغوجية، لا لتحقيق دولة العدالة الاجتماعية العمرية (نسبة لكل من سيدنا عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما)، إنما لتكريس السلطة في يد قائد ديني (ولاية الفقيه) لا يسأل عما يفعل لأنه معصوم ومقدس،

ولأنه مندوب الإرادة الإلهية إلى الأرض، ومن ينتقده يقتل ويصلب. فأصبحت الدولة مهووسة بالسطوة الأمنية وبالشوكة العسكرية، وأنشأت "الحرس الثوري" على نسق الـ SS النازي الألماني، وسخرت موارد الدولة لتسليح وتضخيم القوات المسلحة، تماماً كما فعل الشاه الذي كان يتمتع بثالث أكبر جيش في العالم الثالث - (ليحارب به من، الله ورسوله أعلم!). وعندما اندلقت الجماهير لشوارع طهران في ثورة 1979 تبخر جيشه وحرسه الملكي والسافاك كأنها فقاقيع صابون، وتفرقت بطانته كالفئران المذعورة.

واستمراراً لسياسات الشاه التوسعية المستوحاة من العهود الفارسية الساسانية، لم يصحح أو يشجب الحكام الجدد احتلال إيران للجزر الإماراتية الثلاث، طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى التي احتلها جيش الشاه عام 1971، بل ظلت إيران مأكثة بهذه الجزر حتى يومنا هذا، رافضة لأي مفاوضات دبلوماسية بشأنها، ولأي وساطة إقليمية أو دولية، ولأي تحكيم تقضي به المؤسسات المعنية، مثل محكمة العدل الدولية.

وبما أن حكومة الملالي حسبت نفسها الممثل الشرعي الأوحد لطائفة الشيعة في العالم، فلقد شرعت في تحريض و تجنيد الأقليات الشيعية ببعض أطراف الشرق الأوسط، علّها تستطيع بالتعاون معها أن تبني إمبراطورية فارسية جديدة ظاهرها المدّ الشيعي وباطنها النوايا التوسعية الإمبريالية المحضة، في القرن الحادي والعشرين. وبالمناسبة، تجمع دوائر المعارف على أن الشيعة يعادلون 7% سبعة بالمائة فقط من المسلمين في العالم، وربما يكتشف الساسة الإيرانيون في يوم من الأيام أن تمترسهم داخل المحارة الشيعية قد عزلهم عن باقي المسلمين في الشرق الأوسط (باستثناء جيبين في العراق وسوريا وجنوب اليمن)، وفي إفريقيا التي لم تسمع بالشيعة، وفي كيانات مسلمة ضخمة ومعافاة بإندونيسيا وماليزيا والهند وأواسط آسيا، وبخمس جمهوريات إسلامية خرجت من عباءة الإتحاد السوفيتي بعد تصدعه، أوزبكستان و كازخستان و طجيكستان... إلخ.

ولقد مدّ النظام الإيراني الإسلامي يد العون لجماعات الإخوان المسلمين هنا وهناك، وقاموا بتدريب كوادرها في معسكرات الحرس الثوري (مثل نافع علي نافع وقطبي المهدي ومجموعة الإسلامويين السودانيين)، ودعموا نظام الإخوان المسلمين الذي سطا على السلطة في السودان عن طريق انقلاب عسكري، وأجزلوا له المال والسلاح والعتاد وشيّدوا له صناعات التسليح الحربي، وشاركوا في مغامراته الجهادية بالجنوب بطائراتهم بأطقمها وأسلحتها الفتاكة مثل الخرذل والقنابل العنقودية. ولقد انكشف المغطى في الأيام القليلة الماضية عندما طالبت الحكومة الإيرانية بنصيبها في شركة النفط السودانية الأساسية بتروناس، وبتعويضها عن استثماراتها الهائلة في مصانع الأسلحة التي شيدتها بالسودان؛ كما فجرت قنبلة أخرى مدوية عندما كشفت أن حكومة السودان تحتفظ بأهم وأكبر المعسكرات لتدريب متطوعي داعش. والسؤال هو: منذ متى ظلت الحكومة الإيرانية تمتلك هذه المعلومات؟ ولماذا انطوت عليها، بينما تدعى في العراق أنها على استعداد لدعم الجهود العراقية والدولية لمحاربة تنظيم داعش ودولته في شمال غرب العراق؟ هل حاميتها هو حراميتها؟

لقد ثبت للقاصي والداني أن إيران تدعم الأقلية الحوثية في اليمن من أجل إقامة دولة شيعية بذلك البلد المسكين، على الرغم من أنهم لا يزيدون عن 10% من السكان. كما تدعم إيران الأحزاب الدينية والشيعية المتطرفة بالبحرين علّها تتمكن من إيجاد رأس جسر بالضفة الغربية للخليج تستطيع أن تنطلق منه، وتلتئم بالأقليات الشيعية بالمنطقة، متوجهة إلى باقي شواطئ الخليج الغربية - ومن ثمّ كافة أرجاء الجزيرة العربية. وموقف إيران التخريبي بسوريا منذ خمس سنوات يشهد به العالم كله. أما في العراق، فلقد كان من نتيجة تدخلهم أن صديقهم المالكي الشيعي ظل رئيساً للوزراء لعقد من الزمان، وفي أول التحام لجيشه مع جماعة داعش في الموصل، هرب ضباطه وجنوده من ميدان المعركة كحمر مستنفرة فرّت من قسورة، تاركين سلاحهم وعتادهم وحتى أحييتهم للدواعش، كأنها مسرحية ركيكة وسيئة الإخراج تهدف لدعم الدولة الإسلامية الداعشية (الشيعية) وزرعها في ذلك

الصقع النائي الغني بالنفط، كحصان طروادة، أو كوفد مقدمة للشبيعة الإيرانيين الذين سيلتئمون معها في الوقت المناسب.

هذا هو محور الشر الذي تتزعمه إيران والذي أخذ في الزحف شيئاً فشيئاً للتوسع بالشرق الأوسط. ولقد برز محور بديل بقيادة المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، مستتبساً في التصدي للمخططات الإيرانية وفي إحباط مؤامراتها التي تجلت حتى الآن في البحرين واليمن وسوريا وشمال وغرب العراق. وتحمل السعودية مؤهلات باهرة لقيادة هذا المحور الوطني الإيجابي، وللسير به نحو الدفاع عن الدول العربية واحترام سيادتها واستقلالها، ونحو القضاء على السرطان المذهبي المنطلق من إيران، الساعي للدمار والخراب والفتنة وابتلاع أراضي الآخرين:-

1) كانت السعودية هي الملاذ الذي لم يجد غيره جمال عبد الناصر بعد نكسة حزيران 1967، بعد أن كان يحاربها في اليمن لأكثر من خمس سنوات، إذ تم الصلح بينه وبين الملك فيصل رحمهما الله في الخرطوم إبان مؤتمر اللاءات الثلاثة الذي انعقد في شتاء ذلك العام، وعلى الفور ضخت السعودية مائة مليون دولار للمجهود الحربي المصري، و ضخّت مثلها تقريباً كل من الكويت وأبوظبي (التي مثلها الراحل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، عندما كانت إمارة، فيما قبل الاتحاد).

2) وكانت السعودية هي القوة التي أجبرت مجلس الأمن الدولي على التدخل في لبنان لوقف الغزو الإسرائيلي لها عام 1982 والذي أوشك أن يقضي على ياسر عرفات ومنظمة تحريريه عن بكرة أبيها؛ وبفضل الوساطة السعودية بالدرجة الأولى توقف الجيش الإسرائيلي عند مشارف بيروت الغربية، معقل "فتح"، و تمكن الوسطاء السعوديون من إخراج المقاتلين الفلسطينيين المحاصرين البالغ عددهم خمسة عشر ألفاً - ومن توزيعهم بين تونس والسودان وسوريا والأردن.

3) وكانت الوساطة السعودية هي التي جمعت الأطراف اللبنانية المتحاربة من المسيحيين الموارنة والمسلمين السنة والشيعة والدروز منذ عام 1975، جمعهم في الطائف عام 1989 وألقت بين قلوبهم، فخرجوا باتفاقية سلام لا زالت سارية المفعول، (غير أن حزب الله والتدخل الإيراني أوشكا هذه الأيام أن يعودا بلبنان للحرب الأهلية).

4) وبادرت السعودية برفض الغزو العراقي للكويت في أغسطس 1990 وتزعمت الجيوش العربية التي حاربت كتفياً بكتف من القوات الأمريكية والأوروبية حتى تم طرد جيش صدام حسين من الكويت عام 1991م.

5) وظلت السعودية دوحة وارفة للاستقرار والسلام مما جعل حركة الحج مستمرة منذ الأزل حتى اليوم، بلا أي مخاطر أمنية تواجه ملايين الحجاج الذين يأتون من كل فج عميق كل عام، بالإضافة للمعتمرين، ولم تحدث أي تفرقة أو عرقلة للقادمين لأداء هذه المناسك. ولك أن تتصور ما كان يحدث لو كان الحج إلى إيران أو إلى العراق أو سوريا أو السودان تحت حكم الإخوان! كما ظلت السعودية تستقطب المهنيين والفنيين والعمال من كل أرجاء الوطن العربي، بغض النظر عن خلفياتهم الإيديولوجية والسياسية والإثنية، وكذا الحال في باقي الدول العربية الخليجية وعلى رأسها الإمارات العربية المتحدة، حيث وجد السودانيون الفارّون من دكتاتورية البشير وقبلها دكتاتورية النميري، وجدوا ملاذاً آمناً احترم آدميتهم وحفظ لهم كرامتهم ومكّنهم من كسب رزق شريف ومن تنشئة أطفالهم في بيئات عربية مسلمة ومسالمة وبدوية النكهة والسمت.

6) وتصدت السعودية ومعها الإمارات والكويت لدعم الثورة المصرية التي أطاحت بالإخوان المسلمين في 30 يونيو 2013، وضخت هذه الدول الثلاث عشرين مليار دولار للحكومة المصرية خلال العامين المنصرمين، وهذه أريحية لا مثيل لها منذ قديم الزمن؛ وليست المسألة كرم حاتمي

ونخوة عربية، ولكن ثمة حسابات سياسية دقيقة وذكاء استراتيجي يهدف لتدعيم المركز المناوئ للمحور الشيعي الإيراني المتحالف مع تنظيم الإخوان المسلمين الدولي؛ ولقد وضح من خلال التحقيقات الأخيرة في البحرين أن إيران ما انفكت تعمل لزعزعة الأنظمة الخليجية، وأنها تعتمد في هذا المسعى على الخلايا الإخوانية والإرهابية النائمة ليس في البحرين وحدها، إنما بكل دول المنطقة.

(7) ولقد ضربت السعودية مثلاً للدول النفطية العربية الأخرى في الوعي واليقظة وفي التمسك بحصتها العادلة والمشروعة من عائدات النفط، وفي الانضمام لمنظمة أوبك التي كانت ولازالت ترياقاً للأخوات السبع **The Seven Sisters**، وهي الشركات النفطية الاحتكارية العابرة للحدود التي كانت تتحكم في إنتاج وكوتات وأسعار النفط، وتستحوذ على النصيب الأكبر من عائداته. وكانت النتيجة أن الدول النفطية العربية - السعودية والإمارات والكويت والبحرين وقطر وعمان - حققت طفرات تنموية خرافية في زمن قياسي، وأنجزت التوزيع العادل لثرواتها، وفاض خيرها وعم الجيران وأبناء العقيدة والملة، وأصبحت جناناً متألثة تتوسطها ناطحات سحاب وبنيات تحتية مثالية ومجتمعات رفاهية ورخاء وسؤدد وسعادة، على مرأى من إيران التي تدفق النفط فيها منذ قرن كامل، ومازالت دولة متخلفة كأفقر بلدان العالم الثالث، ولقد ذهبت مقدراتها إلى الشركات البريطانية حتى عام 1953، ثم إلى رصيفاتها الأمريكية حتى 1979، وفيما بعد الثورة الإسلامية إلى تدعيم الجيش والحرس الثوري وتوسيع صناعات التسليح وتمويل المشروعات والحملات الرسالية التي اضطلع بها النظام لنشر الفكر والتآمر الشيعي خارج الحدود، ولتثبيت الأنظمة والمنظمات الأصولية الحليفة، مثل نظام الترابي/ البشير السوداني.

وهنا نأتي لنظام الإخوان المسلمين السوداني الذي أعلن التوبة، وانضم للحلف الذي تقوده السعودية لمكافحة الإرهاب الدولي وتجلياته أينما كانت، بدءاً باليمن. ولا نملك إلا أن نتأمل مجدداً في ما قاله أبو الطيب المتنبي:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

وفيما يبدو، فإن تحولاً ما قد طرأ على الرئيس البشير، ربما تأسيماً بالزعيم الراحل إسماعيل الأزهري الذي تحول فجأة بنهاية 1955 من داعية للإتحاد مع مصر إلى مطالب باستقلال السودان، بعد كل تلك الملايين من الجنيحات المصرية التي خاض بها الانتخابات. ويقول مثل أولاد الريف (ألف نطة ولا واحد بعبوص). وفي السياسة ليست هناك مواقف دائمة، إنما هنالك مصالح تملّي الانعطاف يمناً أو يسرة. ولكن السؤال الخطير هو: هل هذا التحول خاص بالرئيس البشير وحده، أم شامل لمجمل تنظيم الإخوان المسلمين السودانيين؟

يقول البعض إن الآخرين لا يساوون شيئاً، فالسلطة الفعلية في يد البشير منفرداً، يعاونه أهله الأقربون وأبناء دفعته بسلح المظلات مثل الفريق بكري حسن صالح نائبه وغيرهم من المدجنين المضمونين وأصحاب المصلحة في بقاء البشير بالسلطة. وهذا قول مرسل على عواهنه وفيه تقليل من حصافة وخبرة تنظيم ظل ممسكاً بجميع مفاصل السلطة لربع قرن من الزمان؛ إن الإخوان المسلمين موجودون، بل محتكرون للمواقع التنفيذية بكل الوزارات والدوائر والمؤسسات، ولن تجد وكيلاً أو مديراً إلا من كوادهم المعروفة منذ عهد الصبا والدراسة؛ ولم يتبق من ضباط الجيش والأمن إلا منسوبوهم؛ والأجهزة الإعلامية والصحف والمساجد والمعاهد والجامعات ومراكز البحث تعج بالإخوان المسلمين، لحمّة وسدى نظام البشير. كل هذه الاعتبارات تشير إلى شيء واحد: لا مفر من انفجار الوضع داخل تنظيم الإخوان السوداني، كما حدث لنظام النميري في يوليو 1971 عندما فتك القوميون العرب بالشيوعيين، وكما حدث بين جماعة عبد الفتاح إسماعيل وعلي ناصر محمد في عدن عام 1986 عندما تقاتل الشيوعيون العدنيون، وسقط الآلاف

قتلى وسقط النظام نفسه. وهناك نذر كثيرة تشير لقرب المواجهة بين فصائل الإخوان المسلمين: الصفوة الاقتصادية المستفيدة من النظام من جانب، وباقي الإخوان الجالسين على الحواف ومعهم مجمل الشارع السوداني المكتوي بنيران الدكتاتورية منذ ست وعشرين سنة، من الجانب الآخر.

بيد أن بعض المراقبين يؤكدون أن البشير لا يستطيع أن يتراجع عن موقفه الجديد الرافض لتنظيم الإخوان والداعي للتعاون الكامل مع المعسكر العربي المعادي لهم، بقيادة السعودية والإمارات ومصر، وإذا بدا منه أي تردد أو خيانة أو اتصال سري مع أصدقائه الإيرانيين، فإن عقوبته في غاية السهولة والمنطقية، وهي تسليمه لمحكمة الجنايات الدولية. فلا مفر أمامه والحالة هذه من التماهي بالتمام والكمال مع هذا الموقف التقدمي الذي وجد نفسه فيه، ومن التخلص من فلول الإخوان المسكين بدولاب الحكم قبل أن ينقلبوا عليه كما فعل الشهيد هاشم العطا مع النميري في 19 يوليو 1971م. ويعني ذلك بالطبع تغيير التحالفات على جناح السرعة والانفتاح على الأحزاب والقوى الوطنية التي ظلت على الهامش، عندما كان الإخوان هم الآمرون والناهون.

آخر الكلم:

المشكلة الأساسية بالشرق الأوسط هي نظام الملالي الحاكم بالجمهورية الإسلامية الإيرانية، ولا مفر من مواجهته (حتى نسدد طعنة للفيل نفسه وليس لظله المبتوث في اليمن وسوريا والعراق والسودان)؛ غير أن ذلك الطعن لا يتم بالطائرات المقاتلة أو بالجيش العرمم مهما بلغت من قوة. هنالك "قوة ناعمة" سوف تؤتى أكلها على جناح السرعة، وهي البرامج الإذاعية والتلفازية، وآليات التواصل الاجتماعي، التي تخاطب الكادحين الإيرانيين المغلوبين على أمرهم، بقايا الجبهة الوطنية وحزب تودة والنقابات العمالية التي كانت تزحم الآفاق في أربعينات وخمسينات القرن العشرين.

وتقول الحكمة السودانية (إن السفينة إذا غرقت، لا بد أن تطفو منها بعض سلال - إي قفف)؛ وهناك ما يشير إلى أن الروح الوطنية للشعب الإيراني ما زالت (تفرفر)، أي بها بقية من نفس، وكثيراً ما تشهد الساحات والجامعات والشوارع الإيرانية حركات تطالب بالإصلاح وبحقوق المرأة وحرية التعبير. ولقد ظلت إيران بيئة طاردة، مثل السودان خلال ربع القرن الأخير، وقد لاذ الملايين من الفقراء والشغيلة بدول الخليج التي ما برحوا يتسللون إليها عبر الشواطئ المهجورة والسلاسل الجبلية النائية والوعرة؛ وكل هؤلاء يجدون أفضل معاملة من شعوب الخليج باعتبارهم جيران ومسلمين وموضع شفقة ومودة ورحمة، بالإضافة لكونهم عمالة رخيصة؛ وجميع هؤلاء، بالإضافة للسواد الأعظم من الشعب المنتظر بإيران، يشكلون بيئة صالحة وأدناً صاغية لحملة تثقيفية وتعبوية معاكسة لفكر المالكي، تخاطب القضايا الأساسية التي تهتم الجماهير، قضايا التقدم الاقتصادي والتحول الاجتماعي ولقمة العيش وتعليم الأبناء وفرص العمل والطمأنينة والاستقرار، مثل ذلك الذي تنعم به دول الخليج العربية، بعيداً عن التهريج والخطاب المذهبي الملتهب والروح الإسبارتية الشرسة والمشاكسة والعدوانية، وبعيداً عن ممحكة الجيران الذين وصى بهم النبي خيراً، عليه أفضل الصلاة والسلام. والكلمة الطيبة هي التي تبقى في هذه الفانية، أو كما قال أبو الطيب:

أبني أبينا نن أهل منازل أبداً غراب البين فيها ينق

أين الأكاسرة الجابرة الألى كنزوا الكنوز فما بقين وما بقوا

من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق

تحريك المياه السودانية الآسنة

التسريبات التى ما فتئت تخرج من اجتماعات قادة نظام الخرطوم، (وآخرها ما نشره البروفيسور إريك ريفز بتاريخ 27 الجارى)، وتصريحات الصقور المعروفين باللؤم (وشيل وش القباحة) مثل الدكتور نافع، تشير إلى أن هذا النظام سادر فى غيه لا يلوى على شيء، وأنه يرقص على جميع (الخيوط)، ويقفز عشرات المرات فى الظلام، مثل لاعب الكنكان الذى يغير استراتيجياته المكانية المرة بعد المرة (أعنى يغير البيلية) طمعاً فى أن يبتسم له الحظ على طاولة الميسرة؛ فكل ما يبيده النظام من تراجع أو استعداد للتفاهم مع الخصوم، مجرد مناورات ومسرحيات لكسب الزمن ودغدة مشاعر المراقبين المحليين والإقليميين والدوليين الذين ظلوا يتطلعون لخروج السودان من النفق حالك الظلام الذى توغل فيه منذ نيف وعقدين من الزمان.

ومن أهم المراقبين الإقليميين الجاران الجنب - العربية السعودية ومصر: فعلى الرغم مما يدبره نظام البشير لهما فى الظلام، ومما يضرهما تجاههما من غدر وضرب تحت الحزام، (مثلما ورد فى آخر تسريب من القصر الجمهوري بأن حكومة السودان عازمة على المضي فى إيواء الكوادر الإخوانية الهاربة من مصر، وتوفير الحماية وفرص التعليم والاستثمار لهم)، نلفى النظام يشارك "تقية" فى "عاصفة الحزم" وفى الحلف السعودي المنشأ الهادف لمكافحة التطرف والإرهاب الدولي، ونجد البشير يبدو كأنه يتمسح بالمحور المناوئ للإخوان، ويقسم بأنه قد تخلى عن حلفه مع إيران راعية الإرهاب بالشرق الأوسط، وبأنه قد أدار ظهره لفكر الإخوان المسلمين (فجأة وبلا مقدمات)، وقلب ظهر المجن لتنظيمهم الدولي الشرير ذى التجليات

المزعجة بدولة داعش وسيناء وسرت بليبيا واليمن وغرب وشمال إفريقيا. وتلك في حقيقة الأمر لعبة لولبية معقدة يجيدها نظام الخرطوم بما يتسرل به من ثقة في النفس زائدة عن اللزوم، (وهي أصلاً غرور كاذب)، مشفوعة بفكر "التقية" الذي تلقاه من أساتذته الشيعة الإيرانيين، ومن فلسفة الكذب التي أورثهم إياها شيخهم حسن الترابي منذ الليلة السابقة لانقلابهم المشئوم: (إذهب أنت ياكولونيل عمر إلى القصر الجمهوري، وسوف أذهب أنا إلى معتقل كوبر حيث اختلط وأتعايش مع المعارضين للتمويه والتخابر وخط الأوراق وتغييش الوعي المحلي والإقليمي والعالمي). والحق لله فقد نجحت تلك المكيدة، إذ سارع الرئيس المصري حسني مبارك بالاعتراف بالنظام العسكري الجديد، بل سوقه للدول العربية النفطية الأخرى التي سارعت كذلك بتبادل المصالح مع النظام السوداني الوليد، دون أن تدري أنها دلتت عقرباً ستستحيل عما قريب إلى حية تسعى لأن تلقف ما حولها.

وعلى الرغم من ممارسات النظام الكاشفة لهويته (مثل موقفه المؤيد للغزو العراقي للكويت في الثاني من أغسطس 1990)، ما زال نظام البشير ينطلي على بعض القوى المحلية والإقليمية والدولية، وقد استمر الكذب والتمويه كطبيعة ملازمة له كظله.

ولكن، هناك من يعرف إخوان السودان (كجوع بطونهم)، ومن لا يخذعون بالأعبيهم الثعلبية؛ وهناك من ظلوا يحذرون الشعب وقوى المعارضة من مغبة تلك الألاعيب، مثل الأستاذ فاروق أبو عيسى رئيس قوى التحالف، الذي جاء في آخر تصريح له: (إن نظام الإخوان المسلمين غير جاد في أي حوار مارسه مع قوى المعارضة، وإن ما يسمى بالحوار الوطني الذي يدار حالياً بقاعة الصداقة بالخرطوم سينتهي بوثيقة تودع في أعماق الأدراج لتستقر هناك؛ وإن هذا النظام غير معني بمصالح الشعب السوداني بأي حال من الأحوال). وهناك معارضون آخرون مثل فاروق ما زالوا على العهد ولم تستدرجهم حبائل النظام. وإلى هؤلاء أتقدم بالافتراضات التالية:-

• أولاً:-

لا بد من بذل المزيد من الجهود لتوحيد الخطاب المعارض وبلورة نمط إعلامي محدد يستطيع الرأي العام الإقليمي والدولي أن يتفهمه ومن ثم يتجاوب ويتماهى معه. إن كثرة الأحزاب والمنابر المعارضة (بالمئات) تجلب الربكة والارتباب والسأم، وتؤكد الصورة التي يروج لها النظام والتي ظل يغسل بها الأدمغة، وهي أن البديل سوف يكون فوضى واحتراب سرمدي، على غرار ما يدور في جنوب السودان، بين فصائل وإثنيات وطوائف أصلاً pugnacious، ولقد جبلت على التشاكس والخلافات منذ فجر الحركة الوطنية. وكدليل على إمكانية توحيد الخطاب المعارض أكثر مما هو عليه الآن، لا بد من إحياء فكرة القناة الفضائية، أو على الأقل وب سايت وإذاعة بالإف إم.

وكدليل على وحدة الهدف بين فصائل المعارضة أرى الآتي:-

ثانياً:-

تشكيل وفد من أكبر الزعامات السودانية الموجودة حالياً بالخارج، عبر كل ألوان الطيف السياسي (باستثناء الإخوان المسلمين)، للقيام بطواف يشمل دولتين فقط: المملكة العربية السعودية ومصر، بدعوى تفعيل الحوار القومي وتسريع الوفاق، وطلب التوسط لتوطين الحل السلمي للأزمة السودانية، وتجنيب هذا البلد المستغيث الصوملة والحرب الأهلية الشاملة الوشيكة. أما الأجندة الأخرى the ulterior motive التي قد يتطرق إليها الوفد إذا كانت الظروف مواتية، أي الظروف الخاصة بالمضيفين ومدى استعدادهما للخوض في مواضيع غير معلنة سلفاً، فهي إبلاغ الأصدقاء المضيفين بالآتي:-

1. الرهان على نظام البشير رهان خاسر، فهو توأم لنظام بشار الأسد، ولن يتخلي عن السلطة حتى لو اختفى السودان كلية من خريطة العالم، وحتى لو أبيد شعبه عن بكرة أبيه. هذه هي قناعة النظام الراسخة، على الرغم من الدلائل التي تشير إلى قرب زواله.

2. إن السودان يمر بمفترق طرق لا تخطئه العين رغم تشبث النظام بالبقاء الأبدي، وسوف يتم تغيير النظام الراهن سلماً أو عنفاً؛ وحري بالقوى الأساسية بالمنطقة، لا سيما الجيران الجنب وبالجانب، أن تتحسب لذلك وأن تتجاوز النظام الراهن وتخطب ود الشعب السوداني، وليس تنظيم الإخوان الذي تم تجريف السند الجماهيري من تحته، والذي اكتسب كراهية الشعب بعد ربع قرن من البطش والقمع والتجويع والفساد وخدمة الأجندة الأجنبية (الإيرانية بالذات)، ومن تقسيم للوطن.

3. إن الدعم المالي والاستثماري الموعود من العربية السعودية لنظام الخرطوم لن تتم ترجمته إلى مشاريع تنموية محسوسة تصلح من شأن الاقتصاد أو ترفع من مستوى الحالة المعيشية للجمهور أو تساهم في ترميم البنية التحتية، ولكنه سوف يتحول إلى الحسابات المصرفية الخاصة بالأسرة البشيرية الحاكمة وبرموز العصابة الإخوانية المتحكمة منذ ست وعشرين سنة.

4. إن السودانيون يتشككون فيما قد تم خلال السنوات الماضية من مبادرات مشتركة ومشاريع استثمارية في مجال الزراعة لأنها كانت محاطة بالتحركات المشبوهة وبعدم الشفافية، ولأن الخزنة العامة لم تستطع منها شيئاً يذكر حتى الآن: لا رسوم ولا ضرائب ولا ريع أو نصيب معلوم في الإنتاج؛ وغير معروف حتى الآن ما هو استحقاق الدولة وأصحاب الأرض بالتحديد؟ وما هي الآثار البيئية والاجتماعية؟ وما هي الفوائد القريبة والبعيدة المدى؟ وما هي الأضرار على التربة؟ وبالتالي فإن الدخول مع

نظام الخرطوم فى المزيد من مثل هذه التعاقدات سيكون له ما بعده بمجرد زوال النظام الراهن، وسوف يقود لخلافات ومنازعات مع الدول المتورطة.

5. هنالك من الأدلة (مثل تسريبات البروفيسور ريفز) ما تشير إلى أن نظام البشير يكذب على دول المحور المناوئ لتنظيم الإخوان المسلمين الدولي، وأنه ما زال غارقاً وملتزماً تجاه ذلك التنظيم، فلا بد على الأقل من الحذر، إذا لم يتيسر نفذ اليد كلية من هذا النظام.

6. إن القوى السودانية المناهضة للإخوان المسلمين ولفكرهم المنحرف واضحة المعالم وذات حضور فى المعترك السياسي منذ عشرات السنين، على الرغم من تشتتها وتعدد منابرها؛ ولقد ظلت السجون تستقبل أفواج هؤلاء المعارضين منذ أن سطا هذا النظام على الحكم فى 30 يونيو 1989، كما حصد الرصاص والمشائى الآلاف منهم؛ ولا زال معظمهم يجأرون بالصوت الجمهورى الرافض، ولا زال بعضهم ينافح هذا النظام بالسلاح فى مناطق العدائيات بدار فور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق؛ ولقد استمرت هذه المعارك الحضرية والريفية بلا توقف. وحيث أن العنف لا يجلب إلا العنف والثارات العميقة، فإن الارتكان للتعقل والحلول السلمية التفاوضية هو الحل الأمثل (فوضع السيف فى موضع الندى مضر كوضع السيف فى موضع ندى)؛ غير أن نظام الخرطوم دأب على إهدار مثل هذه الفرص، إذ يقول شيئاً للإعلام بغية اكتساب نقاط فى مجال العلاقات العامة، بينما يستبطن شيئاً آخرأ كله مرارة وحقد ولؤم ونوايا شيطانية. ومن هنا، فإن الوساطة السعودية / المصرية مطلوبة، على غرار ما فعل الملك فهد عليه رحمة الله الذى أتى باللبنانيين المتقاتلين لطاولة المفاوضات فى الطائف وخرج باتفاق سلام ظل سائداً فى لبنان منذ ثلاثة عقود؛ وعلى منوال مؤتمر اللاءات الثلاثة عام 1967 بالخرطوم الذى عقد الصلح بين الملك فيصل والزعيم جال عبد الناصر عليهما رحمت الله وبركاته.

7. إن النظام البديل الوشيك للحكومة الحالية سوف ينضم لعاصفة الصحراء وللحلف المناوئ للإرهاب والتطرف عن قناعة ومبدأ، وليس مزايمة ومتاجرة وتقية كما يفعل النظام الراهن؛ وإن القوى المعارضة لنظام الخرطوم كانت جالسة فوق الجمر طوال فترة حكم الإخوان المسلمين التي امتدت لست وعشرين سنة، لذا فهي صاحبة "وجعة" حقيقية، واليتيم لا يوصى على البكاء. فضلاً عن أن السودانيين أهل نزال وبسالة عندما تدلهم الخطوب، يغشون الوغى ويعفون عن المغنم، كما شهدت لهم بذلك الكويت عام 1958 عندما جاءت كتيبة من الجيش السوداني (بأمر حكومة عبد الله خليل الديمقراطية) لتدافع عن تلك الدولة الشقيقة ضد عدوان قوات عبد الكريم قاسم العراقية المتحرشة بالحدود. كما عرفت لهم ساحات الوغى في الحرب العالمية الثانية عندما كان الحافز هو منح البلاد استقلالها إذا أبلت قوة دفاع السودان بلاءً حسناً؛ وقد كان، إذ تحقق أول نصر للحلفاء على يد الضباط والجنود السودانيين ضد الطليان في إريتريا وإثيوبيا عام 1941، وفي العلمين تحت قيادة الجنرال مونتغمري الذي أجبر الجنرال الألماني روميل على الانسحاب من الصحراء الشمالية برمتها. وغير ذلك كثير من المعارك التي شارك فيها السودانيون وأبدوا شجاعة سارت بذكرها الركبان (حرب القرم 56/1853 وكتيبة المكسيك The Mexican Brigade 1863). إن تغيير النظام الراهن من شأنه أن يلم شعث الأقاليم والقوميات، ويرسخ الحكم الراشد والعدل بينها، فتتوقف الحروب العديدة الداخلية التي أشعلها نظام الإخوان المسلمين؛ ومن شأنه أن يعيد للجيش سيرته الأولى من ضبط وربط وعقيدة قتالية منطلقة من إحساس وطني صادق وانتماء عربي وإفريقي له تبعاته والتزاماته في الجبهتين على حد سواء - العربية والإفريقية.

إن طوافاً من هذا القبيل سوف يلقي حجراً ضخماً في المياه الراكدة، وسوف يثير فضول وشهية الإعلام الإقليمي والدولي، وسوف يدفعه لتسليط الضوء على النظام

السوداني، وكشف المخبوء من عوراته وعلاقاته المشبوهة بتنظيم الإخوان العالمي، ومن أفاعيله بالشعوب الإفريقية المسلمة المغلوبة على أمرها في دارفور وجنوب النيل الأزرق وكردفان. وإن مصر بالذات تحتاج في الظروف الراهنة لمن يقف معها بصدق ونية سليمة وهي تتصدى لتآمر الإخوان المسلمين الذي لا ينضب، ولمن يؤسس معها موقفاً موحداً خالياً من المزايدات السياسية فيما يختص بمسألة مياه النيل ومشكلة سد النهضة.

وأرى أن هذا الوفد لا يتجاوز صلاحيات البنيات المعارضة الموجودة في الساحة، قوى الإجماع ونداء السودان والجهة الثورية، بل متجاوب مع طروحاتها، ومنطلق من المنحنى الذي تناهت إليه جهودها، وممثل لها. ولقد عرف تاريخ السودان الحديث التوافق على الوفد القومي المؤلف من الأحزاب الاتحادية والجهة الاستقلالية عام 1946 الذي غادر مطار وادي سيدنا إلى القاهرة ليحتج على بروتوكول صدقي/ بيفن الذي كان من نتائجه أن صرح صدقي باشا وزير الخارجية المصري بمطار ألماتة عند عودته من لندن: (لقد أتيتكم بالسيادة على السودان في جيبي). كما شهد التاريخ أيضاً أعظم حدث إجماعي وهو التوحيد الذي تم بين أحزاب الحكومة والمعارضة لإعلان الاستقلال من داخل البرلمان في ديسمبر 1955.

ومن هذا المنطلق، أقترح أن يتكون الوفد من:

1. مولانا السيد محمد عثمان الميرغني - رئيساً
2. السيد الصادق المهدي
3. الكماندر مالك عقار
4. الدكتور جبريل ابراهيم
5. الأستاذ ياسر عرمان

6. الأستاذ التوم هجو
7. السيد مو إبراهيم، ممثلاً للمستقلين ورمزاً للأواصر المصرية السودانية.
- وإذا اعتذر مولانا عن رئاسة الوفد، تمنح للأستاذ علي محمود حسنين.

آخر الكلم:

يقول السودانيون "القحة ولا صمة الخشم"، وكل حركة معها بركة، فنرجو أن تجد هذه الدعوة استجابة من هذه العناصر الوطنية المعروفة، ونرجو أن يتولى الأخ مو إبراهيم مسألة اللوجستيات الخاصة بهذه المهمة.

هذا، أو سينطبق علينا قول ابن خالي عبد الباقي ودكور، المعروف بالمكاشفي محمد بخيت، الذي كتب قبل يومين بالفيس بوك قائلاً:

(لماذا تفارع غيظهم بالصمت
وتدير شمسك نحو جدران الخفوت
وتطعم الطاغوت زادك ما تبقى من سنام الروح
تمنحهم أجنة طفلك المخبوء ترضعهم وترسلهم
إلى تلك البيوت
تقاس بهم طوابقهم وعائمهم وأدراج الصعود
ويساقون بليل نحو سطح المذبحة
يكملون الحبة الحمراء بعقد المسبحة
فلماذا تمنح السفاح من رنتيك
آخر شهقة... وما تبقى منك
أنفاساً وقوت

ثم تلتفت بشوق وتموت
قل لماذا؟

و لما سألته من يقصد بالتحديد، أجاب قائلاً:

(أقصد كل الصامتين المنتظرين على الرصيف والمواقف الحربائية وسكان المناطق
الرمادية والقابضين على العصا من منتصفها بينما الوطن يذبح من الوريد إلى
الوريد.)

علاقات السودان الخارجية المأزومة

جاء فى آخر أنباء الخرطوم أن الرئيس عمر البشير وجّه دعوة للرئيس الروسي فلاديمير بوتين لزيارة السودان؛ وإذا قرأت ما بين السطور فإنك سرعان ما سوف تكتشف أن نظام الخرطوم يتطلع لما وراء هذه الزيارة، وهو بالتحديد دعوة البشير لرد الزيارة إلى موسكو، وتلك مناسبة للسفر خارج الحدود حتف أنف محكمة الجنايات الدولية، وبلوغ حاضرة أوروبية ذات شأن وشوكة، خاصة وأن الطيران إليها يخترق أجواءً سليمة فوق دول صديقة وأخرى ذات مصلحة، إذ غالباً ما سوف تتسلل طائرة الرئيس البشير عبر ممر يحلق بها عبر السماء المصرية، ثم البحر المتوسط فتركيا فروسيا. وهكذا يستطيع الرئيس السوداني أن ينعم بالأمان المؤقت وعدم العزلة وبأنه شخص طبيعي مثل سائر البشر غير المطلوبين للعدالة.

وقراءة أخرى بين السطور ترتاد بك آفاق العلاقات التى يحرص نظام الإخوان المسلمين السوداني على ترسيخها مع مخلفات الشيوعية العالمية متمثلة فى روسيا والصين وأوكرانيا؛ إذ تشكل هذه الدول - بالإضافة لإيران - المصدر الأساس للأسلحة والذخيرة والآليات العسكرية وقطع غيارها بالنسبة لحكومة البشير منذ استيلاء الإخوان المسلمين على السلطة فى يونيو 1989. وكذلك يعود الفضل للفتوى الروسي والصيني ضد كثير من العقوبات التى حاول مجلس الأمن إصدارها فى حق الحكومة السودانية بسبب ممارساتها القمعية الفظة المستمرة وجرائمها ضد الإنسانية والإبادة الجماعية التى ظلت ترتكبها بمناطق العمليات فى جنوب السودان ولاحقاً بدارفور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق. أضف إلى ذلك أن الصين هي التى استخرجت النفط السوداني وشيدت المصافي والأنابيب، فى مقابل احتكاره أمس

واليوم وغداً، بمعنى أنها قد اشترت من السودان (عن طريق آلية "بيع السلم"، بفتح السين وتشديدها وفتح اللام، أي "تحت الحضور") كل ما ينتجه من النفط لسنوات عديدة قادمة، ليس نقداً بالدولار، إنما على طريقة التجارة البكماء، فى مقابل الطائرات والسفن الحربية وغيرها من الأجهزة والعتاد، بالإضافة للأفيال البيضاء البرجوازية التفاخرية مثل القصر الجمهوري الجديد واليخت الرئاسي. ولا ننسى ما ظلت الصين تقوم به من إغراق للأسواق السودانية بالمنتجات الصينية قليلة الجودة ومحدودة الصلاحية وذات التأثير السلبي على المنتجين وصغار التجار المحليين. (راجع ورقتي بعنوان "دبيب النمل الصيني في إفريقيا" فى الصحف السودانية الإسفيرية بتاريخ 3 سبتمبر 2015).

وتركض حكومة الإخوان المسلمين نحو روسيا، واستقطبت مستثمريها خاصة فى مجالات التعدين "المعطوبة الفوضوية" وفق صفقات مشبوهة وترتيبات تفوح منها روائح الفساد والنوايا السياسية المستبطنة، خاصة بعد أن اكتسبت روسيا سمعة جديدة فى سوريا - ألا وهي نصره الطواغيت الذين يفتكون بشعوبهم مهما علا الصوت المعارض الداخلي ومن قبل الأسرة الدولية، وقد وصلت النصره لدرجة الاشتراك الفعلي فى عمليات الحرب الأهلية السورية جواً وبراً وبحراً. وإذا أمعنت النظر فى خريطة الشرق الأوسط الجديدة فإنك سوف تلمح حلفاً يتشكل بقيادة روسيا ومعها إيران وسوريا نفسها (لو نجحت فى الإبقاء على الأسد بعد إطفاء النيران الحالية)، مع تأييد مستتر وخجول حتى الآن من قبل مصر والسودان، كما تشير العديد من الدلائل والمؤشرات؛ فإيران وروسيا تدعمان نظام بشار الأسد بكل ما لديهما من قوة وجبروت، ولم تتخذ مصر موقفاً واضحاً إزاء ما يجري فى سوريا، (ويبدو أنها مشغولة بأجندتها الأمنية الخاصة، مثل مشكلة الإرهاب الإخواني المدعوم بقتاة الجزيرة، والتحدي المسمى "سد النهضة الإثيوبي"، وقضية المحافظة على مثلث حلايب المنزوع من السودان عام 1995؛ ومن غير المتوقع أن يتعاون الغرب مع مصر فيما بعد انتفاضة 30 يونيو الشعبية التى أعادت للغرب أشباح ثورة 23 يوليو التقدمية، ولا مفر من إعادة العلاقات التسليحية مع روسيا التى

بدأت عام 1955 عندما قام جمال عبد الناصر بكسر احتكار الغرب لتزويد مصر بالسلاح، وأقام تحالفاً مع الاتحاد السوفيتي استمر إلى ما بعد نكسة يونيو 1967، وتحديدًا حتى قام أنور السادات بطرد الخبراء العسكريين الروس في الثامن من يوليو 1972، ووضع حداً لذلك الحلف الإستراتيجي مع الاتحاد السوفيتي ووجه وجهه شطر الغرب عبر التطبيع مع إسرائيل).

وعلى كل حال، ذلك مشروع حلف يمكن أن يتجمع فعلياً على أرض الواقع إذا ادلهمت الخطوب ودقت طبول الحرب الكونية الثالثة، وبالطبع ستنضم إليه دول نووية أخرى ذات أجندة مشابهة، وهي تحديداً الصين وكوريا الشمالية. وإلى أن يتبلور الشكل النهائي لهذا المحور الشرير، فإنه يعمل في إطار التعاون السياسي والدبلوماسي والاقتصادي والعسكري الذي يمليه الظرف المعين، وفق مصالح وأطماع هذه الدول؛ فهي تتعاون الآن وتتناغم مواقفها، على سبيل المثال، في مجلس الأمن إزاء العديد من القضايا، مثل الأزمة السورية، حيث ظلت روسيا والصين تقفان ضد أي حل يستوجب رحيل الأسد، شأنهما شأن إيران. وتتوافق روسيا والصين في موقفهما الداعم للنظام الدكتاتوري السوداني، حيث يلتقيان هناك مع إيران التي أقامت حلفاً استراتيجياً مع نظام الإخوان المسلمين السوداني منذ أول أيامه في السلطة قبل ربع قرن. ولا يغرنك يا هذا أن البشير قد وعد بالانسحاب من حلفه مع إيران عربوناً لصداقته الجديدة مع السعودية ودول الخليج العربي؛ إنها مجرد مضمضة كلامية **service lip** إذ أن ارتباطه بإيران زواج كاثوليكي يصعب الفكك منه. (إن الدخول في الشبكات هين، ولكن التأمل في الخروج).

وهناك بالطبع قواسم مشتركة عظمى بين الدول التي يتألف منها المحور الجديد - روسيا وإيران (وتابعيهما سوريا والسودان)، بالإضافة للصين وكوريا الشمالية:-

• فجميعها تقف على النقيض من الديمقراطية الليبرالية (نموذج وستمنستر الذي ترسخ في الهند منذ 1947، ولاحقاً في دول عديدة مثل جنوب إفريقيا وإندونيسيا والبرازيل وتونس وبوركينا فاسو)؛ كما تقف على

النقيض من الغرب فى جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، على الرغم من المواقف البرجماتية التى كثيراً ما تدعوها للتعامل مع الغرب، خاصة فى مجال التجارة ونقل التكنولوجيا.

• ومعظم هذه الدول ورثت نظامها السياسي الراهن من أنظمة أحادية وشمولية، خاصة روسيا والصين، (والأخيرة لم يكتمل تحررها من النظام الإيديولوجي المهيمن منذ نجاح الثورة الماوية الاشتراكية عام 1949)، ولم تترك إدارة الدولة للاقتصاد الموجه، كما لم تتخل عن طغيان الأجهزة الأمنية، وفلسفتها الاقتصادية لازالت فى إطار سيادة القطاع العام بقدر الإمكان، وإذا تم فك الارتباط مع جهاز الدولة فى أي مؤسسة (كما ظل يحدث فى روسيا بصورة أوضح)، فإنها لا تملك إلا أن تسقط فى أيدي ضباط الكي جي بي السابقين الذين أصبحوا من أغنى أغنياء الدنيا بين عشية وضحاها، مثل خضروفسكي، وذلك الملياردير الجهبذ الذي امتلك فريق تشلسي اللندني، وعلى رأس هؤلاء فلاديمير بوتين نفسه الذى ورث الاتحاد السوفيتي برمته.

• وتشترك كل هذه الدول، بما فى ذلك السودان، فى الاستبداد والميول العدوانية المتأصلة: (أنظر لروسيا ومواقفها من الجمهوريات التي خرجت من الاتحاد السوفيتي؛ وإلى الصين وموقفها من شعب التبت ومسلمي غرب الصين وهنق كنج وتيوان؛ وانظر إلى السودان وما يفعله بالأقوام الإفريقية المسلمة المقيمة بدارفور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق، وما يفعله بشار الأسد بالمسلمين السنة فى سوريا).

• وتستبطن مصر قدراً من هذه الميول العدوانية على الرغم من أنها قد أصبحت دولة (ديمقراطية)، حسب منطق الهبة الشعبية فى 30 يونيو 2013 التي قضت على حكومة الإخوان المسلمين؛ إذ يتحدث الإعلام كثيراً هذه الأيام عن سد النهضة الإثيوبي وضرورة إزالته من الوجود (كما فعلت إسرائيل مع المفاعل النووي العراقي الصدامي فى 7 يونيو

1981). وهناك إشارات إلى أن جميع ألوان الطيف المصري تتفق حول هذا الموقف المتمر تجاه دول أعلى النيل، خاصة إثيوبيا؛ فقد جاء في المقابلة التي أجراها السيد الصادق المهدي بصحيفة الوطن القطرية (الأربعاء 23 ديسمبر 2015) أنه كان قد نقل رسالة ودية غير رسمية من الرئيس الإثيوبي ميليس زيناوي إلى الرئيس حسني مبارك عام 1997، عندما كان معارضاً لنظام البشير ومقيماً بالخارج كجزء من التجمع الوطني الديمقراطي، فحواها أن إثيوبيا متضررة من تقسيم مياه النيل الذي تم بموجب اتفاقية 1959 بين السودان ومصر التي لم تضع بلاده في الحسبان، ولو استمر هذا التجاهل فإن إثيوبيا ستضطر للتصرف بشكل إنفرادي؛ فقال له حسني مبارك: "من يمد يده للنيل سنقطعها"، وفي ذلك بالطبع تهديد لا مضع للكلمات فيه لكل من إثيوبيا والسودان ممثلاً في الصادق المهدي الذي كان رئيساً للوزراء قبل ذلك ببضع سنوات.

والإشارة الأخرى كنت شاهداً عليها عندما كنت مترجماً بوزارة الخارجية الإماراتية عام 2013، إذ زارها في نوفمبر من ذلك العام أحمد أبو الغيط وزير الخارجية المصرية الأسبق ليقدم محاضرة عن حرب أكتوبر 1973، ولكنه فجأة غادر الموضوع الرئيس digressed وخاطب الحضور بقاعة المحاضرات بديوان الوزارة من تنفيذيين ودبلوماسيين وموظفين قائلاً:-

(على فكرة، لما كنت وزير خارجية مصر أيام الرئيس مبارك بعثت برسالة رسمية لسمو السيد وزير خارجية الإمارات العربية المتحدة طالباً عدم تقديم أي دعم أو عون للسودان أو لأي دولة تقع على النيل جنوب مصر تنوي أو تقدم على تشييد مشروع يعتمد على مياه النيل، سواء كان لتوليد الكهرباء أو للزراعة؛ وقد بعثت برسالة مشابهة لكل من المملكة العربية السعودية وقطر والكويت.)

ولم يتوقف الأمر هنا، فيما يختص بالتحريض وإيغار الصدور ودق طبول الحرب، إنما حدث شيء آخر مدهش في فترة النقاش عندما أخذ أبو الغيط يرد على استفسارات ومداخلات الحضور، فقد سأله شاب مصري يعمل موظفاً إدارياً قائلاً: (هل هنالك نية لضرب سد النهضة الإثيوبي بالطائرات الحربية المصرية؟) ورد أحمد أبو الغيط قائلاً بلا تردد: (إن الأمر يتوقف على تعاون السودان، إذ أن طائراتنا لا تستطيع أن تقطع المسافة من الحدود المصرية السودانية إلى إثيوبيا بدون تزويد بالوقود في الجو أثناء الطيران، وهذه خدمة غير متوفرة لدى سلاح الجو المصري). والجدير بالذكر أن ذلك قد حدث بعد ستة أشهر من استقرار الرئيس السيسي في الحكم على إثر انتفاضة 30 حزيران 2013 التي أطاحت بحكومة الدكتور مرسي العياط؛ ولا بد أن أبا الغيط كان مستصحباً للموقف الحكومي المصري من مسألة السد الإثيوبي وغيره مما يمس العلاقات المصرية بجيرانها من الدول المشاطئة للنيل.

عموماً، إن الطيور على أشكالها تقع، وبهذا المنطق يسعى النظام السوداني لتمتين علاقاته بالدول ذات الوازع الأخلاقي المنخفض فيما يختص بحقوق الإنسان، وذات المواقف الدبلوماسية النشاز... والانتهازية والتي لا تتقيد إلا بالمصالح الذاتية، وليذهب السلام العالمي وإعلان حقوق الإنسان إلى الجحيم. ومن هذا المنطلق، ارتبطت حكومة الإخوان المسلمين السودانية بالنظام الروسي والصيني والإيراني.

أما فيما يتعلق بالعلاقة مع الجار الجنب مصر فقد مرت بعدة مراحل في السنوات الأخيرة:

- ارتعدت فرائص النظام أيام الربيع العربي الذي اجتاح تونس ومن بعدها مصر في مطلع عام 2011، وكنت شخصياً من الذين كتبوا بالصحف الإفسيرية مرشحاً السودان كالدولة التالية في مسار تسونامي الربيع العربي. ولقد لاذ الإعلام السوداني بصمت القبور إزاء ما كان يدور في تونس ثم مصر ومن بعدهما اليمن من زلازل كانت مرشحة للتأثير على

الوطن العربي برمته ولهزّ ميزان القوى بالشرق الأوسط، وربما لقلبه رأساً على عقب. ولكن سرعان ما تسلل الإخوان المسلمون لصدارة الثورات الثلاث، بتونس ومصر واليمن، وجاءت الانتخابات في مصر وتونس بنصر واضح لتنظيمات الإخوان المسلمين. وعند ذاك تنفس نظام البشير الصعداء، وأخذت وفوده تتقاطر على مصر المحروسة للمزيد من الاستزادة من تأمر ومكر الإخوان المسلمين المصريين. وجاء الرئيس محمد مرسي للخرطوم زائراً (إمبراطورياً) ليس له شبيه إلا محمد علي باشا الذي زار السودان بعد بضع سنوات من غزوه عام 1822؛ وبدأ واضحاً أن العلاقة بين النظامين المصري والسوداني تمر بأسعد لحظاتها، وأخذا يخططان للتكامل الاقتصادي والسياسي الشامل، وبأسرع فرصة ممكنة.

- وجاءت المرحلة الثانية في أعقاب انتفاضة 30 يونيو 2013 التي وضعت حداً لحكم الإخوان المسلمين وأودعت معظم كوادرهم سجن لومان طرة ومعتقلات الصحراء الغربية. وقعت هذه الأنباء وقع الصاعقة على الإخوان المسلمين السودانيين ورجّتهم رجاً وأصبح أمرهم فرطاً؛ وتراوحت مواقفهم بين الصمت المريب والتجاهل كأن شيئاً لم يحدث في مصر، وبعض التظاهرات الضئيلة للمتشددين من منسوبيهم الذين نظموا موكباً واحداً توجه للسفارة المصرية بالخرطوم، وبعض خطب الجمعة التي رددت صدى الخط المعادي لثلاثين يونيو الذي تبنته قناة الجزيرة. وفجأة قام الرئيس الجديد الفريق السيسي بزيارة للخرطوم، ويبدو أن الموقف الرسمي لحكومة البشير أصبح مؤيداً للوضع الجديد في مصر، وتمت العديد من الزيارات الرسمية للقاهرة، وعادت المياه إلى مجاريها. بيد أن الرئيس البشير وأعوانه تظاهروا تقيّة بالوقوف مع النظام المصري، في الوقت الذي كانوا يصوبون العديد من الضربات الخاطفة تحت الحزام للجارّة مصر؛ إذ فجأة أعلن البشير في إحدى خطبه النارية تأييده التام لإثيوبيا فيما يختص بسد النهضة، بلا أي تحفظات من النوع التي أثارها الدكتور كمال علي وزير الري السوداني

السابق (الذي تربطه صلة مصاهرة بالرئيس البشير). كما أثارت الخرطوم فجأة كذلك موضوع حلايب بعد صمت دام عشرين سنة بالتمام والكمال، ولم يكن ذلك إلا دعوة حق أريد بها باطل، وهو بالتحديد التشويش على حكومة السيسي وإرباكها لمصلحة الإخوان المسلمين الذين ما انفكوا يتآمرون للعودة للسلطة، بالإرهاب والتفجيرات وقتل الأبرياء والمدنيين في سيناء ومحاربة الاقتصاد بإشاعة الأجواء الطاردة للسواح والمنفرة للمستثمرين.. إلخ.

- المرحلة الراهنة التي تمر بها العلاقات مع مصر دشنتها قفزة في الظلام أقدم عليها نظام البشير، وهي الإعلان المفاجئ الخاص بالانضمام للمحور الذي يضم العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة ومصر الذي شرع في حزمة أنشطة دبلوماسية وعسكرية تهدف لدحر الانقلاب الحوثي/ الصالحي، ولاستعادة الشرعية بذلك البلد المنكوب. وفي هذا الخضم، أعلن السودان (تقية) قطع علاقاته المشبوهة بإيران، وتبرع بقوات برية وصلت بالفعل إلى اليمن وتموضعت إلى جانب الجيش اليمني الشرعي والقوات المناوئة للحوثيين وفلول المخلوع ع ع صالح. وبينما يشير هذا الموقف لقطعة واضحة مع فكر وتنظيم الإخوان المسلمين، وإلى محاولة صريحة للتماهي مع النظام المصري الذي أصبح نظام البشير يقف معه في نفس الخندق، إلا أن الشكوك والريب العميقة ما زالت تتحكم في العلاقة بين النظامين، كما بيّنت الأحداث الأخيرة بمصر حيث تم الاعتداء على عشرات السواح السودانيين من قبل القوات النظامية متهمة إياهم بالتلاعب بأسواق العملة الصعبة بهدف زعزعة الاقتصاد المصري.

هل فعلاً تخلق نظام البشير عن التزاماته الإخوانية وعن حلفه مع إيران وعن ارتباطه بتنظيم الإخوان المسلمين العالمي؟ هل تحول نظام الخرطوم إلى شيء كالنظام المصري، يسعى لإرساء قواعد الديمقراطية الليبرالية وللاحتكام لدستور مدني ديمقراطي علماني؟

لا وألف كلا؛ فما زالت الكوادر الإخوانية العتيقة التي كانت ممسكة بمفاصل الدولة منذ ربع قرن، مازالت آمرة وناهية بأروقة حزب المؤتمر الوطني الحاكم، ويتم تلميعها على الدوام للعودة مجدداً للحقائب الأساسية بالحكومة: علي عثمان محمد طه ونافع علي نافع وعوض الجاز ومهدي إبراهيم ومصطفى عثمان إسماعيل وقطبي المهدي... إلخ. وبينما يدعو النظام أصدقاءه للحوار الوطني، لا تشمل دعوته القوى المعارضة الحقيقية في التحالف والجهة الثورية والمناضلين بالمنافي والحركة النقابية الشرعية الموجودة بالظل؛ بل تذهب دعوات النظام ومحاولات الاستقطاب للعناصر الهشة والمتعهرات والمرتشين بغرض زرع الفتنة في صفوف المعارضة والفت في عضدها، كما ظل النظام يفعل طوال فترة حكمه الربع قرنية.

وعموماً، لا تهتدي السياسة الخارجية لنظام البشير بفلسفة محددة متماسكة وثابتة ولها رأس وقعر طوال ربع القرن المنصرم، ولكنها قشة في مهب الرياح، تشرق وتغرب عشوائياً حسبما تملي الضرورات الماثلة، أياً كانت، ولا يحركها سوى البحث عن سبل تدعم بقاء النظام في السلطة إلى أبد الآبدين، مهما كان الثمن التي تدفعه البلاد.

فقد بدأ النظام في أول أيامه باللهث وراء الغرب (على الرغم من خطابه المتشنج آنئذ: "أمريكا قد دنا عذابها!"). وبالفعل شهدت العشر سنين الأولى من عمر النظام تقارباً مع الولايات المتحدة والدول الأوروبية الغربية، كان من دلالاته محاولة تسليم أسامة بن لادن للحكومة الأمريكية التي رفضت العرض وشكرتهم عليه، فتوجه بن لادن ورهطه إلى تورا بورا بأفغانستان.

وبعد غزو العراق أيام جورج بوش الابن وإعلان حربه على الدول الداعمة للإرهاب، تملك العرب نظام البشير، وشرع مدير أمن الدولة في رحلات مكوكية إلى رئاسة السي آي إي بواشنطن دي سي، وقام بتسليم الأمريكان كل ما لديه من ملفات وبيانات خاصة بالتنظيمات الأصولية ذات العلاقة، كما قام بترحيل العديد من الكوادر الإخوانية العربية والآسيوية التي لجأت للسودان هاربة من جحيم أفغانستان. وفي

ذلك السياق، تم تسليم الإرهابي كارلوس ذي جاكال للحكومة الفرنسية، كما تمت السمسة والتأمر مع المخابرات الكينية لاعتقال المناضل الزعيم الكردي أوجلان في نايروبي وتسليمه للأجهزة الأمنية التركية.

ولكن شيئاً من ذلك لم يشفع لحكومة السودان إزاء ما ارتكبته من فظائع في جنوب دارفور بدءاً بعام 2003، إذ زارت وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس معسكرات اللاجئين الدارفوريين بالحدود الغربية للسودان وفي تشاد عام 2005، وجاء في معيتها الإعلام الأمريكي ومنظمات حقوق الإنسان والجمعيات الخيرية التي تعاطفت مع جماهير دارفور المسحوقة، وكان من نتيجة تلك الحملة العقوبات الاقتصادية التي فرضت على السودان والتي لا زالت سارية المفعول حتى اليوم؛ كما نتج عن ذلك تحويل ملف السودان لمحكمة الجنايات الدولية التي أصدرت أمراً باعتقال الرئيس البشير بتهمة الجرائم ضد الإنسانية والإبادة الجماعية وجرائم الحرب، كما صدرت أوامر مماثلة ضد بعض متنفذي حكومة السودان وقادة الجنجويد - المليشيا شبه العربية المدعومة من نظام الخرطوم والتي نفذت العديد من جرائم الإبادة الجماعية بجنوب دارفور، مع ما صاحبها من عمليات اغتصاب جماعي للنساء وتقتيل للأطفال.

هذه هي آخر صورة ترسخت لدى الغرب عن النظام السوداني، ومن جراء ذلك اتجه النظام صوب جهات بديلة كالصين وروسيا، ناسياً أن عصر القطبين قد انتهى بنهاية الحرب الباردة قبل ربع قرن، وأنه قد احتفى بسحابة صيف عما قريب تنقشع (أو كمن احتفى براكوبة قش في الخريف). وفي هذه الأثناء، تضررت مصالح السودان كثيراً وحق الدمار بكل مفاصل الاقتصاد، وعانى أهل السودان من العنت والعوز، لاسيما في الأطراف الملتهبة، سواء في بؤر الصراع بدارفور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق، أو في كافة المناطق الهامشية الأخرى بشمال وشرق ووسط السودان.

لا سبيل والحالة هذه إلا أن يذهب نظام الإخوان المسلمين إلى مزيلة التاريخ فوراً، حتى يستعيد السودان علاقاته المعافاة مع باقي العالم وفق مبادئ الحياد الإيجابي ونصرة الشرعية الدولية والسلام العالمي والاحترام الكامل لحقوق الإنسان، ووفق مفهوم الندية مع كل القوى كبيرها وصغيرها، ووفق مصالح السودان المتبادلة مع كافة دول العالم.

اللاجئون السودانيون بالأردن ! of all places

استقبلت أوروبا - وعلى رأسها ألمانيا - خلال هذا العام الذى أوشك أن ينصرم حوالي مليوني لاجئ من سوريا، وفى معيهم بضع آلاف من العراق، كما استقبلت الولايات المتحدة ألف لاجئاً سورياً بكل أريحية وإنسانية، تلك القيم التى غابت تماماً عن التعامل مع حفنة لاجئين سودانيين شاء حظهم العاثر أن يكونوا بالأردن - حسبما جاء فى الشبكة العنكبوتية صباح الأربعاء: فقد قررت الحكومة الأردنية فجأة ترحيل ثمانية آلاف لاجئ سوداني قادمين من مناطق العمليات بدارفور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق، إلى الخرطوم، قسراً وعلى جناح السرعة، وقد تم إحضار دفعة منهم إلى مطار الملكة علياء بغرض تسفيرهم؛ وقد ذكر بعضهم أنهم ظلوا بلا طعام أو شراب منذ ست عشرة ساعة، وأنهم تعرضوا لاستفزازات عنصرية من قبل المشرفين الفلسطينيين والأردنيين بمعسكر اللاجئين؛ كما جاء فى نفس السياق أن اللاجئين السودانيين ظلوا بذلك المخيم منذ خمس سنوات، وأنهم حازوا الاعتراف من مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة بأنهم لاجئون شرعيون، يحق لهم الانتظار بذلك الموقع المؤقت ريثما يتم ترحيلهم للدول التى سوف تعلن استعدادها لاستقبالهم، شأنهم شأن السوريين - كما يحدث عادة فى مثل هذه الحالات.

وأياً كانت الحقيقة، فلا دخان بلا نار، (والعود لو ما فيه شق ما بقول طق)؛ أي، ثمة مشكلة يتعرض لها اللاجئون السودانيون الآن بالأردن.

ولقد نكأ هذا الحدث جراحاً مكظومة لدي تغافلت عنها، ناوياً تناولها بالقلم فى يوم من الأيام بعد الأوبة للوطن، مساهمة فى التوعية الخاصة بمسألة الهوية، من منطلق التجارب العملية المحسوسة التى عشتها بالخليج العربى طوال ربع قرن من الزمان؛ إذ دخلت فى عشرات المباحثات اللفظية وغير اللفظية مع آباء ومدرسي هذه العناصر (الزلمية) بسبب ما كان يتعرض له أطفالى أثناء اللعب بزناقات الحى أو بالمدارس، على أيدي صبية (الزلمات) تحديداً، وهو الاسم الذى يطلقه السودانيون على أهل الشام السوريين واللبنانيين والأردنة، (ومفردها زلمي...المقابل لزول). وعلى كل حال، شب أولادي وبناتي عن الطوق، وكانوا متفوقين فى دراستهم رغم تخذيل المدرسين الزلم، ولم يفقدوا الثقة فى أنفسهم بأى حال من الأحوال، وقد خرجوا من تلك المعارك أصلب عوداً وأقوى شكيمة، وأنوفهم فى عنان السماء بحمد الله تعالى، واعين تماماً وفخورين بسودانيتهم.

ولذلك، فإنني أستطيع أن أفهم ما تعرض له أولئك السودانيون فى الأردن، وأحسب أنهم سوف يحشرون فى طائرات النقل المتأهبة بمطار عالية، ويرسلون إلى نظام البشير (لكي يتم الناقصة) ويفتك بهم كما يشاء، إذا لم يتدخل الفضلاء والخيرون فى العالم، مثل البارونة كارولين كوكس نائبة رئيس مجلس اللوردات البريطانى ورئيسة جمعية خيرية لم تقطع إغاثاتها عن مناطق النزاع السودانية بجبال النوبة (حيث كانت تعمل ممرضة فى سابق الأزمان) وبقنوب النيل الأزرق، وأتمنى أن يتم الاتصال بها فور التأكد من صحة النبأ، - فهي متواضعة وفى متناول اليد.

أس المشكلة:

وبهذه المناسبة، دعنا نقارب السؤال الرئيس:-

لماذا يضطر السودانيون أساساً للهروب من بلادهم ولطلب اللجوء هنا وهناك؟ ولماذا يركبون كل هذه المخاطر ويعرضون أنفسهم لحرس الحدود المصرى الذى أبادهم بالعشرات كالحشرات، وللمنظمات الإرهابية الليبية التى جرت رؤوسهم

كالشياه، وللمساسرة الدوليين والمتاجرين بالبشر، وأخيراً للزلم الأردنية والفلسطينيين ليتخلصوا منهم بهذه الطريقة التعسفية والعشوائية، كأنهم قطيع من البعران الضالة وليسو بشراً ومسلمين (وعرب، بالمناسبة)؟

لقد استمرت هذه الحالة من النزوح القسري إلى خارج السودان منذ مجيء الإخوان المسلمين للسلطة في الخرطوم على ظهور الدبابات في يونيو 1989؛ وقد بدأت موجات الهجرة منذ أول أيامهم جراء عمليات (التمكين) التي كانت تعني تحطيم جهاز الدولة، بما في ذلك القوات النظامية والجامعات، وبناءها مجدداً بالكوادر الإخوانية؛ فتمّ تشريد الآلاف المؤلفة من السودانيين، وأنا واحد منهم، الذين وجدوا مؤئلاً دافئاً بالسعودية ودول الخليج العربي والدول الأوروبية، خاصة هولندا وبريطانيا والنمسا والدول الإسكندنافية، وبالطبع الولايات المتحدة. ولما تصاعدت الحرب الجهادية بالجنوب، تدفق أكثر من مليوني لاجئ نحو القرن الأفريقي وشرق إفريقيا، وأقاموا هناك طوال الفترة 1990-2005، أي حتى إبرام اتفاقية نيفاشا للسلام الشامل CPA. وفي تلك الظروف أيضاً، أي منذ 2003، تفجّرت مشكلة دارفور، وفر اللاجئون صوب تشاد وإفريقيا الوسطى بمئات الآلاف، وتمكن العديد منهم من بلوغ التخوم الشمالية للصحراء الكبرى، وأخذوا يتسللون بالقوارب المهترئة إلى الشواطئ الأوروبية، ومنهم من قضي نحبه في لجة بحر الروم، ومنهم من عبره بتوفيق من رب العالمين إلى الدول الأوروبية التي أكرمت وفادتهم ومنحتهم السكن والعلاج وفرص العمل... إلخ؛ ولقد قابلت العديد منهم في فينا وميونخ وهانوفر وبراغ ولندن وبراييتون، ونشأت بيني وبينهم صداقات نضالية خالدة بإذن الله. وبالتزامن مع حرب دارفور، تفجّرت العدائيات بجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق منذ خمس سنوات، ولا زالت حامية الوطيس، ومازال اللاجئون يتدفقون شرقاً وغرباً، وكلهم يستهدفون الدول التي تحسن معامل اللاجئين؛ ومن تنكبّ منهم الطريق وعثرت رجله بالحدود المصرية الإسرائيلية فهو هالك لا محالة برصاص القناصة المصريين، ومن يظن خيراً بدولة كالأردن، يحدث له ما حدث بالأمس للاجئين السمر المساكين بمطار الملكة علياء.

وفي هذه الأثناء، ليس هنالك ضوء فى آخر نفق الحروب السودانية، ولا تبالي حكومة الإخوان المسلمين بالنتائج الكارثية لتلك النزاعات التي سوف تنجم عن المزيد من التشطي والتقسيم بالنسبة للوطن، على نسق المصير الذي حاق بالجنوب، وهو الانفصال التام عام 2011، على الرغم من أن حلاً كهذا لا يجلب السلام النهائي والشامل بالضرورة، فلقد ظل جنوب السودان غارقاً لشوشته في حروب داخلية بين الدينكا والنوير منذ استقلاله حتى الآن، ولربما إلى يوم يبعثون؛ وهي حروب سيّطال أثرها باقي السودان لا محالة، وقد بدأ اللاجئون الجنوبيون يتدفقون نحو الشمال، ولعلمهم أيضاً يستهدفون دولاً أخرى أكثر رحمة باللاجئين.

وفي هذه الأثناء كذلك، يتشدق النظام الإخواني السوداني بالألفاظ الخطابية الطنّانة الجوفاء، ويسترسل في مسرحيات العلاقات العامة التي يحاول بها أن يجمّل وجهه أمام الدول العربية، مدّعياً أنه قد بدّل جلده الإرهابي، وأنه قد انفتح على المعارضة وأدار معها حواراً يهدف لتوزيع السلطة والثروة بصورة أكثر عدلاً؛ بينما نجده في نفس الوقت يبطش بشباب "حق" وحزب المؤتمر وأبناء دارفور بالجامعات، ويعتدي على الصحفيين - حتى الإسلاميين المعتدلين مثل عثمان ميرغني ويوسف التاي اللذين اعتقلا بالأمس وصودرت صحيفتهما.

لقد أصبح السودان دولة بوليسية بمعنى الكلمة، وسفاراته بالخارج أوكار للمخبرين وضباط الأمن وكوادر ومنسوبي التنظيم العالمي للإخوان المسلمين الذين يتخابرون لصالح ذلك التنظيم الأخطبوطي، حيث أن دولتهم تشكل أحد أذرعه الرئيسية بالقارة الإفريقية. وبما أن نظام الخرطوم يتكئ على قوى مؤثرة بالشرق الأوسط ومنطقة الخليج، فهو غير معني بمصالح أهل السودان، ولا يضع لهم أي حساب؛ ولو انقسمت البلاد إلى سبع دويلات ولم يبق منها إلا (مثلث حمدي) فذلك هو المرام، إذ ستصبح إدارتها أكثر سهولة، ويصبح التماهي مع الفضاء العربي/الإسلامي (النفطي) أكثر منطقية، بعد التخلص من ذوي السحنات السمراء المتفحمة بالجنوب والغرب والجنوب الشرقي (باعتبار أن الشماليين أقل سمرة، أو هكذا يتوهمون

ويتوهم معظم الأعراب الذين يجهلون حقيقة الفسيفساء السودانية). وفي نفس الوقت، انهار الاقتصاد وتردّت الأحوال المعيشية بالسودان وشحت البضائع بالأسواق وتفاقت أزمة الغاز وضروريات الحياة الأخرى، بينما تراكمت الثروات الخرافية لدى البشير ورهطه الأقربين والمهراجات الإسلامويين الوالغين في أموال السحت، رجالاً ونساء. (قرأت البارحة تصريحاً للدكتور فيصل القاسمي نعت فيه ما تسمى بوداد إحدى زوجات البشير بأنها امرأة سطحية لا هم لها عندما تزور قطر سوى اقتناء المجوهرات والتبضع في المولات.) وكنت أحسب أن الحكاية ذهب فقط، إذا بنا قد ولجنا عصر الماس والزمرد والياقوت، بينما يتضور أبناء وبنات شعبنا من الجوع والمسغبة والأمراض المستوطنة.

الحلف العسكري:

وبينما تعدّ المعارضة عدتها للإطاحة بنظام البشير الفاسد والفاشل، وبينما يترنح النظام ويوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، تفاجئنا الأخبار بقيام حلف عسكري من أكثر من ثلاثين دولة عربية وإسلامية بقيادة السعودية لمحاربة الإرهاب ومطاردته حيثما كان، والسودان واحد من تلك المنظومة كما يقول الخبر، مما يوحي بأن هذا النظام قد تحوّل بين ليلة وضحاها من جسم إرهابي إخواني متطرف إلى كيان معتدل شبيه بالدول التي تألف منها الحلف، والتي عقدت العزم على دحر الإخوان المسلمين بكافة تجلياتهم حيثما ثقفتهم.

هل هو فعلاً حلف عسكري مثل الناتو أو حلف بغداد السابق، بموجب اتفاقية رسمية وقّعت عليها الدول الأعضاء وأجازتها الجهات التشريعية والتنفيذية؟ أم لعله ترتيب دبلوماسي أدهوكي محدود زمان السريان والصلاحيات؟ أيا كان، فإن الشعب السوداني لم يسمع به، وقد طالعه في أخبار التلفزيون بكثير من الدهشة وعالجه بشيء من السخرية؛ بل لم يستشر الرئيس البشير حتى مؤتمره الوطني الحاكم، وربما لم يأخذ رأي حكومته نفسها؛ ولقد صدر النبأ عن الرياض وليس الخرطوم، ولم تعلق عليه الأخيرة قبلاً أو رفضاً.

على كل حال، ربما كان الموضوع برمته تمرين في "العلاقات العامة" يستهدف الدولة الإسلامية بالعراق والشام - داعش - عله يلقي في روعها أن الطامة الكبرى ستحقيق بها عما قريب؛ ولا مندوحة من اتجاه كهذا، فالجميع ضد داعش ويرغب في إزالتها من الوجود بسبب ما ارتكبته من فظائع يندى لها جبين البشرية، خاصة المسلمين، إذ أن تلك الفظائع، بما في ذلك هجومي باريس وفلوريدا، تتم باسم الإسلام، كنوع من الجهاد ضد النصارى. أما أن تكون حكومة الإخوان المسلمين السودانية جزءاً من تلك المنظومة المناوئة للإرهاب فذلك أمر عجب، كأننا قد استودعنا الحملان عند الذنب ليقوم بحراستها؛ إنه خلط للأوراق يبعث على الحيرة العميقة، ويزرع البلبلة في صفوف الجماهير.

وربما كان الباعث للثقة في نظام الخرطوم التصريحات التي أدلى بها البشير عند زيارته الأخيرة للإمارات، وأدان فيها تنظيم الإخوان المسلمين الدولي ووصفه بالمتآمر. بيد أنه كان فقط مثل "القيتون":

(إذا سبّح القيتون يوماً... هم بسرقة، فاحذر من القيتون حين يسبّح)

وما كانت تلك التصريحات إلا ذراً للرماد في العيون بغرض الاستهلاك المحلي؛ وكان الدافع الحقيقي هو الإفلاس الرهيب الذي تعاني منه خزينة الدولة بعد تجفيف مصدر تمويلها الرئيس وهو النفط، بعد انفصال الجنوب، وبسبب الحروب التي ظلت تدور بمناطق إنتاجه منذ بضع سنوات. وهي، على كل حال، مجرد تصريحات (أي حكي في حكي)، ولم يصدر عن الدولة السودانية أي بيان يوضح التحول الإيديولوجي الإستراتيجي الذي طرأ عليها ونقلها من مربع الإخوان المسلمين إلى المربع المناوئ؛ ولو فعلت ذلك لتغيرت كثير من المواقف المحلية والإقليمية والدولية:-

- محلياً: تكون المسافة بينها وبين المعارضة قد تقلصت بقدرة قادر إلى درجة الصفر، ويكتسب ما يسمى بالحوار الوطني الراهن أبعاداً منعشة

جديدة قد تنتهي به إلى خواتيم موفقة وسعيدة بالنسبة لكل الأطراف المعنية.

- إقليمياً: سوف تخرج حكومة الخرطوم من المحور الشيطاني الداعم للإرهاب، وستنفض يدها من الاتفاقيات المبرمة مع النظام الإيراني والتي بموجبها ما زالت إيران تصنع السلاح والذخيرة بالسودان، ليتم تهريبها بعد ذلك إلى اليمن وغزة وليبيا والصحراء الكبرى وغرب إفريقيا عبر السودان؛ وسينعكس ذلك إيجاباً على العلاقات مع الشقيقة مصر التي تعتبر السودان البشير ملاذاً للإرهابيين الإخوانية، وممولاً لهم بالسلاح والعتاد واللوجستيات.

- دولياً: ربما تعيد الأسرة الدولية النظر في موضوع الحظر الاقتصادي المفروض على السودان باعتباره دولة راعية للإرهاب، وربما كذلك تبحث الأسرة الدولية عن مخرج لموضوع محكمة الجنايات الدولية التي تطالب بمثول الرئيس السوداني أمامها باعتباره متهماً بجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، شأنه شأن القادة الصرب والكروات الذين انتهى بهم الأمر في لاهاي بهولندا حيث واجهوا القصاص.

طوق النجاة:

ويبدو أن الحلف العسكري المذكور لم ينجح تماماً كطوق نجاة ينقذ نظام البشير من الغرق، إذ طارت إشاعة من أروقة المؤتمر الوطني الحاكم في اليومين الماضيين، وتقاذفتها صحف البارحة، مفادها أن النظام قد يرحب بحكومة قومية انتقالية يرأسها البشير نفسه، لفترة تتراوح بين عام وستة أعوام؛ وهي في الحقيقة بالونة اختبار في أجواء حبلى بالتوقعات والتخرصات المتعددة والمتضاربة الخارجة من لدن المعارضة، أو من الانتهازيين الممسكين للعصا من نصفها، أو من دهاقنة النظام الذين تقطعت بهم الأسباب وضاعت الحلقة حول أعناقهم - بينما تبدو البلاد تماماً مثل الصومال في آخر أيام الدكتاتور الجنرال زياد بري.

بيد أن الحكومة القومية المؤقتة هي فعلاً الحل الأمثل للأزمة الراهنة، شريطة أن يبتعد عنها البشير تماماً، وأن تستوفى الاستحقاقات الأخرى، مثل:-

- التخلي عن وشجب الإيديولوجية الإخوانية التي ظلت تهيمن على البلاد منذ 1989، والرجوع لدستور 1955 المعدل 1964 و1985 و2005، ريثما يتم وضع دستور مدني ديمقراطي علماني جديد.
- إبعاد كل الفاسدين المعروفين والرموز الإخوانية عن جهاز الدولة وعن رئاسة المصارف والمؤسسات والأجهزة الإعلامية والصحف والقضاء.
- إلغاء كل حكومات الأقاليم، ودمجها في ست ولايات فقط تديرها أطقم تكنوقراطية وطنية ذات كفاءة ونزاهة، مع تقليص الحقائب وتخفيض المنصريفات.
- تغيير كل قيادات الأجهزة الأمنية والقوات النظامية، وجلب الشخصيات المناسبة من الضباط الوطنيين المفصولين للصالح العام خلال حكم الإخوان المسلمين لإدارتها، وتغيير القوانين القمعية التي تسترشد بها تلك الأجهزة.
- الاتفاق على ميثاق يحكم الفترة الانتقالية ويوضح سياسات حكومتها الخارجية والداخلية.

آخر الكلام:

يمر السودان حالياً بمفترق طرق خطير كما تشير كل الدلائل: إما أن تستمر الفوضى الحالية والحروب المناطقية المؤدية إلى التشرذم والكتنتنة الصومالية، وإما أن يستنسخ الشعب السوداني الصفحات الناصعة من تاريخه، ويعيشها مجدداً: وهي تحديداً صفحات الانتفاضات السلمية في أكتوبر 1964 وإبريل 1985 التي أطاحت بأنظمة عسكرية مدججة بالسلاح والأجهزة الاستخباراتية المتتمرة... فيحزم أمره

ويتوكل على الحي الدائم ويندلق إلى شوارع العاصمة المثلثة والحواضر الأخرى، مسلحاً بفروع النيم فقط... وبقدر ما تكون ثورته سلمية وبعيدة عن التخريب والعدوانيات بقدر ما تستقطب الواقفين على الرصيف (الأغلبية الصامتة)... وتكتسب تعاطف الأجهزة الأمنية التى كانت تفتك بالمتظاهرين حتى الأمس القريب... وبقدر ما تجتذب تضامن ومساندة القوى الشعبية الإقليمية والعالمية.

إن الحل الأنجع للمشكل السودانى هو الانتفاضة الشعبية... أما الحوارات التى تدور فى الغرف المغلقة سواء فى الخرطوم أو أديس أبابا فهى لن تجلب نفعاً، إذ أنها الأسلوب المفضل لدى الإخوان المسلمين المجبولين على المماثلة والمماحكة وكسب الزمن، حيث أنهم متأثرون بإسحاق شامير رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق الذى كانت فلسفته الحوار مع الفلسطينيين لعشرات السنين، بينما تتصلب الحقائق التوسعية الصهيونية على الأرض، ببناء المزيد من المستوطنات بالضفة الغربية، وتثبيتها وتكريسها.

إن الحوار المجدي والجاد الوحيد هو الذى يدور بين ممثلى الحكومة والمعارضة... على خلفية التظاهرات الهادرة بالشوارع فى نفس الوقت، وربما ستردد تلك الجموع أبيات شاكر مرسال التى صدع بها فى وجه دكتاتورية الجنرال عبود عام 1958:

ولدت سفاحاً فما (أنت حر) واجه مصيرك أو فانتحر!

في ذكرى صلاح أحمد إبراهيم

(الشعر من نفس الرحمن مقتبس والشاعر الفذ بين الناس رحمن)

ع م العقاد

ازدهت مدينة الشارقة خلال نوفمبر الجاري بمعرض كتابها السنوي، وألفينا ما لَذَّ وطاب من مطبوعات جديدة ومصنفات طال البحث عنها، وندوات ولقاءات ومهرجانات كاملة الدسم للآداب والثقافة. وفي هذا الخضم، التقاني الأستاذ الهادي أحمد إبراهيم وأهداني كتابين، أحدهما لشقيقه الراحل صلاح أحمد إبراهيم، مجموعة مقالات كان قد نشرها في الفترة 1986-1990 بمجلة (اليوم السابع) بباريس بعنوان (أشخاص جديرون بالاحترام)، جمعت في سفر بنفس العنوان صدر هذا العام - 2015؛ والآخر عبارة عن المساهمات النثرية والشعرية في رثاء الشاعر بعيد رحيله عنا في مايو 1993، جمعها المركز المسمى باسمه بأم درمان في كتاب بعنوان "دمعة وفاء"، ومن بينها قصيدة نثرية كنت قد ساهمت بها آنئذ ونشرتها صحيفتا (الفجر) و(الخليج) الطيبانيتين، ثم طواها النسيان، إذ لم أقرض الشعر قبلها أو بعدها، ولكن النسيان لم يشمل صلاحاً وشعره الذي أزوره بين الفينة والأخرى - في دواوينه "غابة الأبنوس" و"غضبة الهبائي" و"نحن والردى" و"يا وطني"، فأروي الصدى وأستنشق الكلم الرصين وأدغدغ مشاعر الحنين لبلادي.

تصفحت "دمعة وفاء"، ووجدت مساهماتي "الروح الوثابة" بصفحة 143، فأثارت لديّ شجون ومشاهد من صلاح كنت سعيد الحظ بها، وهما مرتان فقط قابلته خلالهما وجهاً لوجه؛ كانت الأولى في عام 1971 ونحن نعد لـ "مؤتمر حركات

التحرر الإفريقية"، بالتعاون بين "هيئة التضامن مع حركات التحرر الإفريقية" التي كنت أحد ناشطيهـا، ومعهد الدراسات الإضافية بجامعة الخرطوم الذي كان مديره بالإنابة فيصل بشير إمام؛ ولقد دعونا بعض الشخصيات الهامة بهذا المجال، وعلى رأسهم الراحلين علي المك وصلاح أحمد إبراهيم، وتكونت منهم لجنة دائمة للإعداد لذلك المؤتمر الذي استقطبنا له حزب المؤتمر من جنوب إفريقيا؛ وحزبي زابو وزانو من روديسيا؛ وفريليمو من موزمبيق؛ وحركة تحرير أنقولا MPLA؛ وحركة تحرير غينيا بيساو وجزر الرأس الأخضر... إلخ. ولقد تم اجتماع واحد لتلك اللجنة كان نجمه بلا منازع صلاح أحمد إبراهيم، بمعلوماته الموسوعية عن إفريقيا، وخبرته السياسية والدبلوماسية الواسعة، ومعرفته اللصيقة بتلايف حركة التحرر الوطني الإفريقية، وكنا أمامه كالتلاميذ في حضرة أستاذ فطحل يتدفق العلم منه شلالات لا تنضب. ولم يعرف صلاح عني شيئاً غير كوني كادر ملتهب الحماس، من جناح عبد الخالق محجوب. ولم نستطع أن نعقد الاجتماع التالي للجنة، إذ داهمتنا الخطوب التوالي، وهي أحداث 19 يوليو ثم 22 يوليو 1971 التي بعثرتنا في كل وادٍ؛ وبالطبع ذهب المؤتمر المفترض أدراج الرياح.

والمرة الثانية والأخيرة التي قابلت فيها صلاحاً كانت بمحطة سكة حديد كنقز كروس بلندن في نهاية ديسمبر 1979، إذ كنت عائداً لأدنبرة بعد عطلة الكريسماس، وكان صلاح كذلك راجعاً إلى باريس بعد زورة خاطفة للندن. وبالطبع عرفته على الفور وتقدمت نحوه ماداً يدي، واستقبلني هاشاً وباشاً كأنه يعرفني، رغم أنه حقيقة (ودرنى)، فذكرته بلجنة الإعداد للمؤتمر، فانفجرت أساريه أكثر، وأفاض في الحديث عن الفرص المهددة بالسودان، وتحسر على ذلك المؤتمر المجهض، كما تحسر على السودان الذي تقاذفته النوى - بين ثلة من العسكريين اليساريين المتطرفين الذين أرادوا أن ينفردوا بالأمر، دون أصدقائهم من فصائل القوى الثورية الأخرى، وثلة من القوميين العرب الذين انفردوا بالأمر بعد القضاء على الشيوعيين، ثم أصبحوا مطية تسلق فوقها مائق خب اسمه نميري ليصبح الدكتاتور الفرد، ويتخلص منهم واحداً واحداً. وحدثني عن معاناته في باريس، وكان ذلك قبل أن يلتحق

بالسفارة القطرية مستشاراً ومترجماً، وقال إنه في ذلك الشتاء بالذات ظل يعيش على "ويكة بشرموط" أرسلتهما له حرم صديقه على المك. بيد أني أعطيته عنواني هذه المرة، وما كاد يصل باريس حتى بعث إلي بطاقة بها أظرف وأرق وأنبل كلام مر علي منذ زمن طويل.

تذكرت ذلك عندما تناهي إلي نبأ وفاة المرحوم صلاح التي حدثت بباريس يوم 17 مايو 1993، وكنت وقتها ترجماناً بالمختبر الجنائي بشرطة أبو ظبي، فانسالت مني هذه الكلمات التي لا ترقى لمرتبة القصيد، وذلك بحر لم أخضه من قبل، ولكنها زفرة عفو خاطر حاولت بها أن أثمن مواقف صلاح المنحازة للكادحين السودانيين، من خلال شعره ونثره الخالد على مر الدهور.

عليه ألف رحمات من الله وبركات.

الروح الوثابة

ياصلاح آه... يا صلاح آه... يا صلاح!

يا من أعجزت الربابة،

كيف نحلّق بعد اليوم...

وقد هوى منا جناح؟

...

دست إلينا ريح الشمال خيراً:

أراد صلاح أن يلحق بعلي... (1)

...

ران صمت خشن الملمس على أسراب العصفير

وجثا هام النخل منكسراً،

فمازال حمام الموت يحتطب... من أم درمان،

و لَمَّا يَنْجَلِ.

...

دَوَّتْ حَنَاجِرُ الْأَبْنُسِ فِي الْغَايَةِ

وَرَدَّدَتْ الْفِيَاْفِي:

صَلَّاحٌ لَمْ يَمِتْ

وَلَكِنْ تَضَامَنْ،

عَلَّهِ يَسْتَلُّ الْكَآبَةَ مِنَّا... قَسْرًا،

بِمَوْقِفٍ عَمَلِي.

...

يَا شَفِيقَ نَفْسِي

وَرُوحَ الشَّعْبِ الْوَثَّابَةِ!

هَدَّ تَكَ

حِينَ تَنَاهَتْ إِلَيْكَ أَحْزَانُنَا جَهْرًا وَسِرًّا،

فَمَنْ مَاتَ حُزْنًا كَمَنْ يُقْتَلُ.

...

أَبَا رَسُوءَ... (2)

هَيْبَةً وَجَلَالًا وَثَبَاتٍ!

مَنْ رَجَعَ رَجَعَ زُنَيْرُكَ يَهْتَزُّ الطَّغَاةَ،

وَفِي حَقِّ شَعْبِكَ

تَزْدَرِي أَيْ تَحْرِيمٍ وَتَحْلِيلٍ.

...

يَا غَيْمَنَا فِي هَجِيرٍ "الدَّرْتِ"...

يَا مَبْدَدَ الْهَمِّ...

تَمَامَةَ الْكَيْفِ...

أَخَا الْبِنَاتِ!

يا زادنا للشتاء والصيف...
ملك الحديث الطلي.

...

يا درة حبانها بها النيل...
ما حفظتها البلاد،
ولكن شعبك يحفظ الأبيات
عن ظهر قلب،
ولك في الفؤاد مقامٌ عل.

...

(أرضعتني أمك الخضراء)
ودندنت في أذني حكايات مدهشات...
أنضجتني فوق نار "تقابة" (3)
علها تصنع مني شيئاً مثلكم...
فالواحد منكم بألف رجل.

...

و نشأنا سوياً...
يالروعة ما شهدنا من معارك سامقات...
ماثل ذكرها إلى يوم القيامة
جيلاً بعد جيل.

...

ولا إخالك تعرفني بالإسم...
ولكنا فاصلتان في نفس الملحمة...
وتران في قيثاره
تمطر برداً وسلاماً عند المحل.

...

غير أني توشحت بالصمت كثيراً....
تجرّني خطوتان إلى الوراء،
فبعضنا يتغافل عن نواميس الكفاح
بدعوى الظرف المرحلي،
كأنه فرض كفاية...
قد تولّاه صلاح... ورهط من آل ياسر.

...

فإذا بصلاح قد تولّى
ذات صبح رمادي تهاوى فيه برج إيفل،
قبل أن ينضج الكرم،
وفي النفس شروخ فاغره،
وفي القلب حسرة.

...

إيه أبا دماك! (4)
أما ترى ما يلقّنا من ظلام في عز النهار؟ (5)
غربت شمسنا عند الصباح....
لنقتات الركافة من ثدي عقيم.

ماذا لو أمهلتنا لحظات...
حتى نزدرد المصيبة...
ونستعيد الجنان،
بعد ذهاب علي!

فما زلنا نفترش الثرى
ويقول شيوخنا إن الموت آتٍ آتٍ؛

إذا بخدنه ينسلّ من وسطنا على حين غرة...
ذلك البارّ الحنون... أخو الإخوان.

...

يا جبل الدائر (6)
يا كنزنا وملأنا في المسغبة!
ما زلنا نفرأ مسكيناً ذا متربه...
تُصنع من بقايا أضلعنا الحساءات...
لإخوان تحنوت
في الردهات (الفيحاء) بالعاصمة...

أتركنا لأحفاد (الباشيزك) (7)
عصابات... عصابات؟

...

يا صنو البدر... كملاً وبهاءً وسحراً...
يا منارة في الحي... سيرة وبياناً واقتداراً!
كيف تسللت خلف علي؟

هل تجاذبت روحكما...
أم تراكضتما نحو الميس (8)
بحثاً عن شليل...
والبقعة كلها في جوف تمساح؟ (9)

...

كيف بالله وجدت علياً...
وهل ضوّع الجلسة أبو داود
بمداميات فرح؟ (10)

...

يا أتراب الندى وأرباب القوافي...
هلاً أدركتم من خمر الجنة ألف راح...
كما أدركتم في الناس المسرة!
واترعوا الكأس - لطفاً - حتى الحوافي
إذا جاء دور الشفيح...
ألم يتلقاكم بشوشاً وحفي؟

وراشد... رمانة تلقى بظلمها
على كل وفي.
هل جلجّلت ضحكته في الروابي السندسية...
وتلألأ الضوء من لدن هامته...
حتى بيوت الكادحين... وعياً وثبات جنان؟!
...

لقد تجاوزت حياتكم حدود العمر...
وها أنتم بيننا... عطاءً وسخاءً وفكراً،
وما زالت الشرذ السائرات الملاح
يتواترن منكم... إلى جوف الخلود...
يتحددين ظرف الزمان.

...

إرفعوا اليوم ثلاثة أنخاب... لصلاح،
إني أراكم في قمة الأولمب جلوس...
إهتكوا رايات باخوس...
حتى الصباح،
والى أن تفرّ عصفير ألف عروس،

بعد أن تخيروا منها - رجاء - باقة مرمية
لصلاح... فتى الفتیان،

ذلك أنه غرة شعبنا،
ولأنه كان يعلم ما لا نعلم (11)
فقد جافاهن في الفرشات،
في تلك الظروف النضالية.
ما استساغت نفسه تفريخ ذرية،
والشعب نصفه تحت المقصلة....
ونصفه جوعان.

...
كان يقضي ليله محدقاً في الأنجم،
ينظمها عقوداً سرمدية...
ويعتصر أحشائه خرائد من جمان،
ليهدد ما لدينا من جراح...
فنحن في حزن مركب طوال هذا القرن،
حتى تكسرت الرماح على الرماح.

ما أفقنا من وطأة الهكسوس...
حتى انقضّ أهلونا علينا،
مثل عود الفأس في الغابة،
وتقاذفنا موج لموج... بلا شطآن.

...
وذاة ليلة هوميروسية داكنة
تقافز من بطن الحصان الخشبي

جيش أصفر البزات والسحنة...
ما انفك يحشرنا بين ألف مطرقة
وألف سندان.

...

ما بين شهيد نجا من ألف داء مستوطنة،
لتفتك به مليشيا التتار...
وشهيد من فرط الأسى، مثل صلاح،
فجعته أخبار المساكين.

...

يا فلذة من كبد الشعب... وداعاً
فكلنا صلاح...

وهل يطوى الردى
من تناثر في وجدان أمة؟
...

اليوم نضال خفي مستتر...
وغداً يتفجر البركان.

الهوامش:

1. علي: الراحل المقيم البروفيسور علي المك الذي اختطفته المنية قبل سبع أشهر من المرحوم صلاح.
2. أبو رسوة: الأسد (أب رسوه البكر... حجر ورود سيتيت... كاتال في الخلا... وعقباً كريم في البيت).

3. نار التفافية: النار الضخمة المضرومة في فناء مدرسة القرآن التقليدية (الخلوة) بالسودان، إضاءة للتلاميذ ودفناً من البرد، وعليها تنضج (البليلة) - غلة سودانية كالمقح تسمى الذرة، قوت الطلاب.
4. أبادماك: إله المعرفة في الحضارة المروية القديمة.
5. إشارة لرواية **Darkness at Noon** للكاتب الروسي المنشق آرثر كوستلر، التي صورت ظلام وظلم العهد الستاليني.
6. الدائر: جبل في كردفان بغرب السودان.
7. الباشيزك: الجنود المرتزقة بجيش محمد علي باشا الذين دمروا السودان ثم حكموا ما تبقى منه من 1822 إلى 1885م.
8. الميس وشليل: ألفاظ مستخدمة في لعبة مفضلة عند أطفال السودان في الليالي المقمرة على كتبان الرمل، حيث يقذف أحدهم العظمة بعيداً، ثم بنشدون "شليل وينو؟ شليل وين راح؟ شاله التمساح." ثم يتسابقون بحثاً عن العظمة.
9. البقعة: أم درمان.
10. فرح: خليل فرح، فنان وشاعر السودان الأول، عاش ومات في شرخ الشباب بأم درمان في مطلع القرن العشرين.
11. إشارة لحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام: (لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً وكيتم كثيراً ولجافيتم النساء في الفرشات وخرجتم إلى الصعدات تجأرون بالدعوة إلى الله).

النهاية الوشيكة لداعش

(هل ستضرب الحية الداعشية على يافوخها أم على ذيلها ؟)

أعددت القرطاس والقلم لأسطر مقالتي الأسبوعي حول شأن من شؤون بلدي السودان، إذا بكارثة الجمعة 13 الجاري بباريس ترجّ الأرض رجاً، وتهز ضمير أي إنسان به مزعة من رحمة أو ذرة من إنسانية: تسعة وعشرون ومائة موتى، وأكثر من منتي جرحى - كلهم من المدنيين والسابلة الماشين بالأسواق والمسترخين بالمسارح والحانات والمطاعم بعد عناء يوم في مجتمع رأسمالي لا مفر فيه من الكدح المستمر حتى تكسب عيشك: بينهم الأب والأم والعائل لنفر معلوم والصبي والفتاة والطفل، والنقابي والاشتراكي واليساري واليميني، كحال البشر العاديين في حاضرة متحضرة اسمها باريس الجميلة.

ومهما كانت الرسالة التي أرادت داعش أن ترسلها إلى أوروبا والغرب، فإن الإسلام والمسلمين والعرب قد تضرروا من جرائمها؛ وبعد التعاطف الذي أبداه الغرب، خاصة ألمانيا والنمسا والدول الإسكندنافية، تجاه اللاجئين السوريين والعراقيين منذ بضعة شهور، جاءت خيبة الأمل (راكبة جمل) في شكل السوري الذي دخل ألمانيا في أكتوبر ضمن موجات اللاجئين، وقد فتحت لهم تلك الدولة العظيمة الرعومة أبوابها على مصاريعها، وبعد أقل من شهر تسلل ذلك السوري عبر دول البلقان والتحق ببعضها السفاحين المسلمين العرب الذين سفكوا دماء المدنيين الأبرياء بحواري باريس وطرقاتها، ونسف نفسه والآخرين تاركاً جوازه السوري في الركاب، كأنه رسالة تحدٍ أخرى فحواها : "أنا مسلم عربي سوري، فليخبر الحاضر الغائب!"

كيف يا ترى سترد فرنسا على هذه الهجمة التتيرية البربرية؟ وإذا أرادت أن تبحث عن داعش، أين ستجدها؟

لأمر يعلمه الخالق عز وجل، تجمع الدواعش حالياً داخل ثلاث بقع تقريباً: في سوريا والعراق، وفي منطقة سرت بليبيا، متلاحمين ومكوّرين (مردمين) كالخراج، ويمكن معالجتهم بمبضع ماهر وإزالتهم بلا آثار جانبية **without collateral damage**. وأرى في عين رأسي البوارج الفرنسية قد تحركت إلى مشارف اللاذنية، تاركة "أرمادا" صغيرة لتسوية المسألة الليبية؛ وإذا دخل الجيش الفرنسي بلاد الشام فإن العالم سيغض الطرف، مثلما فعل إزاء الأمريكان عندما غزوا أفغانستان (بعد تفجيرات **Nine Eleven - 11 سبتمبر 2011**) يوم 7 أكتوبر من نفس ذلك العام. وحسب دستور حلف الناتو فإن أي اعتداء على أي من دوله يعتبر اعتداءً عليها جميعاً، لذا فإن الحلف سيبارك إن لم يشارك في الغزو، كما أن الرأي العام العالمي سوف لن يتشفع للدواعش أو يدافع عنهم، للأسباب التالية:

1. من حق فرنسا أن تتعقب الجناة وتلقي عليهم القبض وتقدمهم للمحاكمة؛ والعقل المدبر لتلك الجنايات كما تشير كل الدلائل يقبع في الجيوب الداعشية بسوريا والعراق، وسرت بليبيا.
2. ذلك هو الحل الذي تنزل من السماء للحرب السورية التي استمرت لخمس سنوات، والتي كانت عبارة عن نزيف دم لم يتوقف، ثم ينبوع لاجئين بالملايين لا ينضب، تجاوز طاقات الدول الأوروبية المستهدفة.

3. الحسم السريع للمشكل السوري سيضع حداً للتدخلات الدولية التي لولا ذلك لتفاقت وتعقدت، وقد تصبح سوريا بذلك بؤرة تنطلق منها الحرب الكونية الثالثة، كما انطلقت صنوتها الأولى من بقعة مشابهة بمنطقة البلقان اسمها سراجيفو في البوسنة يوم 1914/6/28 .

4. ويا حبذا لو عبر الجيش الفرنسي (ومعه البريطاني) الحدود الشرقية لسوريا، وبالتنسيق مع القوات المحلية والدولية المناهضة للدولة الداعشية التي نبتت بشمال غرب العراق، قام بمحاصرة تلك الفئة الباغية هناك أيضاً، وبتوقيف جميع كوادرها الذين ظلوا يعيشون فساداً في حق اليزيديين والأكراد والمسيحيين وكافة الساكنين العراقيين منذ عامين، وفي حق البنى والآثار التاريخية العتيقة.

هذا هو الغزو "الحميد" الذي سوف لن تستكفه الشعوب العربية والإسلامية لأنه سيخلصها من طغاة أجلاف متعطشين للدماء، مثلما فرح شعب السودان بدخول الجنرال هيربرت كتشنر وجيشه لأم درمان عاصمة الدولة المهدية عام 1898 لأنه خلصهم من حكم الخليفة عبد الله التعايشي الذي أحال الثورة المهدية إلى ملك عضود، ويطش بالسودانيين بنفس طريقة الدواعش - باسم الإسلام، والإسلام بريء من كليهما براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

ولكن، لا بد أن يستفيد الفرنسيون من أخطاء الأمريكان في أفغانستان والعراق:-

1. عليهم ألا يأتوا بالمعارضين المتشاكسين المتعطلين بفنادق غرب أوروبا ليحكموا بلداً ظلت علاقتهم بها مقطوعة لعشرات السنين، حيث أنهم سيعيدون إنتاج الأزمة السورية المتجددة من جيل لجيل منذ خروج المستعمر الفرنسي قبل عدة عقود. وإذا تساءل أحد عن البديل، فهو غير واضح المعالم حتى الآن. وربما يجتهد مجلس الأمن الدولي ويبتدع نظاماً جديداً للانتداب شبيهاً بذلك الذي طبقته عصبة الأمم League of Nations بعد الحرب الكونية الأولى، بمعنى تكليف فرنسا بالإشراف على الدولة السورية لفترة عشرين سنة، تتولى خلالها شؤون الدفاع والأمن والشرطة والقضاء والتعليم (لإعادة صياغة المقررات على أساس علماني تقدمي مهني، بعيداً عن الهوس الداعشي)، وتترك الباقي لأبناء البلد، وفق دستور ديمقراطي علماني

كذلك الذى رتبته الحلفاء لألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، متكئاً على المبادئ الأربعة: **Denazification. Demilitarization. Democratization. Decartelization.** وهو الدستور الذى ظلت ألمانيا تعمل به إلى يومنا هذا، وبفضله، بالإضافة لعزم شعبها، أصبحت أقوى وأهم وأرحم دولة فى أوروبا، إن لم يكن على نطاق العالم كله.

2. ويتعين على المملكة المتحدة فى نفس الوقت أن تضطلع بالمسألة العراقية، بالإنابة عن حلف الناتو والأصدقاء الآخرين المناوئين لداعش، وذلك باجتياح بلاد الرافدين أرضاً وليس جواً فقط، حتى يتم تنظيفها تماماً من الإرهابيين والمتطرفين وعملاء الدولة الجارة الجنب، وحتى يوضع لها دستور علماني على نسق الدستور الألماني المذكور أعلاه، بغية التخلص إلى الأبد من العقدة السنية / الشيعية وغيرها من العقد التى ظلت تكبل العراق منذ عشرات السنين.

3. لن تتبقي بالشرق الأوسط بوّرات تنذر بالشر والشؤم والتربص الآثم غير حزب الله بלבنان، والحوثيين باليمن، والإخوان المسلمين بغزة وسيناء والسودان.

أما السودان، فإن حكومته فى رmqها الأخير، وقد تجاوزت عمرها الافتراضي منذ عدة سنوات، ولا تحتاج لتجريدة مثل حملة كtشنر، بل تحتاج لخطاب أكثر صرامة من البيت الأبيض الأمريكي والحكومات الغربية الأخرى، دعماً وترسيخاً لحقوق الإنسان بالسودان، حتى تنطلق المعارضة فى مساعيها المتصاعدة لإزاحة النظام بالطرق السلمية؛ وربما يحتاج الأمر لفصيلة واحدة من قوات المارينز - (Platoon = 33 جندياً بقيادة ملازم) - مشابهة لتلك التى قامت باختطاف الرئيس نوريفيqa من بنما وأودعته سجون الولايات المتحدة، لتقوم بأخذ البشير وتسليمه لمحكمة الجنايات فى لاهاي بهولندا، إذ أن حركة الدومينو التى ستعقب ذلك لن تستغرق سوى بضع سويقات يختفى أثناءها "المؤتمر الوطني" الحاكم كأنه

فقاعة صابون، مثلما تلاشى "الإتحاد الاشتراكي" الحاكم أيام الجنرال نميري إبان انتفاضة أبريل 1985 كآنه فصل ملح ذاب فى لمح البصر.

هذا هو السيناريو المثالي لحسم المسألة الداعشية إلى الأبد. ولكن السياسة لا تسير فى خط مستقيم كقضيب السكة حديد، ولا تسعى بالضرورة خلف الحلول "المثالية" تحت كل الظروف، فهناك اعتبارات جيوسياسية وتوازنات إقليمية ودولية لا تسمح لفرنسا بالإنفراد بالأمر: روسيا مثلاً دخلت فى الأتون السوري مسبقاً - كمسماز جحا - ولن تخرج من المولد بلا حمص، ولن تتخلي عن موطئ القدم الذى حازت عليه بهذا الصقع الإستراتيجي من الهلال الخصيب؛ وتركيا لا يهمها كثيراً ما يفعل الدواعش، فهم أبناء عمومة إسلاموية أصولية، ولكنها تضع عينها على الأكراد المحشورين بينها وبين داعش فى شمال شرق سوريا وشمال العراق، ولعلها تهتبل سائحة أي فوضى بهذه المنطقة لتفتك بهم تماماً، كما فعلت مع الأرمن عام 1915 أثناء الحرب العالمية الأولى - (مثل الدبيب السوداني الذى أنبأوه بوفاة خاله، فقال: "أنا حادق سرواله" كنصيبه فى الميراث).

وفى الغالب الأعم، ستلجأ فرنسا للسيناريو الأكثر محافظة وبعداً عن المغامرة، وهو تكثيف الضربات الجوية التى بدأت بالفعل مساء الأحد، مستهدفة مدينة الرقة بشمال شرق سوريا من قواعدا بالأردن والإمارات. غير أن داعش لن تتضرر كثيراً من الضربات الجوية مهما كانت دقيقة، لأنها ظلت قابضة بالخنادق والجحور والمغارات طوال العام المنصرم، ولم تكف عن أنشطتها العدوانية بكافة أرجاء الدنيا. وإذا اضطرت للفرار (السحلبة) من سوريا فى نهاية الأمر، خاصة إذا داهمتها قوات برية كالمارينز أو الجندارم الفرنسية، فإنها سوف تسوح فى الأرض، ولها عشرات المكامن التى ستجد فيها طيوراً على أشكالها تقع، بدءاً بسهل البقاع وغزة وسيناء، وانتهاءً بالسودان وغرب إفريقيا حيث الفوضى العظمى التى تنوّسّطها وتؤججها بوكو حرام؛ أو بالقرن الإفريقي، عبر الصومال وإرتريا وإثيوبيا وكينيا، حيث تتمركز الجماعات الشبابية الصومالية الأصولية المسلحة حتى أسنانها، الحليف المؤكد

للقاعدة وداعش؛ ومن أي من تلك الثقوب السوداء **black holes** سوف يستمر الدواعش في مناوشة الأنظمة الشرق أوسطية المستقرة، وسيبدأون بدعم الحوثيين في جنوب اليمن، وفي تصعيد الحرب الأهلية اليمنية وضمان استمرارها باعتبارها رمالاً متحركة تم استدراج تلك الدول المستقرة لها - حتى تزهق مواردها ويفت في عضدها ويتم شغلها عن الميادين الأخرى التي سوف يستهدفها النشاط الداعشي الهدام، مثل محاولة الاستيلاء على السلطة عبر انقلاب عسكري في إحدى الدول العربية الخليجية. وفي الواقع، يمكنك أن تتوقع أي شيء من القوى الإرهابية الممثلة في داعش والقاعدة وكافة تجليات وواجهات الإخوان المسلمين، إلا الاستسلام الكامل، فهم يحسبون أنهم الفئة الناجية، وجميع باقي المسلمين الفئات الباغية.

غير أنهم، في حقيقة الأمر، مجموعات من أنصاف المتعلمين الذين لا يحملون فكراً متماسكاً كذلك الذي بنيت عليه الدول الإسلامية الأولى، الأموية والعباسية والأموية الأندلسية؛ كما أن الظرف التاريخي مختلف تماماً: هنالك اليوم مؤسسات أسمها الأمم المتحدة بمجلس أمنها، وحلف الناتو، وهنالك إرادة الشعوب العربية والإسلامية التي يريد الإرهابيون أن يفرضوا سطوتهم عليها؛ فالطريق في نهاية الأمر لن يكون مفروشاً بالورد والرياحين أمام الدواعش للاستيلاء على السلطة في أي دولة عربية، كما فعل النازيون في ألمانيا والفاشيون في إيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية، خاصة وأن البشرية قد استبطنت الدرس النازي والفاشي، والدروس المستفادة من كافة الأنظمة الأحادية المتطرفة التي تهاوت خلال العقود المنصرمة: الشيوعية ومعسكرها بشرق أوروبا، والبعثية الصدامية بالعراق، والدكتاتوريات المطلقة بليبيا وتونس ومصر واليمن والعراق، وعما قريب سوريا والسودان.

وعلى الرغم من ذلك، فإن داعش وأخواتها سوف يستمرون كخميرة عكنة بالشرق الأوسط إذا تمكنوا من الخروج سالمين من الرقة وشمال غرب العراق. ولكن، إذا توكلت الدول التي يتألف منها الحلف المناوئ لداعش... إذا توكلت على الحي

القيوم، وهاجمت هذه المراكز الداعشية بقوات برية راجلة وعلى ظهور الدبابات والمجنزرات، فإنها سوف تضع النهاية الحقيقية لداعش، على الأقل للخمسين سنة القادمة. ولن يعني الاجتياح ولا ينبغي له أن يعني قتل كل من يختبئ في تلك الخنادق والسراديب؛ بل قد يكون من المهم الإبقاء على بعضهم أحياء حتى تستخلص منهم المعلومات الخاصة بالخلايا النائمة ومصادر التمويل والتسليح وحقيقة التنظيم الشبكي الدولي الذي ينسق بين كل الشراذم الإرهابية المبنوثة بالشرق الأوسط وإفريقيا.. وغير ذلك من العلوم والمستمسكات والأدلة التي يمكن جمعها من الأماكن التي كان يتواجد بها الدواعش.

آخر الكلام:

عندما ظهرت حركة الإخوان المسلمين بالإسماعيلية بمصر عام 1928 بزعامة حسن البنا، كانت تحت إبط المخابرات البريطانية، ومنذ أول أيامها تم تسخيرها لزرع الفتنة في صفوف القوى الوطنية الساعية للتحرر من الاحتلال الاستعماري، ليس فقط بالعمل السياسي التقليدي، بل بالعمليات التخريبية المسلحة، فنشأ الجناح العسكري لجماعة الإخوان منذ بواكير أيامهم، وانخرط في التفجيرات والاعتقالات السياسية - (منذ الخازندار والنقراشي باشا، حتى فرج فودة... والنائب العام هشام بركات... إلخ).

ثم دخلت المخابرات المركزية الأمريكية على الخط بظهور الولايات المتحدة بعد الحرب الكونية الثانية كالمقطب الأعظم الموازي للاتحاد السوفيتي، وتبنت الإشراف على تنظيمات الإخوان المسلمين بالشرق الأوسط، وعملت على تسخيرها كترياق مضاد للشيوعية والحركات التقدمية حيثما وجدت، في إطار الحرب الباردة. ولما دخل الاتحاد السوفيتي أفغانستان بدعوى التضامن مع نظام ثوري اشتراكي جاء للسلطة بتلك الدولة الإسلامية بنهاية سبعينات القرن العشرين، لجأت المخابرات الأمريكية

للتنظيمات الإخوانية بالشرق الأوسط وجندت منسوبيها لخوض الجهاد ضد الغزاة الروس. وبعد خروج الإتحاد السوفيتي كان الجني قد خرج من القمقم كذلك، فظهرت "القاعدة" بقيادة أسامة بن لادن ونفر من الكوادر الإخوانية المصرية، ومنها تناسل العرب الأفغان الذين عادوا للشرق الأوسط كخلايا نائمة، وخرجت التنظيمات الإرهابية الأصولية بكافة أرجاء العالم العربي وشرق وغرب إفريقيا، بكافة المسميات، كالقاعدة في الصحراء الكبرى، وحركة الشباب المجاهدين بالصومال، وبوكو حرام في نيجيريا، ودولة الخلافة الإسلامية في العراق والشام (داعش).

إن مقدرة هذا التنظيم على البقاء على الرغم من النكسات التي تعرض لها في أفغانستان بعد الغزو الأمريكي عام 2001م، ثم بعد تصفية أسامة بن لادن مؤخراً، أكسبها شيئاً من الغرور، ودفع الفلول المتناثرة بالشرق الأوسط من الأفغان العرب ومجنديهم الأغرار أبناء الطبقات الميسورة العربية (المتربة بالجهالة والضلالة) لتنظيم صفوفهم والإقدام على مغامرة إنشاء دولة - إما بسيناء أو بالشام أو العراق، وربما كان ذلك مرة أخرى بإيعاز وتشجيع من المخابرات الأمريكية، كما ألمحت هيلاري كلنتون في مذكراتها، كرد فعل على الربيع العربي وما ينذر به من ثورات وتحولات تكتونية قد تؤثر على المصالح الأمريكية بالشرق الأوسط، خاصة بالدول النفطية، وعلى سلامة إسرائيل.

ولكن، مرة ثانية انسل الجني من القمقم، وانقلب السحر على الساحر، فجاءت التفجيرات الإرهابية في أمريكا وإنجلترا وفرنسا لتشير إلى أن شهية الإخوان المسلمين قد تفتحت ليس لحكم الدول العربية فقط، إنما لهزيمة الغرب النصراني في عقر داره، وقيام الخلافة الجديدة العابرة للحدود والشاملة لكل القارات، كالدولة الأموية والدولة العباسية.

على كل حال، أخطأ الإخوان الدواعش خطأً تكتيكياً فادحاً بالتمركز في حيز جغرافي معلوم بشرق سوريا وغرب العراق - وسرت؛ وهذه فرصة للقوى المناهضة لهم للتخلص منهم تماماً - وذلك بالدخول إلى أوكارهم بقوات المارينز والجندرمة

الفرنسية، وليس بالقصف الجوي فقط. إنك إذا لقيت ثعباناً ساماً يتلوى أمامك، يتوجب عليك أن تهوي على يافوخه بعصاك الغليظة (العكاز المضرب)، ولو أصبت أي جزء آخر من جسمه غير الرأس تكون قد منحتة فرصة جديدة للحياة، لأنه سيندس مسرعاً وسط الأعشاب والأدغال، ليتكاثر ويتناسل ويتربص بك مرة أخرى. ولدغة واحدة منه كافية لإرسالك للدار الآخرة.

الجنوب وبرق السلام الخُلب

سعدت كثيراً بخبر الأربعاء عن اتفاقية الصلح بين سلفاكير وجيشه والدكتور ريك مشار وفصيله المحارب بجوبا، وأتمنى أن تكون الحرب الأهلية قد وضعت أوزارها بالجنوب، وأن تبدأ مسيرة التقدم الاقتصادي والتحول الاجتماعي بذلك الجزء العزيز من القارة الإفريقية؛ بيد أن ثمة أسئلة وعوامل موضوعية تحدث شيئاً من التشويش على هذه الصورة الزاهية، وتشكك في استدامة السلام واستقرار الأحوال، وهي:-

أولاً:

عاد نفس الطاقم الذي بات مهيمناً منذ ما قبل وبعد قيام دولة الجنوب في عام 2011م؛ نفس الطاقم الذي أشعل الحرب بين الدينكا (قبيلة الرئيس سلفا كير) والنوير (قبيلة نائية آنذاك و الآن د. ريك مشار)، بينما انقسمت باقي القبائل النيلية (وهي الشلك تحديداً) والاستوائية (الباريا واللاتوكا والأشولى والمورو والمادي والزاندي) وقبائل الفرتيت (المورلي والتبوسة) بين المعسكرين حسب مصالح الكوادر المتنفذة هنا وهناك وحسب ارتباطاتهم وشرائكاتهم البنزسية المشبوهة مع كبار رجالات الدولة الجنوبية؛ وربما اتفق المعسكران على إعادة اقتسام الثروة (السلطة والثروة) مع الإيقاف التكتيكي للعدائيات، ولكنه سيظل كالصفقات المافيوزية في شيكاغو العشرينات والثلاثينات الخاصة باقتسام ريع أسواق الخمر البرشوتية bootlegging أيام تحريم بيع الكحول في الولايات المتحدة (مثلما حدث في السودان على أيام النميري وإعلان قوانين الشريعة - أغسطس 1983)، أي أنها اتفاقيات زنبقية ثعلبية وغير مضمونة الاستمرارية وليست استراتيجية.

ثانياً:

ولغت حكومة الجنوب في الحروب اللانهائية طوال الخمس سنوات المنصرمة: بينها وبين الشمال في أعالي النيل وأبيي ومناطق إنتاج النفط الواقعة على الشريط الحدودي بين الشمال والجنوب؛ وبينها وبين المجموعات المتفلسة الحاملة للسلاح بشتى أركان الإقليم مثل جيش الرب؛ وبين جيش الرئيس ومليشيا نائبه حتى توقيع الاتفاق المذكور. أي أن الطاقم الحاكم برمته متدرب و متمرس ومدمن للاقتتال؛ أما بناء الدولة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، فذلك شأن آخر ظل معطلاً منذ عشرات السنين، وليس هنالك أي بارقة تشير للتعاطي معه الآن، إذ لا توجد خطط أو برامج محددة ومدروسة ومتفق عليها، ولا توجد كوادرات أو آليات لتنفيذ أي مشاريع زراعية أو صناعية أو سياحية، لا بالعاصمة جوبا ولا في مطلق الريف الجنوبي.

ثالثاً:

ظلت حكومة الخرطوم تلعب دوراً تآمرياً وتحريضياً منذ انفصال الجنوب في نوفمبر 2011 انتقاماً وحقدًا وتخريباً باعته الشر المتأصل في تنظيم الإخوان المسلمين ضد الآخر، وضد كل من ليس منهم؛ بل يزعم الكثير من المراقبين أن الحرب الأهلية في الجنوب كانت بتمويل مباشر من نظام الشمال الذي لم يخف علاقته الحميمة والمستديمة مع الدكتور ريباك مشار؛ ومما يدل على تأمر الشمال غياب حكومته عن سيناريو الاتفاق الذي تم هذا الأسبوع، وغيابها عن أي محاولة لرأب الصدع الجنوبي، سواء على المستوى المحلي أو الإقليمي أو القاري. ومن الواضح أن الإخوان المسلمين مصرون على تأديب الجنوبيين وعلى إعادتهم لبيت الطاعة بعد تمرير أنوفهم في التراب. والحالة هذه، فإن استدامة السلام في الجنوب وإيجاد أي نوع من الاستقرار فيه رهين بزوال النظام الدكتاتوري الإخواني الحاكم بشمال السودان، لمصلحة شعبي الجنوب والشمال، ومن أجل العودة لنوع من الوفاق

الكنفدرالي بينهما تحت رايات الحرية والديمقراطية والشفافية والوطنية والتجرد والأمانة والنزاهة والبعد عن استحلال ونهب المال العام وتسخير الدولة لإثراء الأفراد المهيمنين عليها (كما هو الحال الآن في الشمال والجنوب على حد سواء).

رابعاً:

إن الثأرات التي تراكمت بين الفصائل المتقاتلة عبر السنتين الأخيرتين أبعد غوراً وأكثر دموية وفظاظة من أي حرب شهدتها الجنوب في المائة سنة الماضية؛ فلقد رأيت فيديو قبل عام لمجموعة من أبناء الدينكا يذبحون رجالاً من النوير على شفا حفرة ضخمة كانت بمثابة القبر الجماعي لهم؛ وشاهدت فيديو آخر لمجموعة من النوير يدفعون برجال ونساء وأطفال من الدينكا إلى حفرة بها نار شديدة الاشتعال ليلقوا حتفهم بطريقة أبشع مما يتصور الخيال مهما جنح؛ ورأيت في برنامج وثائقي للبي بي سي الأسبوع الماضي حوارات مع نساء وأطفال من قبيلة النوير بمعسكرات أدهوكية بعد أن دمر الدينكا قراهم وأحرقوا بيوتهم، ولما سألت المذيعة طفلاً في السادسة من عمره عن أمنياته المستقبلية قال إنه يحلم بأن يصبح رجلاً ليقتل الدينكا. لماذا؟ قال: "لأنهم ذبحوا أمي وأبي أمامي".

إن تجاوز مثل هذه الضغائن والمرارات يحتاج لعشرات السنين من الاستقرار وإعادة التأهيل والتربية والتعليم والإعلام الإيجابي التوعوي المسؤول، كما يحتاج لدولة راسخة وقوية بمؤسساتها من قضاء وأمن وشرطة متطورة ومتحضرة ومتواجدة بالأمصار والdsaكر وفي عرض الخلاء وبطون الغاية؛ وذلك ما لم ولن يتحقق في القريب العاجل، حتى لو عادت الوحدة بين الجنوب والشمال.

خامساً:

إن عدم الاستقرار ليس سمة خاصة بالجنوب لوحده، ولكنه يشمل كل دول الجوار والمناطق المحيطة: فإلى الشمال من ولاية أعالي النيل مباشرة تزمجر حرب أخرى عمرها ثلاث سنوات بين حكومة الخرطوم والحركة الشعبية قطاع الشمال - وتحديداً بين قبائل النوبة المستوطنة بجبالها بجنوب كردفان وحكومة الخرطوم الإخوانية الرافضة لطرح الحركة الشعبية المتمثل في "السودان الجديد"، السودان العدالة والمساواة على أساس المواطنة، وليس السودان الإخوان المسلمين الذي يجعل من أصحاب الأديان الأخرى - مثل غالبية النوبة - أهل ذمة يدفعون الجزية وهم صاغرون. وإلى الشرق والشمال الشرقي من الجنوب توجد الفياقي والمرتفعات الإثيوبية التي تعبرها الشراذم الصومالية المتطرفة الحاملة للسلاح، جيئة وذهاباً من وإلى كينيا الواقعة إلى الجنوب الشرقي من الجنوب، وذلك منفذ آخر للقوى الشيطانية الساعية لزرع الفتنة والقلق بكل القرن الإفريقي وشرق إفريقيا. وإلى الجنوب والجنوب الغربي هنالك يوغندا وزائير وإفريقيا الوسطى، وكلها مناطق معروفة بالاضطرابات والانقلابات والحروب القبلية المستمرة (وبوكو حرام).

وهكذا، فإن الجنوب لن يحظ بجار ملائم لتبادل المنافع أو للتجارة البينية السلسة المستدامة، خاصة وهو دولة لا تطل على البحر **landlocked**؛ ولا يمكن نسيان مرارات الحرب والانخراط في البناء السلمي للجنوب بدون الاستقرار الاقتصادي الذي يجلب الرخاء للبلاد، أو على الأقل ذلك الذي يضمن التدفق الدائم والامن للإغاثة بضروريات الحياة من غذاء وكساء ودواء وقطع غيار وغيرها. ذلك هو كعب أخيل الجنوب في الوقت الراهن، خاصة إذا تذكرنا أن حكومة الشمال قد أوقفت أي تعامل تجاري مع الجنوب، كما توقفت عن المساهمة في توصيل الإغاثات الإنسانية القادمة من الدول الغربية لمعسكرات النازحين وضحايا الحرب بذلك الجزء من العالم. هذا هو حال الجنوب الآن.

ولكن دعنا نطلق العنان للخيال ونتصور الأحوال إذا لم ينفصل الجنوب:

- إن استمرار الوحدة كان مشروطاً باستحقاقات "السودان الجديد"، وهي أن نجعل من الوحدة أمراً جاذباً خلال الخمس سنوات الانتقالية - ما بين توقيع اتفاقية نيفاشا في يناير 2005 والاستفتاء على الوحدة أو الانفصال المقرر له نوفمبر 2011. وبالطبع لم تنجز حكومة الإخوان المسلمين أيّاً من الوعود المضمنة في اتفاقية السلام الشامل CPA:
- فهي لم تبطل مفعول القوانين القمعية التي ظلت تستخدمها للبطش بالشعب السوداني منذ استيلائها على السلطة في يونيو 1989 حتى يومنا هذا.
- وهي لم تنفذ أي مشروع تنموي أو بنيوي بالجنوب، ولم تعبد طريقاً برياً واحداً يربط شطري البلد ببعضهما البعض، ولم تقم بالصيانة اللازمة لخط السكة حديد الوحيد الذي يتناهى إلى مدينة واو بالطرف الشمالي الغربي من الجنوب، وظل ذلك الخط معطلاً منذ أيام الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب إلى الآن. أما خط الملاحة النهرية الذي كان يربط جوبا بالخرطوم فقد توقف بصورة شبه كاملة.
- وهي لم تشرع في أي برنامج تعليمي أو تربوي أو إعلامي أو ثقافي يعزز جسور التفاهم بين شعوب الشمال الناطقة بالعربية: (إذا تغاضينا عن المجموعات الضخمة بالشمال التي ترطن بلغات أخرى؛ كالنوبية، أي المحسية والدنقلوية والكنزية؛ والبجاوية، أي الهندودية والبنّي عامرية والأمراوية والخاصية؛ والنوباوية والزغاوية والفوراوية والمسلاتية والإنقسناوية.. الخ) وشعوب الجنوب الناطقة بعشرات اللغات البانتوية والسودانية والإفريقية، والتي تربط بينها اللغة العربية كلنقوا فرانكا *lingua franca* - وهي بالتحديد "عربي جوبا".

وعلى العكس من ذلك، أخذت حكومة الخرطوم منذ توقيع نيفاشا، أخذت تعد العدة للانفصال كأنه هدف نبيل يتطلع إليه شعبا جنوب وشمال السودان؛ ولقد كان ذلك واضحاً خلال الاضطرابات التي عمت الخرطوم على إثر استشهاد الدكتور جون قرنق في حادث طائرة عمودية بالجنوب أثار الشكوك والاتهامات المتبادلة، وذلك بعد بضعة شهور من بدء تنفيذ الاتفاقية، ومن استقرار الشهيد قرنق ورفاقه بالخرطوم كجزء من الحكومة التي تحولت إلى حكومة انتقالية تنتهي باستفتاء 2011م.

ولقد بدأت الاضطرابات بالتظاهرات العفوية والتلقائية والسلمية لأبناء الجنوب القاطنين بالعاصمة المثلثة - حزناً على الراحل قرنق، وربما خالطها شيء من التصرفات الاحتجاجية البسيطة، مثل الاعتداء على سيارات العسس؛ بيد أن رد الفعل كان عنيفاً ومبالغاً فيه من قبل الجهات الرسمية والشعبية، إذ تعرض الجنوبيون للتصفيات الجماعية وللحرق والذبح والتعليق فوق الأعمدة وأغصان الشجر كما حدث في مذبحه نوفمبر 1965- (عندما خرج الجنوبيون من مطار الخرطوم منزعين وغاضبين بسبب تأخر طائرة وزير الداخلية كلمنت أمبورو التي أشيع بأنها قد سقطت؛ خرجوا آنئذ في مظاهرات احتجاجية بسيطة، ولكن رد الفعل الشرطي والجماهيري كان مذهلاً ومأساوياً، ولما لاذ الجنوبيون بالكنيسة الكاثوليكية بشارع القصر، أضرمت فيها النيران، ومن خرج منها تعرض للضرب حتى الموت؛ كما خرج فرسان الحلفاية والفتيحاب على صهوات الخيل، وأرزم النحاس وزغردت النسوة، وحصدوا بالسيوف والقنا كل الجنوبيين البريئين الذين صادفهم بطرقات بحري وأم درمان والخرطوم).

وفي هذه الأثناء، نشطت التيارات الشوفينية وسط الحركة الإسلامية، مثل منبر الخال الرئاسي الطيب مصطفى الداعي لانفصال الجنوب بلا أي مضغ للكلمات، (المسمى زوراً بمنبر السلام وهو حقيقة منبر الحرب والفتن والعنصرية). ومع كل يوم يقترب من الاستفتاء، تصاعدت وتفاقمت كل أنواع المضايقات العنصرية غير

الإنسانية للجنوبيين المقيمين بالخرطوم وبكافة مدن الشمال منذ عدة أجيال، مما جعلهم يحزمون أمتعتهم ويتوجهون نحو الجنوب قبل قرار الانفصال الذي أعقب الاستفتاء.

ولو لم يحدث ذلك، أي لو لم تنتكر حكومة الإخوان لاتفاقية نيفاشا، ولم تدفع الجنوبيين للتصويت ضد الانفصال، لما أضحت الأوضاع كما هي الآن، خاصة إذا بقي جون قرنق على قيد الحياة. باختصار شديد، كنا سنخلق بأجنحة "السودان الجديد":

- كانت الحريات ستكون مبذولة لآخر مدى، في مجالات التنظيم والتعبير، وذلك يعني حياة عامرة بالأحزاب والفعاليات والتيارات السياسية والفكرية المتحاوره مع بعضها البعض والتي هي أحسن وبالوسائل الديمقراطية المتحضرة.
- وإذا قامت أي انتخابات تحت هذه الظروف المثالية فإنها ستكون شفافة ونزيهة، وسوف تقود لنتائج مرضية لكل الأطراف، وبلا أدنى شك كانت البلاد قد تخلصت من الاتجاهات الإرهابية والمتطرفة والشوفينية بلا تكلفة في الأنفس والثمرات تحتاجها الانتفاضات والثورات والتحولت الدموية.
- وإذا استقرت الأوضاع في السودان، وإذا صوّت الجنوبيون لصالح الوحدة، فإن السودان كان سيعود مارداً كما كان بعد ثورة أكتوبر 1964، عندما استضاف مؤتمر اللاءات الثلاثة الذي تمت فيه المصالحة بين عبد الناصر والملك فيصل عليهما رحمت الله؛ أي أن السودان كان سيستعيد ريادته وزعامته الأخلاقية على نطاق الوطن العربي، وبالنسبة لدول منطقة التحرر الوطني الإفريقي، وذلك لأنه داعية سلم وديمقراطية وحرية تعبير وتنظيم، وليس لأنه مضخة لرسالة معينة كدولة الإخوان المسلمين الحالية المرتبطة بمحاور الشر الإقليمي والعالمي - مع بوكو حرام بغرب إفريقيا، والقاعدة بليبيا وشمال الصحراء الكبرى، وبتنظيم الإخوان المسلمين الدولي، وبعلاقات

مشبوهة مع كل من تركيا وإيران من جانب، والصين وروسيا من الجانب الآخر.

- إن السودان المطمئن والمستقر والامن تحت ظلال الحرية والديمقراطية هو الذي يجتذب صداقة الحكومات والشعوب من مشارق الأرض ومغاربها، وفي مثل تلك البيئة تتولد المصالح المشتركة والاستثمارات وفرص التعليم والتدريب (كما كان عليه الحال منذ أيام الاستعمار حتى حكومة نميري 1969-1985)، كما تأتي أفواج السواح، وينتفش الاقتصاد وتنشط التجارة، ويصبح للسودان ومنتجاته وزناً عالمياً وسمعة تطبق الآفاق.

بيد أن هذه أضغاث أحلام؛ ولا مفر من مواجهة الواقع الكالح الذي يعيشه الآن كل من السودان والدولة الجديدة المسماة جنوب السودان، وهو واقع ميئوس منه تقريباً حتى إشعار آخر، واقع يتميز بالآتي:

- حكم دكتاتوري بشع في كل من الشمال والجنوب.
- تردى اقتصادي لا شبيه له في العالم، باستثناء مناطق شبيهة به مثل الصومال.
- سيناريوهات من الحروب الإقليمية المتصلبة، بلا أي ضوء في آخر النفق، كما هو الحال في دارفور وجنوب كردفان والنيل الأزرق.
- الحرب الأهلية في الجنوب قابلة للاشتعال مجدداً حسب الظروف المذكورة آنفاً.... إلخ.

ما الحل؟

- لن يكون الحل عن طريق التودد للدول العربية النفطية فجأة ووضع الجيش السوداني تحت خدمتها؛ كان الأجدر بمثل القوات التي ذهبت لليمن أن

تساهم في حل المشاكل السودانية، أو، إذا لا بد من التدخل في شؤون الآخرين، في تأمين السلام بالجنوب.

- وماذا ستفعل هذه القوات إذا التأمّت الفصائل اليمنية ورتقت فتقها وتوصلت لصلح وطني كما حدث عشرات المرات في تاريخها البعيد والقريب؟ أم هل أصبح الجيش السوداني مفرزة من المرتزقة صالحة للاستخدام في أي مكان بالوطن العربي؟ وهل ستكون المغامرة التالية في العراق أو سوريا أو البحرين؟ الله أعلم.

- هذا وغيره من القرارات العشوائية صادرة عن نظام فقد بوصلته، وحاصرت محكمة الجنايات الدولية رئيسه من كل الجهات، وفقد موارده النفطية مع ذهاب الجنوب، وجفت ثرواته الزراعية بانهيار مشروع الجزيرة وإفلاس الزراعة الآلية بوسط البلاد وتوقفها تماماً بجنوب كردفان، وأفرغت خزائنه العامة من مواردها التي تحولت إلى أرصدة خاصة في سويسرا وجزر البهاما وماليزيا وبعض الدول العربية بأسماء متنفذى النظام وقادة المؤتمر الوطني.

- والحالة هذه، لا مفر من القضاء على نظام الإخوان المسلمين عن طريق هبة شعبية سلمية على نسق ثورة أكتوبر 1964 وانتفاضة أبريل 1985، ويا حبذا لو دعمتها هذه المرة ثمة وخزات (نخسات) عسكرية من قبل الحركات الحاملة للسلاح، بالتنسيق الجيد مع بعضها البعض، وبقيادة كل من الدكتور جبريل إبراهيم والكمادر مالك عقار والكمادر عبد العزيز الحلو والقائد ياسر عرمان.

- ولا بد من ثمة حل في الشهور إن لم يكن الأسابيع القادمة.
والنصر معقود لواؤه بشعب السودان - شماله وجنوبه.

التقية والرمال السودانية العربية المتحركة

لم أصدق حاستي السمع والبصر وأنا أتابع الندوات التي تم تنظيمها بالخرطوم بحري وأم درمان وعطبرة والأبيض احتفاءً بثورة 21 أكتوبر العبقريّة، وعجبت للنظام القمعيّ الذي سمح بهذا الزخم الثوري على الرغم من قبضته الأمنية التي تصلّبت تماماً بعد ربع قرن من التضييق على شعب السودان وكتم أنفاسه؛ وظننت أنها مجرد اختبار (تسته) نزولاً عند نصيحة محمد المعتصم حاكم الذي قال لهم قبل أيام عبر برنامج تحليلي بقناة النيل الأزرق شارك فيه مع تلك السيدة (المقعدة) بدرية سليمان، قال لهم: (دعوا هذه الندوات تمرّ كما شأنت لها الأحزاب التي طالبت بها، فهي فرصة لمعرفة السند الجماهيري الحقيقي لتلك الأحزاب) وكأنه قد استدرجهم دون أن يدري (أو ربما بإدراك راسخ في عقله الباطن منذ أيام النضال فيما قبل الانتكاسة الكاوتسكية.... إدراك بحتمية الثورة)، وكأنهم قد ازدردوا الطعمة وسمحوا بالندوات، وإذا بها تستقطب عشرات الآلاف من الوطنيين السودانيين، فاختلطت الألوان، وأصبح من العسير تحديد الانتماءات الحزبية لتلك الجماهير.

وفي هذه الأثناء، خرج الجنّي من القمقم، وستتوالى هذه الندوات داخل وخارج حيّشان الأحزاب وفي الجامعات وبالميادين ذات الدلالات التاريخية - كميدان المدرسة الأهلية بأم درمان المجاور لكل من بيت الزعيم الأزهري ومنزل أسرة الشهيد عبد الخالق محبوب وبيت أول أمين عام لحزب الأمة - عبد الله خليل - أحد مؤسسي جمعية اللواء الأبيض وأحد قادة ثورة 1924؛ ولن يكون أمام النظام إلا أن يقطع الطريق أمام هذا السيل المنهمر، فينكشف موقفه الحقيقي المناوئ لحرية التعبير، وتنفضح طبيعته الحربائية المراوغة - وفي هذه الحالة تدرك الجماهير أن

الندوات فعلاً سلاح بتار وأداة فعالة، فتصر على إقامة المزيد منها، حتى يبلغ الطرفان - النظام والشارع الثائر - نقطة المواجهة المكشوفة في عرض الشارع، أو ما يسميه الماركسيون "الأزمة الثورية".

وما هو الدور الحقيقي الذي تلعبه الندوات:

1. إنها ضربات متتالية خفيفة باليسرة upper cuts and jabs حتى تأتي اللكمة المباشرة الكبرى باليمنى hook التي يتمرن الشارع الآن على "تكوين قبضته" استعداداً لها - والتي ستكون بمثابة الضربة القاضية knock out.

2. وإنها تدريب و تثقيف للجماهير بمرافعات ووجهات نظر الفعاليات المكونة للمعارضة، كل بطرحه الحامل لرؤيته الإيديولوجية والنضالية في إطار المحتوى الوطني المشترك، أي بالطريقة التي تجعل كل قوى المعارضة منصهرة في برنامج تكتيكي مرحلي موحد يتلخص في: - ذهاب النظام الراهن بلا قيد أو شرط - قيام حكومة تكنوقراط وطنيين موقوتة بأربع سنوات - إطلاق الحريات - إيقاف الحروب - تقديم رموز القمع والفساد للمحاكمات القضائية الناجزة - محاولة إعادة الجنوب لثمة اتحاد كنفدرالي. - الإعداد للمؤتمر الدستوري والانتخابات الرئاسية والبرلمانية بنهاية الفترة الانتقالية - تنفيذ برنامج إنعاش وإنقاذ اقتصادي للمدى القريب.

3. وإنها حاضنة للكوادر الوطنية الخطابية والتنظيمية التي أبلت بلاءً مميزاً في ترتيب تلك الندوات، والتي سيبرز من أحشائها قادة المرحلة الانتقالية، البديل الشرعي للطغمة الصعلوكية الحاكمة في الوقت الراهن.

ومهما يكن من أمر، فإن حكومة الإخوان المسلمين قد دخلت في جحر ضبّ خرب، وهي تبحث عن مخرج، تارة بمسرحية الحوار الوطني، وتارة "بفتح الجزيرة" للمعارضة والسماح بالندوات.... وهكذا؛ بيد أنها ما برحت في نفس الوقت تمنع حرية النشر

وتلاحق الصحفيين وتمارس الرقابة القبلية واللاحقة - أي مصادرة الصحف بعد السماح لها بالطباعة، كما قامت بمصادرة العديد من المؤلفات والروايات التي يشتم منها نقداً للنظام من معرض الكتب الحالي بالخرطوم، مثل روايات عبد العزيز بركة ساكن.

وعلى الجبهة الخارجية، ما انفكت السلطة الإخوانية تطلق بالونات الاختبار وتمارس البهلوانيات والقفزات في الظلام التي يقصد منها صرف الأنظار عن الحراك الداخلي الذي أوشك أن يطيح بها: -

- وهنا تقفز لسطح الأحداث القوة العسكرية ذات الألف ضابط وجندي التي وصلت إلى عدن بالفعل، لتتبعها ستة آلاف أخرى في وقت لاحق. ومن الصور التي بثها الإعلام يبدو جنودنا "كالبصلة في الروب"، فهم داكنو البشرة في الغالب الأعم، ومعظمهم من جبال النوبة وغرب السودان وجنوب النيل الأزرق، وقد يكون بينهم مسيحيون أو أصحاب ثقافات وأديان ومعتقدات سابقة للإسلام، زجت بهم الحكومة في الأتون اليمني العربي. (وبالمناسبة، كما أوردت البي بي سي مؤخراً فإن اليمن تعدّ من آخر الدول التي تمارس الرقّ حتى اليوم، وهناك أحياء كاملة بصنعاء وغيرها من الحواضر اليمنية ينتحي الأرقاء فيها أركاناً هامشية بحالة تذكر بالإنسان الأول). ومن المؤكد أن كثيراً من اليمنيين العنصريين بالسليقة سوف يتساءلون: كيف يحرّنا من الحوثيين من هم أنفسهم يحتاجون لمن يعتقهم؟

- وهذه القوة العسكرية الاحترافية مدفوعة الأجر لا مكان لها من (الإعراب) في شبه الجزيرة، إذ يقول المثل السوداني: " الزاد إذا ما كفى البيت حرم على الجيران؛... " وكان الأجدر بحكومة السودان أن تنهي الحروب المستعرة بدارفور وكردفان وجنوب النيل الأزرق أولاً، أو أن ترسل مثل هذه المفزة إلى الجنوب علّهم يدراون الحرب الضروس بين الدينكا والنوير، (الأولى

بقيادة سلفا كير، والثانية برئاسة الدكتور ريك مشار)، وهي حرب ظلت مشتعلة منذ ثلاث سنوات، وليس هنالك من دول الجوار من هو مؤهل للعب دور الوساطة فيها غير شمال السودان، والجيش السوداني هو الأدرى بتضاريس الجنوب الجغرافية والثقافية والإثنية واللغوية بحكم وجوده هناك طوال الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب، منذ عام 1955م حتى اتفاقية نيفاشا للسلام الشامل عام 2005م.

وإذا فرضنا جدلاً أن حكومة البشير لعبت هذا الدور التوفيقى بالجنوب فإنها ستعود بجميل يطوق أعناق الجنوبيين، وربما يكون ردّه متمثلاً في إعادة ذلك الجزء العزيز للحمة الوطن. أما "التلبّط" في العرب العاربة والتورّط في حرب عصابات بمرتفعات وأخاديد جنوب الجزيرة العربية، فهذا ضرب من الخبل (العوارة) التي كلفتنا كثيراً منذ أن قفز الإخوان المسلمون إلى السلطة في السودان قبل ربع قرن، وستكلفنا أكثر بكثير إذا لم يذهب هذا النظام في الأيام القادمة، وإذا لم تتمكن الحكومة الانتقالية من استدعاء هذه القوات العسكرية السودانية التي تناهت إلى عدن.

لقد خبر الجيش المصري وقع القنا وخفق البنود وقرقعة السلاح في اليمن على أيام جمال عبد الناصر، منذ إعلان الوحدة المتعسّرة بين سوريا ومصر في 1958 والتي لحقت بها اليمن بعد قليل؛ ولقد انسحبت سوريا من تلك الوحدة "المهيبّة" عام 1961، واستمرت مصر لوحدها في اليمن تحارب ضد القوات اليمنية "المتمرّدة" المدعومة من قبل السعودية، و تتجشّم كل يوم ضحايا وتكاليف ومعنويات منهارة؛ ووجدت نفسها معزولة في العالم العربي الذي كانت تحلم بقيادته، ومهزومة ومهيضة الجناح بعد نسخة 1967، ولم ينقذها إلا مؤتمر اللاءات الثلاثة بالخرطوم الذي حقق الصلح بين عبد الناصر والملك فيصل عليهما رحمات الله، وضمن التمويل السخي للمجهود الحربي الموجّه نحو العدو الأُوحد للأمة العربية وهو الكيان الصهيوني واستعمار الاستيطاني لفلسطين؛ كما قررت مصر في تلك الأيام الانسحاب بلا قيد أو شرط من اليمن لأنها اكتشفت فجأة أن الدم العربي يجب ألا

يهدر بواسطة يد عربية، والعربية لا توضع أمام الحصان، والتناقض الثانوي بين أبناء العمومة والخؤولة لا يقدم على التناقض الجوهري بينهم وبين العدو الصهيوني المشترك.

وما زالت مشكلة اليمن كالرمال المتحركة أو الـ quagmire، كلما أوغلت فيها كلما أصبح الخروج منها أكثر صعوبة؛ وإن المرء يتساءل: ما الذي دعا "لعاصفة الحزم" من الأساس؟ وسيكون الرد بالطبع هو ألا مفر من التصدي لانقلاب الحوثيين المدعومين من إيران. حسناً، لماذا لم تتحرك الجامعة العربية كلها وتصدر قراراً بشجب ذلك الانقلاب وتتبعه بتكوين قوة مشتركة ترسلها لليمن مثلما فعلت مع لبنان أيام حربها الأهلية في سبعينات القرن العشرين، (تلك القوة التي كانت بقيادة اللواء السوداني عبد الماجد حامد خليل)؟ لماذا تتصدى لهذا الأمر فقط السعودية والإمارات، وتابعهما النظام السوداني "كالأطرش في الزفة"، والنظام المصري الذي قدم كلاماً معسولاً فقط -lip service- ولم ولن يتورط مرة أخرى في اليمن "السعيد"؟ وما هو السقف الزمني لهذه العاصفة؟ وهل ستوقف إيران عن دعمها للحوثيين، ودعمها للعلويين في سوريا، وللشيعة في العراق؟ أرى أن إيران تلعب لعبتها بإتقان دقيق، وأن الفوضى التي تنشدها إيران قد عمت الشرق الأوسط بالفعل، وهناك من يزدون الحريق خطباً ويتظاهرون في نفس الوقت بأنهم مع الساعيين لإطفائه. هذا ما أشار إليه الدكتور هنري كسنجر في مقاله الذي نشرته الإكونومست الأسبوع الماضي، ولقد أشار كسنجر بالتحديد إلى روسيا وإيران، إذ تسعى الأولى لتحقيق طموحاتها الإمبريالية البائدة منذ عهد القياصرة، وذلك بالتوسع جنوباً وتشديد قبضتها على الجيوب الإسلامية في أطراف إمبراطوريتها الجنوبية والجنوبية الشرقية، وإيجاد منافذ برية تربطها بالمياه الدافئة (في الأبيض المتوسط والأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي)، واستخلاص نصيبها من تجارة الشرق الأوسط الصادرة والواردة. أما إيران فهي ما فتئت تتربص بالدول العربية الناجحة والمستقرة والمتحالفة مع الغرب، وهي كذلك لديها أحلامها بالرجوع للإمبراطورية الساسانية الفارسية التي حكمت هذه المناطق في سالف الأزمان.

أما روسيا، فقد أخذت معالم سياستها تجاه الشرق الأوسط تتكشف رويداً رويداً: فهي مع نظام الأسد ضد الشعب السوري، وضد قوى التحالف التي ظلت تقصف مواقع الجيش السوري منذ ثلاث سنوات؛ ثم دخلت الحرب بصورة مباشرة، مستهدفة كل من له لحيّة، داعشاً كان أم جبهة نصرة أم إخوان مسلمين، بما في ذلك العناصر العلمانية المعتدلة المدعومة من جانب الولايات المتحدة والغرب. وإذا لم يتم حل المشكلة السورية على وجه السرعة بإزالة نظام الأسد وفرض إرادة الشعب، فإن الحل الذي سوف تتمخض عنه الحرب الراهنة سيفرض روسيا وجيشها كأرقام أساسية في المعادلة السورية، وربما في الشرق الأوسط برمته، وستصبح سوريا مثل كوبا في النصف الغربي من الكرة الأرضية أيام الحرب الباردة، أو مثل إثيوبيا على أيام منقستو هايلي مريام في إفريقيا بسبعينات و ثمانينات القرن العشرين، والله وحده يعلم أي أثر سيكون لسوريا المحشوة بروسيا على دول الجوار، العراق ولبنان والأردن، وعلى المنطقة بأسرها.

وأما إيران، فهي دائماً تذكرني بالصراع الذي كان محتدماً في قرية أمي وأبي المسماة قنتي (بمركز مروي) بين عمدتها وكجورها - شيخ خلوتها (مدرسة القرآن)، أحدهما ابن عم والدتي والآخر ابن عمتها؛ فلقد احتدم الخلاف بينهما ووصل درجة الاشتباك بالأيدي by proxy، فبعث شيخ الخلوة الفقيه مصطفى ود السيد رسالة شكوى للحاكم العام Governor General في الخرطوم ضد العمدة، جاء فيها: (إنه ابن خالي وأنا أعرفه؛ يحيطني بشباكه ويضربني بأيدي غيره؛ فقد سلط علي قوماً يدعون المشاوين، طوالهم كالجبال وقصارهم كالجمال؛ أحاطوا بي من كل أقطاري وأوسعوني ضرباً وركلاً؛ ولو حركت يداً أو رجلاً لصرت من الهالكين!). وعلى هذا المنوال، فإن إيران تشن حرب استنزاف على جيرانها المتفوقين عليها اقتصادياً (وليس عسكرياً) والمستقرين والسعداء، خاصة السعودية والإمارات؛ ويبدو أنها لا ترغب في أي مواجهة مباشرة مع هذه الدول في الوقت الراهن لأن أمرها سينكشف، ولأن الغرب لن يرضى - فأثرت الحروب غير المباشرة، في الساحات العراقية والبحرينية والسورية واليمنية، علها تساهم في تصعيد

الفوضى الراهنة وفي إرباك موازين القوى بشكل أو بآخر؛ وربما تنجح في غمار هذه العواصف المعتكرة في أن تبدو كأنها قوة معتدلة ويمكن التعايش معها، فتدخل في تفاهات معيّنة مع الغرب (بالإضافة لتفاهمها الراهن مع روسيا، وعلى نمط الاتفاقية الأخيرة مع الغرب الخاصة بضبط تخصيب اليورانيوم في مقابل رفع المقاطعة الاقتصادية الدولية) يسمح بإطلاق يدها في بعض أركان الشرق الأوسط، وهي بالتحديد العراق وسوريا والبحرين وعمان واليمن. وهكذا يتم تحقيق جزء وافر من الحلم الفارسي التوسعي، وأول الغيث قطرات. وهناك بالطبع صديق دائم لإيران موجود كخلايا نائمة بكل الدول العربية وهو تنظيم الإخوان المسلمين الدولي، وتجلياته الواضحة في الوقت الحالي هي ما نراه في تركيا والسودان وليبيا. هذا الكتاليسست سوف يكون أكثر فعالية إذا حققت إيران السيناريو المذكور آنفاً - أي بسط سيطرتها على العراق وسوريا والبحرين وجنوب الجزيرة العربية.

والحالة هذه، ليس أمام المحور المناوئ لإيران ولتنظيم الإخوان المسلمين الدولي إلا أن يتحلي باليقظة تجاه مسرحيات التقية الإيرانية، وتجاه الفخاخ التي تنصبها هنا وهناك لإضعاف الخصم وتشتيت جهوده؛ وليس أمامه إلا أن يرسخ حلفه مع الدول الغربية، مشجعاً لها أن تكون موجودة بأحذيتها **boots on the ground**؛ وفي نفس الوقت يتعين عليه إشراك شعوبه في الأمر، وتمكينها من التعبير الحر عن مكنونات النفس، ومن ممارسة اللعبة الديمقراطية: حرية التنظيم والفصل بين السلطات واستقلال القضاء وحرية الإعلام وتداول السلطة مرة كل أربعة أو ست سنوات... إلخ.

وإذا كان لا بد من المواجهة مع الجمهورية الإسلامية الفارسية فلنكن بالتوقيت وفي المكان الذي تختاره دول المواجهة، وليس بالطريقة التي تفتعلها تلك الجمهورية الشيعية. وفي رأيي، إن أخطر وأنجع مواجهة هي المواجهة الفكرية والسياسية والإعلامية، لأن الأساس الذي بنيت عليه الفكرة الشيعية، والإيديولوجية التي قامت عليها الجمهورية المذكورة، يمكن دحضها وتفنيدها بكل سهولة من قبل علماء أهل

السنة ومفكرهم السياسيين؛ كما يمكن مخاطبة الشعب الإيراني مباشرة بالمفردات التي يفضلها ويفهمها جيداً - وهي سبل كسب العيش والتقدم الاقتصادي والتحول الاجتماعي، وذلك ما حالت دونه مؤسسة الملالي التي سرقت ثورة الشعب الإيراني وجعلته يعيش في دولة إسبارتية لا هم لها سوى إثارة المشاكل مع جيرانها وإهدار مقدرات البلاد في التسليح والتجيش وتقديم الدعم الحربي لكل من ينطوى على شر تجاه شعبه، مثل الأسد في سوريا، والحوثيين في اليمن، والإخوان المسلمين في السودان المغلوب على أمره.

غير أن هذه الشرور لن تدوم طويلاً، وسيكون القضاء عليها بمثابة تحجيم وكفكة للمد الشيوعي الإيراني/الأصولي؛ إذ لا يمكن أن تستمر سوريا هكذا، ولا بد أن يتحرك شعبها بصورة أكثر فعالية لاستعادة وضعها كدولة حرة مستقلة، كما كانت في عهد شكري القوتلي، بعيداً عن المؤثرات والتدخلات الخارجية، وهو شعب له تاريخ عامر بالنضال منذ الثورة العربية ضد الحكم العثماني، وضد الاحتلال الفرنسي، حتى المقاومة الشرسة الراهنة لهيمنة الأقلية العلوية الشيعية.

ولن يستطيع الحوثيون أن يفرضوا سيطرتهم على اليمن أكثر من ذلك، فالشعب اليمني كله مسلح ولا يحتاج لدعم يذكر، فقط بعض اللوجستيات والذخيرة؛ وهو كفيل بتحقيق التوازن الداخلي الذي يرتضيه، بالطريقة التي يفضلها، دون مؤثرات خارجية.

أما نظام الإخوان المسلمين بالخرطوم فإنه كالمسكة التي أخرجت من الماء، وليس أمامها إلا بضع لحظات من التشنج والتفافز وفتح الخياشيم وإغلاقها، قبل أن تنفق بعد هنيهة - وما هي إلا بضع أسابيع حتى يذهب نظام البشير إلى مزبلة التاريخ، بلا أدنى شك.

حربائيات نظام الخرطوم الإخواني

لفت نظري في أخبار هذا الأسبوع أن النظام الإيراني يتأرجح بين الهزيمة الوشيكة في اليمن... و كارثة فقدان أحد قادة الحرس الثوري في التنور السوري، وتشديد القبضة داخلياً بالمزيد من البطش بالخصوم: فقد أصدرت "محكمة الثورة" يوم الثلاثاء 13 أكتوبر أحكاماً ردية مفرطة في القسوة ضد نشطاء إصلاحيين متهمين بالإساءة للنظام وللمرشد علي خامنئي، هم الشاعرة فاطمة اختصار (11 عاماً وخمسة أشهر سجنًا و99 جلدًا)، كما حكمت على الناشط كيوان كريمي بالسجن 6 سنوات بالإضافة لـ 223 جلدًا، وهي أحكام نهائية وغير قابلة للاستئناف. هذا، وما فتئ النظام الإيراني جذلاً ومزهاً بالانتصار الدبلوماسي الذي حققه بالاتفاقية الخاصة بتحجيم تخصيب اليورانيوم ومراقبة المختبرات... إلخ، في مقابل رفع المقاطعة الاقتصادية، ومن استحقاقاتها أربعة ونصف مليارات يورو كانت مجمدة بالمصارف الغربية منذ الثورة في 1979، وجدت طريقها الآن لخزائن الحكومة الإيرانية. ولقد حسب الغرب أن هذا التسامح والتصالح والتساهل مع نظام الملالي قد يكسر شوكته المعبأة بالسم و(يفش غيبنته) ويرجعه لحضن الأسرة الدولية نداءً متحضرًا وعقلانيًا مستوعبًا لشروط وأخلاقيات التعايش السلمي مع الجيران وغير الجيران؛ ولكن هذا النظام الثيوقراطي الماكر لم يتغير بل سدر في غيّه وعدوانيته، كشأن الأنظمة الشمولية القمعية التي لا يهمها شيء سوى الاستمرار في الحكم: مثل كوريا الشمالية ونظام الإخوان المسلمين السوداني الذي ظل يكتم أنفاس شعبه المسكين منذ ست وعشرين سنة؛ ولا تعني الشرعية الدولية بالنسبة لمثل هذا النظام إلا مزيداً من ترسيخ الواقع المرير ببلاده، المؤسس على دكتاتورية الفرد - المرشد

علي خامنئي الذي جمع في يديه بين السلطة الزمنية والزعامة الروحية، فأصبح الملك الفيلسوف وظل الله في الأرض؛ وهو في حالة السودان المشير عمر البشير الدكتاتور العسكري الذي وفر له الشيخ حسن الترابي الغطاء الديني اللازم ليتحدث ويتصرف كأنه وريث الحجاج بن يوسف الثقفي، منذ بداية حكمه حتى المفاصلة في 1999، ومرة أخرى ابتداءً من هذا العام بعد أن تخلّص من المنافسين غرماء الترابي أصحاب مذكرة العشرة مدبري "المفاصلة"، وخلا الجو لجناح الترابي - "المؤتمر الشعبي" - ليلتئم مع "المؤتمر الوطني"، ويعتبر مؤتمر الحوار الوطني الراهن حفلة "جرتق" لتدشين ذلك الالتئام.

ومن أوجه الشبه بين النظامين المتمسحين بالدين في إيران والسودان أن الأول خرج من القبول الدولي المكمل بالاتفاقية المذكورة بمزيد من التضييق على المتفلّتين والمعارضين، ومزيد من التمكين للطغمة الطائفية الحاكمة وذيولها وجندها السذج المطوطين والمكبّلين بألجمة وسيطان ملالي قم؛ كما أعلن الثاني (النظام السوداني) عن فتح معسكرات التدريب لقوات "الدفاع الشعبي" صنيعة وصنو "الحرس الثوري الإيراني"، بهدف الاستعداد لأي حراك جماهيري أو مظاهرات احتجاج على الغلاء وقطوعات الكهرباء وشح مياه الشرب، وهو حراك أثبتت التجارب أنه دائماً يتحول إلى مد سياسي يختصر المشاكل جميعها في مطلب واحد، وهو زوال النظام....: (إلى الجحيم يا كيزان!! ... الخ).

كما استرعى انتباهي في أخبار الأسبوع المنصرم زيارة الرئيس البشير لجمهورية الجزائر التي أكد المراقبون والمحللون النابهون أنها ذات صلة بمسألة توازن القوى بالشرق الأوسط؛ إذ قالوا فيما قالوا:

- يحاول البشير أن يدق إسفيناً بين نظام بوتفليقة و نظام السي سي سي المصري، وأن يحمل الجزائر على رفع يدها عن ليبيا حتى تقع لقمة سائغة في حضن الجماعات الإرهابية المسلحة المنطلقة أساساً من أحشاء الإخوان المسلمين، وتحديدًا من "التنظيم الدولي" وواسطة عقده الثالوث المعروف:

تركيا - إيران - قطر، بالإضافة "للكادر السري"، أي النظام السوداني وتوابعه بشمال وغرب إفريقيا (فرع القاعدة وبوكو حرام).

- ويحسب نظام البشير أن عزل ومحاصرة مصر من ناحية حدودها الغربية سيشكل إضعافاً للمحور الذي يتصدى الآن لنظام الأسد ولدولة داعش الشبحية Phantom بسوريا وشمال غرب العراق، ولدولة الحوثيين الانقلابية في اليمن - ذلك المحور الذي يتألف من السعودية والإمارات ومصر، والذي يخوض غمار ثلاث حروب جوية في وقت واحد: ضد نظام الأسد، وضد مواقع الدواعش بالعراق، وضد الحوثيين وقلول ع ع صالح باليمن (السعيد)؛ وإضعاف هذا المحور يعني بالضرورة تقوية المحور المناوئ بزعماء إيران ومعها حزب الله بלבنا ونظام الأسد والشبيعة العلويين بسوريا والشبيعة الحوثيين باليمن، وباقي الحلفاء - التنظيم الدولي للإخوان المسلمين و النظام السوداني... إلخ. و لا يخدعك البتة يا أيها المراقب الفطن أن النظام السوداني قد انفتح مؤخراً على السعودية وخطب ودها وتبرع ببعض الطائرات الحربية العتيقة للمجهود الحربي، وأعلن تنصله من الحلف الاستراتيجي مع إيران؛ هذا مجرد تمثيل في تمثيل وضرب من سلوكيات التقية - مثلما فعل البشير عندما استولى على الحكم في الخرطوم عام 1989، إذ ذهب مجتاحاً للقصر الجمهوري، بينما ذهب مدبر الانقلاب وعراب النظام الشيخ حسن الترابي إلى سجن كوبر.

- وقدم البشير للجزائريين شيكاً على بياض يسمي الأراضي الزراعية بالسودان، داعياً القطاعين العام والخاص للاستثمار المكثف رأسياً وأفقياً فيها على جناح السرعة، وأخذ نصيبهم منها قبل أن يتقاسمها العرب السعوديون والخليجيون والمصريون فيما بينهم. ولا ادري هل "شالته الهاشمية" الجعلية (التي يتلبط فيها)، أم هو الاستلاب الخنوعي الناجم عن مركب النقص أمام هؤلاء البيض المئس الناعمين المهندمين المدبلجين بالثقافة واللغة الفرنسية، (وقد أظهرته الصور يحدق بلا وقار في سيدة

جزائرية غير محجبة)، أم هي فقط تعليمات التنظيم الدولي الهادفة لرشوة الجزائر بغرض تحييدها فيما يختص بالصراع الليبي الداخلي؟ ومن ناحية أخرى، هل الأراضي السودانية ملك لآل البشير أو للإخوان المسلمين المجرمين حتى يتجودوا بها بمثل هذه البساطة والسذاجة والانبطاح لكل من هبّ ودبّ؟ وما هي علاقتنا التاريخية أو التجارية أو الاستراتيجية مع الجزائر وأهلها؟ وماذا جنت أو ستجني الخزينة العامة من هذه الصفقات؟ وهل أبداً انعكست أو ستنعكس على الحالة الاقتصادية السودانية المتردية؟ وهل تتم هذه الأشياء بحضور الإعلام الحر والرأي العام السوداني، ناهيك عن أصحاب الأرض من أهل البادية ملاك الحواكير؟

(وفي هذا الصدد فإنني أحيل القراء الكرام لمقال العلامة شوقي بدري الأخير بالصحف الإسفيرية الذي تناول زيارة البشير هذه وتبرعه للجزائريين بالأراضي السودانية، سارداً تجاربه مع هؤلاء الأقوام في أوروبا. وأذكر بهذه المناسبة حادثتين: - عرّفتني زميلة جزائرية كنت أحترمها حتى ذلك الوقت بجامعة ليدز في إنجلترا عام 1981، عرّفتني بأستاذ أوروبي قادم من باريس قائلة هذا الفاضل من السودان. فسأل الرجل: أي السودانات؟ ولعله قصد السودان الفرنسي أم البريطاني كما كانا يعرفان بأطالس الأربعينات والخمسينات؛ وهنا قالت له: إنه من السودان الذي كنا نجلب منه العبيد؛ فاستشطت غضباً ولقنتهما درساً في التاريخ والجغرافيا ولغنت سلسفيل أحمد بن بيلا الذي كنا متعلقين به، (والذي طوّعه السجن فأنقلب أخواً مسلماً، ولم يرتفع لمستوى ابن جيله المناضل نيلسون مانديلا الذي صمد 27 سنة بمعتقل جزيرة روبن وخرج رئيساً لجنوب إفريقيا الحرة الديمقراطية، أرض **(one man one vote)**). والحادثة الأخرى هي ما قرأته في أحد كتب م ح هيكل الذي يتحدث فيه عن مؤتمر قمة عربي مصغر بعد نكسة يونيو 1967 بالقاهرة، حضره الرئيس الجزائري هواري بومدين قبل الآخرين، وكان جالساً مع عبد الناصر ورئيس آخر، لعله الملك حسين، وتناهي إليهم أن رئيس مجلس السيادة السوداني إسماعيل الأزهرى قد وصل، وأمر عبد الناصر بإحضاره للاجتماع فوراً، ولكن

بومدين تدخل وتبرع بالذهب للتعاطي مع الزعيم الأزهري، وكان له ذلك؛ فخرج وعاد بسرعة فائقة، ولما عبر الرئيس عبد الناصر عن دهشته قال بومدين: لا تلقوا بالاً له، فقد أفتعته بعدم ملاعته لحضور الاجتماع. ولم يسترسل هيكأ أكثر من ذلك، غير أن اللبيب الذي يفهم بالإشارة يستنتج الآتي: - لا بد أن بومدين قد قال للرئيس الأزهري الذي جاء أصلاً للإعداد لمؤتمر اللاءات الثلاثة المزمع بالخرطوم: ما شأنكم أيها "السوانة" بالعرب؟ لماذا تحشرون أنوفكم في الشأن العربي أكثر من (اللازم؟)

والخبر الثالث الذي توقفت لليه هو تعيين الدكتور مصطفى عثمان إسماعيل وزير الاستثمار السابق ووزير الخارجية الأسبق وأحد أبرز قادة المؤتمر الوطني سفيراً عادياً (وليس فوق العادة) بالمملكة العربية السعودية، وهو أمر يتعلق أيضاً بمسألة بيع الأراضي السودانية للمليونيرات العرب، واستلام الكميّشن واستحقاقات السمسرة، وترتيب الشراكات المريبة التي تنطوي عليها هذا العمليات. ونسبة لمعرفتي بالدكتور مصطفى منذ 1981 ومتابعتي لمسيرته منذئذ، فإن الأمانة تقتضي إلقاء الضوء على هذه الشخصية الخطيرة، وعلى الملابس الراهنة محلياً وإقليمياً التي تكتنف إرسال م ع إسماعيل ممثلاً للنظام في الرياض:

1. لا يخالجني أدنى شك في أن الخارجية السعودية سوف لن تقبل ترشيح الدكتور مصطفى لسبب بسيط وهو أن هذا الرجل كان سكرتير "المؤتمر الشعبي العربي الإسلامي"، مؤتمر الأممية الإخوانية الأول من نوعه الذي انعقد بالخرطوم في أول أيام حكومة الإخوان المسلمين - في 22 أبريل 1991- بحضور ممثلي الإخوان المسلمين من كل العالم، بما في ذلك الكويت والسعودية وكافة دول الخليج. ولقد عكس نشاط الدكتور مصطفى بذلك المؤتمر، وتواصله وتفاعله مع المؤتمرات، أنه من أهم الكوادر المفصلية بالتنظيم الدولي؛ ولم يبدر من الدكتور حتى الآن ما يشير لتنصله من مسؤولياته بذلك التنظيم، على الرغم من أنه تنصل من ولي نعمته

الدكتور الشيخ حسن الترابي الذي استقطبه للمؤتمر الشعبي، وعينه سكرتيراً له وهو مازال حصرماً وغراً عائداً لتوّه من البعثة الدراسية بليدز - إنجلترا، حيث كانت ميزته الوحيدة أنه صديق مقرب من الأستاذ محمد حسن الترابي مبعوث جامعة الجزيرة بليدز وابن شقيقة الدكتور حسن، وزعيم جماعة الإخوان بالمملكة المتحدة آنئذٍ؛ ولقد تنصّل من الدكتور حسن أيام المفاصلة في 1999، رغم أنه لم يكن من العشرة الموقعين على المذكرة المشهورة، إذ كان يلعب على كل الحبال و يراقب الموقف من داخل القصر، وفي نفس الوقت من داخل فيلا الشيخ حسن بالمنشية، بقرون استشعار شديدة الحساسية؛ وحتى آخر لحظة ما كان أحد يستطيع أن يتكهّن إلى أي الفريقين ينتمي الدكتور مصطفى- جماعة المذكرة المقيمين بالقصر الجمهوري في معية عمر البشير، أم عصابة الترابي المقيمين لديه بالمنشية؟! و لما هدأت العاصفة و تمايزت المعسكرات بوضوح قاطع، فوجئ الناس بوجود مصطفى ضمن جماعة القصر، وترسخت لديهم قناعة بأنه كان يتواجد بمنزل الشيخ حسن كمجرد "غواصة" mole لفريق المذكرة.

2. وسبب آخر لعدم قبوله كسفير هو أن هذا الرجل تمت مكافأته على خيانتة لمعلّمه الشيخ حسن بتعيينه وزيراً للخارجية، وكانت فترته بتلك الوزارة هي التي شهدت بناء وازدهار العلاقات مع إيران الملالي حلفاء الإخوان المسلمين، وشهدت الاتفاقيات الأمنية والعسكرية التي بموجبها تم تشييد مصنع اليرموك للصناعات الحربية بالعاصمة السودانية (الذي دمرته الطائرات الإسرائيلية قبل بضعة شهور)، ومصنع الشفاء بالخرطوم بحري (الذي مسحه من الوجود الأسطول السابع الأمريكي عام 1998)؛ كما شهدت فترته بالخارجية ترسيخ العلاقات مع نظام صدام حسين والانصياح والتأييد لموقفه الخاص بالكويت منذ غزوها في الثاني من أغسطس 1990 حتى طرده منها مذموماً مدحوراً.

3. ويمكن الخطر الأساسي في حالة الدكتور مصطفى أنه من أنصار التمسك بالعلاقة الإستراتيجية مع إيران، وفي نفس الوقت مصانعة الدول الخليجية والضحك على ذقونها، كما ذكر بعظمة لسانه في اجتماع القيادات العسكرية والأمنية السودانية قبل عام بالضبط من الآن، والذي تسربت وقائعه للصحف الورقية والإسفيرية - وقمت بتلخيصه ونشره في مقال بعنوان (المحور الإيراني السوداني - تأبط شراً)، ظهر في "الركوبة" و Sudaneseonline يوم 30 سبتمبر 2014م، وقد صدرته بمداخلة م ع إسماعيل في ذلك الاجتماع:

في المكشوف، دعونا نحافظ على علاقات جيدة مع دول الخليج، و لكن علاقتنا بإيران علاقة إستراتيجية، ويجب أن تدار سرّاً من قبل المخابرات العسكرية و الأجهزة الأمنية) د. مصطفى عثمان إسماعيل الأمين السياسي لحزب المؤتمر الوطني الحاكم - 13 أغسطس 2014 م.

4. إذًا، فإن الدور المتوقع من الدكتور مصطفى هو مصانعة الإخوة السعوديين لكفكفة بصرهم عن العلاقات المشبوهة بين الخرطوم وطهران، وعن الطبيعة الشريرة للنظام السوداني، في ظل الأجواء الأخيرة المواتية بعد مشاركة السودان - ولو رمزيا - في "عاصفة الحزم"، وهذا الدور يحتاج لشخص بمهارات الدكتور مصطفى في إجادة فقه التقيّة وتجويد الدبلوماسية بعد سنينه العديدة كوزير خارجية؛ وهو حقيقة دائم الابتسامة ومهذم ويبدو ودوداً وطويل البال، على الرغم من أنه ضامر المخزون الثقافي، (ولن أنسى أنه ذات مرة - في عام 1984 - على إثر استقالتي من الحزب الشيوعي عندما كنت معه في ليدز مبعوثين بجامعتها، أن سألني في لحظة صفاء، بكل جدية: "هل صحيح يا فاضل أن الشيوعيين يتزوجون أخواتهم؟"؛ أنظر يا صاحبي لنطاسي الأسنان هذا الذي كان يتلقى دراسة

فوق الجامعية ببريطانيا، وكان رئيساً لرابطة السودانيين بليدز، وأحد أهم زعماء الإخوان المسلمين بالمملكة المتحدة (!).

5. وهناك دور أمني ينتظر السفير مصطفى كذلك، وهو ملاحقة المعارضين السودانيين بالخارج والتنكيل بهم كلما وجد سبيلاً لذلك، وهذا ما تم الإعداد له على نار هادئة عبر السيناريو الآتي ذكره:

- لقد جرّبت الخرطوم إرسال كادر أمني إخواني رفيع المستوى ضمن البعثة الدبلوماسية في جدة، وظل قنصلاً بها لعدة سنوات، وهو الدبلوماسي أحمد يوسف محمد، الذي نقل بعد ذلك عام 2013 سفيراً بالإمارات العربية المتحدة واستقر بها حتى هذا العام. وهذا الكادر المتنقذ كان قد طرد من الولايات المتحدة عام 1998 لتورطه في تهريب الأسلحة بسيارته الدبلوماسية لصالح المجموعة التي كانت تخطط لنسف مبنى الأمم المتحدة. وقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز هذا الخبر بتاريخ 11 أبريل 1998:

(The New York Times– The United Nations, April 10 – The United States announced today the expulsion of a Sudanese diplomat whom it accused of supplying inside information to Islamic terrorists who were convicted last year of plotting the destruction of the United Nations and other New York landmarks after the bombing of the World Trade Centre.

The Sudanese Mission was told on Tuesday that its second secretary, Ahmed Yusif Mohamed, had been involved in terrorist and espionage activities and must leave the country within two days, said James P. Rubin, a spokesman for the United States Mission.)

وبعد عودته للخرطوم تم نقل أحمد يوسف للبعثة الدبلوماسية بفيينا عاصمة النمسا كسكرتير أول، ولكن النمساويين سرعان ما اكتشفوه وطردوه شر طردة. وكانت محطته التالية هي القنصلية السودانية بجدة حيث طاب له المقام لعدة سنوات، ومن بعدها تم ترفيعه ونقله سفيراً بأبوظبي، إلى أن غادرها هذا العام، بعد أن تم تكريمه بواسطة الخارجية الإماراتية في آخر يوم لإقامته، ولعله تكريم لشعب السودان في شخصه، (والملاحظ أنه على كل حال لم يكمل فترته الموسومة بسفارة أبوظبي التي تمتد عادة لأربع سنوات).

وهكذا، وجد الدكتور مصطفى الأرض ممهدة للعمل الدبلوماسي متعدد الأغراض بالدول العربية التي يظنون أنها لا تكثرث كثيراً لخلفية المتنفذ الدبلوماسي الإيديولوجية والأمنية. وربما تتجاوز السلطات السعودية عن الشوائب التي تكدر صورة السفير المرشح الدكتور مصطفى بسبب بلائه في تشجيع المستثمرين السعوديين في الأعوام القليلة الماضية عندما كان وزيراً للاستثمار، فقد لعب دوراً رئيساً في المؤتمر الذي عقد بمطلع هذا العام بالرياض حول الاستثمار في السودان؛ ولقد تمكن كوزير استثمار من منح السعوديين ملايين الأفدنة لزراعتها أعلافاً وقمحاً بفيافي البطانة وفلوات شمال السودان، عن طريق الآبار الجوفية المكتنزة بمياه عذبة لا نهائية؛ وخير من يتابع تنفيذ هذه المشاريع وتخليص أوراقها من براثن وأضابير البيروقراطية السودانية هو الدكتور مصطفى بحكم علاقته اللصيقة بالمستثمرين وبكافة أنواع الاستثمار، وبحكم موقعه المتنفذ في الحكومة وحزبها الحاكم منذ عام 1989.

وربما تكون المؤهلات المذكورة أعلاه هي التي أقنعت البشير بإرسال هذا الكادر القيادي للسفارة في الرياض، ولكن يخالجنى شك بأنه في الحقيقة يحاول أن يقفز من السفينة الآيلة للغرق بطريقة بهلوانية وفهلوية للغاية. ويبدو أنه قد تم تهميشه بعض الشيء في الآونة الأخيرة، إذ خرج من مولد توزيع الحقائق الذي أعقب الانتخابات الرئاسية والبرلمانية بدون حمص، ولقد حل محله بالخارجية التي كان

يحلم بالعودة لها، حل محله زميله بمهنة طب الأسنان وصديقه منذ السبعينات د. إبراهيم غندور. وربما أحس مصطفى أن (الميري إذا فاتك فلتتمرغ في ترابه)، وآثر (الرقاد في السليم) فقبل بمنصب السفير بالمملكة، إذ أن الشرق الأوسط كله والسودان خاصة مليء بالمفاجآت والاهتزازات البركانية، باستثناء العربية السعودية. كما قد استشر الدكتور مصطفى بحكم عيشه وسط النخبة المتحكمة بالقصر الجمهوري أن النظام أخذ يتخبط، مثل نظام النميري في آخر أيامه، وربما ينقلب البشير فجأة على الكوادر الإخوانية، مثلما فعل الرئيس نميري قبيل مغادرته للولايات المتحدة بآخر مارس 1985، عندما أرسلهم جميعهم إلى معتقل شالا بدارفور، عازماً أن يذبحهم عن بكرة أبيهم بعد عودته من أمريكا؛ ولكن لحسن حظهم (ولسوء حظ السودان) تفجرت إنتفاضة أبريل 1985 في نفس ذلك الأسبوع، ولم يعد النميري، إنما بقي بالفيلا التي أعدها له صديقه حسني مبارك بمصر الجديدة بالقاهرة.

وخير ملاذ للدكتور مصطفى هي السعودية بلد الأمن والأمان منذ عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام، مثله مثل عيدي أمين دادا و الرئيس التونسي المخلوع زين العابدين بن علي.

ولكن، وحتى يتم القضاء على نظام البشير الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، سيظل م ع إسماعيل عينا mole للمحور الإيراني الإخواني داخل العاصمة السعودية، من النوع الذي قال عنه وليام شكسبير في هاملت:

A mole it is that troubles the mind's eye.

الشرق الأوسط البديل

لقد صوّت اللاجئين السوريون بأرجلهم، وأصدروا أحكاماً دامغة ضد الأنظمة التي فرّوا منها، وتلك التي اخترقوا بلدانها كالطلقة النافذة التي تدخل من هنا وتخرج من هناك، وتلك التي يحلمون بالاستقرار في كنفها؛ ونفس الشيء بالنسبة للعراقيين والأفغان والباكستانيين والإيرانيين الذين "تلبّطوا" وتلبّدوا في تلافيف موجات السوريين وهم في خضم هجرتهم الكبرى من ديار المسلمين (دار السلام presumably) إلى ديار النصارى المستعمرين (دار الحرب) - ويا لها من مفارقات تستوجب التأمل والتساؤل حول العديد من المسلمات! وفي الغالب، نهض اللاجئين وفعلوا ما فعلوا وتجشموا أهوال البر والبحر بوعي كامل، وبعد تدبر دام لأربع سنوات أقاموا خلالها بمخيمات المهجرين بتركيا ولبنان والأردن، فانسلوا كقطط برية، وتجمعوا في الشواطئ الغربية لتركيا قبالة اليونان، ثم أحرقوا سفنهم عن آخرها تأسيساً بجدهم طارق بن زياد، وخاضوا البحر على قوارب مطاطية مهترئة، لا يلوون على شيء، فالموت وراءهم والبحر (والأمل) أمامهم!

- أولاً، أصدر السوريون رأيهم النهائي في نظام بشار الأسد بعد أن صبروا عليه ثم قاوموه ومأحكوه لخمس سنوات كاملة، ثم تحملوا الظروف غير الإنسانية بمعسكرات اللاجئين المذكورة بما أن أحلام الرجوع كانت تراودهم، وأبواق المعارضة ما انفكت تدغدغ مشاعرهم بأن النصر وشيك، وأن الأسد مجرد نمر من ورق عما قريب سيذهب كما ذهب الطغاة من قبله - صدام وبين علي وحسني مبارك وعلى ع صالح. وإذا بالمقاومة تتحول إلى حرب

داحس والغبراء، من النوع السرمدى العنيد الذى يعرفه العرب جيداً، كما قال
شاعرهم الجاهلي:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
إن تبعثوها تلفونها ذميمة فتضري إذا ضرّيتومنها وتضرم

وإذا بنظام الأسد تنيناً له سبع أرواح، وحلقة محكمة فى سلسلة تمتد كالشريان من
أوكار حزب الله بسهل البقاع اللبناني، إلى الكتل الشيعية بالعراق، حتى تتناهي إلى
الجمهورية الإسلامية الفارسية الشيعية المتحالفة مع نظام فلاديمير بوتين وريث
الكي جي بي والنموذج المجسد لعقليتها وتربيتها وأشواقها الإمبراطورية منذ العهد
القيصري؛ وإذا بالمعارضة فريسة للاختطاف فى وضح النهار من قبل المنظمات
الأصولية الإرهابية مثل جبهة النصرة وداعش وكافة تجليات الإخوان المسلمين.

ماذا يفعل السوريون العاديون - بقايا التعليم الحديث والوطنية المتجذرة منذ عهود
خالد العظم وشكري القوتلي وميشيل عفلق، حملة ثقافة الشام منذ الأزل: الموسيقى
والشعر من لدن المتنبي وأبي العلاء المعري حتى نزار قباني، والشاورمة وفنون
الطهي والمصنوعات اليدوية والنسيج، والتجارة منذ رحلة الصيف والمصطفى عليه
الصلاة والسلام قبل أن تنزل عليه الرسالة؟؟

ما كان أمام أحفاد سيف الدولة وأبي فراس الحمداني إلا أن يحملوا ما خف حمله
ويضربوا فى الأرض ويتفرقوا أيدي سباً. ولقد توقفوا تماماً عن أي مجادلة أو
محاورة مع الأسد ورهطه، وقلبوا ظهر المجن ليس للشام وحده، بل لكل الدول
العربية والإسلامية القريبة والبعيدة، إذ لم يتجه أي منهم شرقاً أو جنوباً، باستثناء
مفرزة أصابها دوار البحر ووجدت نفسها فى السودان، وتجدها الآن تندب حظها
الذى أتى بها من الرمضاء للنار، ولعل ذلك قد حاق بها فيما قبل الاختراع المدهش
الذى توصل إليه مهاجرو النصف الأخير من هذا العام - وهو القارب المطاطي

الذى يقفز منه سائقه (النوخذة) بعد مائة متر داخل البحر، تاركاً رجالاً ونساءً وأطفالاً لا علاقة لهم بالبحر وفلكه، (من علم العربي نشر شراعتها وهداه للإبحار والإرساء)، ولكنهم دائماً يتعلمون قيادة الزورق فى بضع دقائق ويعبرون به للجزر اليونانية، فالحاجة أم الاختراع (تماماً كما يفعل "الطب" - النور - المتنقلون فى السودان مع القرد، فهم يعطونه الرق (الطبيل tamburin) ويأمرونه أن يعزف عليه، ولكنه يلقيه جانباً ويتسلق أقرب شجرة أو حائط وينظر إليهم من عل، فيأتون بجدي ماعز (سخل) ويذبحونه بشراسة، ويومنون بالسكين صوب القرد، والسخل شديد العياط وحاد الصراخ؛ وما هي إلا لحظات حتى ينزل القرد من عليائه ويمسك بالرق كخبير ماهر ويلعب به كما يفعل كرومة أو الشاب حسن محبوب فتى الحلفاية).

إذن، هذا هو رأي ملايين اللاجئين السوريين والعراقيين الذين يمموا وجوههم شطر ألمانيا.... هذا هو رأيهم فى الأنظمة التى تركوها خلفهم وهي تتقلب فى جحيم حرب لئيمة بلا نهاية، أو تتمرغ فى نعيم الدنيا دون رحمة أو صدقة فى حق ابن العم الجار الجنب الملتاع، (ناسين حكمة لبيد الشاعر الجاهلي الذى أدرك الإسلام ودخله وقال: ألا كل ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل!)، أو تستسلم مثل الكباش المكبل للقصاب، وتسلم قيادها للقوى الطامعة والشريرة التى تحرك الأحداث فى المنطقة خدمة لاستراتيجياتها: المحور الإيراني الروسي، أو الأمريكى الإسرائيلى.

ولم يطب المقام للمهجرين السوريين فى لبنان والأردن حيث كانت تطاردهم ذكريات وأشباح مجزرة أيلول الأسود 1970 عندما فتك الملك حسين بآلاف الفلسطينيين فى عمان وإربد، إلى أن خرج أبو عمار فى صحبة الرئيس السودانى جعفر نميري متدنراً بعباءة سيدة، ومجزرة تل الزعتر فى بيروت 1974 عندما قضى حافظ الأسد على أربعة آلاف لاجئ فلسطيني، ومجزرة صبرا وشاتيلا 1982 التى أباد فيها الموارنة اللبنانيون مئات الفلسطينيين، تلك التى قال عنها محمود درويش:

أسلمنا الغزاة إلى أهالينا...
فما كدنا نعض الأرض
حتى انقضّ حامينا
على الأعراس والذكرى.

• كما أصدر اللاجئين حكماً قاطعاً فى حق دول الترانزيت التى عبروها فى طريقهم لمحطات الوصول المأمولة؛ ومحطات العبور كانت رومانيا والمجر بشكل رئيسي حتى أغلقت أبوابها بالأسلاك الشائكة، ثم تحولت الموجات العابرة صوب كرواتيا التى تقاسمت ما لديها من أود مع اللاجئين، ربما لأنها مرت بظروف مشابهة قبل عقدين - إبان حروب البلقان فى أعقاب انهيار جمهورية يوغسلافيا الاشتراكية. أما المجر بالذات فقد قابلت المهاجرين بكل لؤم وبخل وعنصرية، كأنهم نسوا ما تعرضوا له عام 1956 من تقتيل بواسطة قوات حلف وارسو، ومن هجرة إلى كافة أرجاء أوروبا (وتلك كانت الموجة التى شملت لاعبي كرة القدم الذين استقر بهم المقام فى إسبانيا - مثل بوشكاش وبوداي وبوجيك). وبالمناسبة، سجل الإعلام العربي غياباً تاماً عن هذه التراجيديا الإنسانية التى ما زالت فصولها تتوالى بالمرسح الأوروبي: لا حضوراً فى المكان والزمان مثلما يفعلون إزاء منافسات كرة القدم الأوروبية، ولا تعليقاً أو تحليلاً ضمن البرامج الخبرية والتفاعلية، متجاهلة مأساة الشعب السوري الذى تتقاذفه النوى فى بلاد الأعاجم.

• وأخيراً، نصل إلى الخيار النهائي الذى رامه اللاجئين وظلت أرواحهم معلقة به منذ أن كانوا فى معسكرات لبنان وتركيا والأردن - وهو النمسا وألمانيا ومن ثم الدول الإسكندنافية بعد أن تتشبع ألمانيا. ولعلمهم ظلوا يرددون فى مؤخرة الرؤوس ما أنشده المتنبي العائد فى هجرة قسرية معاكسة بخفي

حنين من مصر كافور الإخشيدي إلى الكوفة مسقط رأسه، حيث جاءه ابن سيف الدولة مبعوثاً من أبيه حاملاً الهدايا والدعوة بالأوبة إلى حلب، فقال:

كلما رحبت بنا الروض قلنا	حلب قصدنا وأنت السبيل
فيك مرعى جيانا والمطايا	وإليها وجيفنا والذميل
والمسمون بالأمير كثير	والأمير الذي بها المأمول

(أما الأمير الجديد فهو المستشارة ميركل، وأما حلب فهي برلين.)

ولقد سمعت حواراً فجر الثلاثاء بإذاعة مونتي كارلو حول غياب فرنسا من خيارات اللاجئين الذين تحاشوها تماما. لماذا لم يقل أي واحد من اللاجئين المتدفقين عبر الحدود المجرية والكرواتية وغيرها أنه يرغب في السفر إلى فرنسا؟ أليست فرنسا دولة غربية غنية وديمقراطية متحضرة مثل ألمانيا والنمسا؟ بلى، ولكنها حالياً تعاني من حساسية ضد العرب والمسلمين، إذ لديها تجارب غير حميدة مع أعراق شمال إفريقيا الذين عشعش وسطهم الإرهاب الأصولي. ومن الواضح أن هؤلاء اللاجئين متابعون للأخبار وراصدون للاتجاهات والتشققات التي عصفت بالساحة السياسية الفرنسية، والتي شلت من جرائها يد اليسار الاشتراكي والتقدمي، وعلا كعب اليمين الفاشستي المعادي للأجانب، خاصة المسلمين، والمستمسك برايات الشوفينية والزينوفوبيا و(ضيق العين) والعنصرية الفاشية والنازية.

وهكذا، فإن اللاجئين العرب يدركون أن أصابع اليد الواحدة متباعدة بعض الشيء؛ ولا بد لك و أنت تتحسس خطاك على درب الصراط أن تتأكد من الطبغرافيا السياسية للعوالم التي ستهبط وسطها مستجيراً من جحيم الشرق الأوسط؛ ولقد أصبحت المعرفة واليقظة السياسية فرض عين، مثل السباحة لمن أراد أن يعبر البحر المتوسط على قارب كتلك التي رأيناها تنطلق من الشواطئ الليبية والمالطية والتركية باتجاه أوروبا.

ماذا ترك أولئك المهاجرون وراءهم؟ أي شكل ستخرج به سوريا بعد أن أفرغت من سكانها الأصليين الذين ظلوا مرابطين بها منذ آلاف السنين؟ بل، أي شكل سيتخذه الشرق الأوسط الجديد بعدما تنطفئ نيران الحروب المشتعلة في سوريا والعراق واليمن وليبيا والسودان، بالإضافة للبحرين ولبنان ودول الصحراء الكبرى الإفريقية والصومال ومنطقة القرن؟ وهل ستتنطفئ نيران الحروب أصلاً؟

خرج السوريون من بلاد الشام و تركوها للأسد وحزب بعثه، كما خرج المثقفون السودانيون من قبل وتركوا بلد المليون ميل مربع للبشير والإخوان المسلمين؛ والهجرة ما برحت متدفقة منذ ثلاثة عقود من شرق وأواسط وغرب إفريقيا صوب أوروبا وأمريكا، ومن مصر والشام واليمن باتجاه الدول العربية النفطية ومؤخراً نحو الغرب، شأنهم شأن السوريين، و جميعهم "كمن رمتني بدائها و انسلت"، فما زالت المشكلة باقية ومزمنة، وعدم الاستقرار هو العنوان الذي يندرج تحته الشرق الأوسط برمته.

تلك هي الفوضى الخلاقة بشحمها ولحمها *par excellence* التي تراهن عليها الولايات المتحدة، حسب نظرية كونداليزا رايس، والتي سوف يتخلق منها شرق أوسط جديد يتحقق فيه الآتي:-

أ. إعادة تقسيم مناطق النفوذ الجيوسياسية والنفطية بحيث تجد فيه القوى الحديثة (القديمة) نصيباً وموطئ قدم، وهي بالتحديد روسيا والصين، أي سايس/ بيكو جديدة.

ب. تضمن الولايات المتحدة والغرب عامة سلامة وأمن إسرائيل بشكل نهائي، وتذهب فلسطين و شعبها أدراج الرياح، كما ذهبت قبلها الأندلس والإسكندرونة وأخيراً جنوب السودان.

ت. تنساب المصالح الأمريكية والغربية من وإلى الدول العربية الصديقة المدججة وفق المعادلات الأمنية والسياسية والاقتصادية الراهنة، مع إبعاد أي شبح للثورات الشعبية أو الانتفاضات، على أساس التسوية

التي من المؤمل أن تتم مع القوى الشيعية والفارسية بالمنطقة، وذلك إذا لم تتدخل إسرائيل بمفردها وتبعد إيران من المعادلة بتوجيه ضربة استباقية تشل قدراتها النووية وتترك حساباتها إيما إرباك، كما نستشف من خطاب الرئيس الإسرائيلي أمام الأمم المتحدة صباح الخميس.

ث. إذا فاز رئيس أمريكي محافظ مثل دونالد ترمب، فإن إسرائيل ستصبح طليقة اليد بالشرق الأوسط، وسوف توجه ضربتها الموعودة ليس فقط لمواقع تخصيب اليورانيوم تحت الأرض، إنما لكل البنى العسكرية الإيرانية، بالإضافة للرموز السياسية الكبرى، مثل مدينة قم ومعسكرات الحرس الثوري... إلخ. وفي هذه الحالة سوف ينهض الشعب الإيراني من وهدهته، ويندلق نحو الشوارع كما فعل في سنة 1979 عندما أطاح بحكم الشاه، ولكنه معافى هذه المرة من نفوذ الملاي والإخوان المسلمين وغيرهم من القوى المتخصصة في سرقة الانتفاضات؛ وإذا استقر الأمر في إيران و لم تنزلق لنوع الفوضى السورية واليمنية، فإن ثمة معادلة جديدة ستفرض نفسها على نطاق المنطقة كلها: وهنا نتساءل، ما هو البديل لحكم الملاي الثيوقراطي القمعي؟ إنه بلا شك نظام مدني ديمقراطي يستند على دستور علماني يحفظ حقوق الإنسان ويحمي الأقليات والمرأة ويبسط الحريات كاملة غير منقوصة ويجعل الحكم قابلاً للتداول على أساس انتخابات شفافة ومتحضرة يشهد بنزاهتها العالم كله؛ وإذا برزت دولة كهذه في إيران فإن أثرها سيمتد بقوة المغنطيس (وتداعي الدومينو) إلى العراق والبحرين وسوريا واليمن، كما سيشمل كافة أركان المشرق العربي عاجلاً أم آجلاً.

لقد تدفق اللاجئين العرب تجاه دول تحترم الإنسان وتمنحه فرصة العمل والعيش الكريم في أمان وسلام، بلا من أو أذى، ولا تفرق بين (المواطن) و (الوافد)، فالناس جميعهم سواسية أمام القانون، وهي دول مؤسسات وقوانين راسخة ودساتير

ديمقراطية لا فضل لأعجمي فيها على عربي إلا باحترام القانون. تلك هي دول غرب أوروبا، وعلى رأسها خيار اللاجئين الأول، ألمانيا. والهجرة راسخة في الجينات العربية منذ هجرة المسلمين الأوائل إلى أرض النجاشي وهجرة النبي عليه الصلاة والسلام إلى يثرب. و لكن، من الواضح هذه المرة أنها هجرة إلى غير رجعة، مثل حالة المهجريين الأوائل - جيل ميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي وجبران خليل جبران - في منتصف القرن التاسع عشر وبداية العشرين، إلى الأمريكتين، حيث بقوا إلى يومنا هذا وامتزجوا بتلك الشعوب الآرية واللاتينية، باستثناء ميخائيل نعيمة الذي عاد للشام في آخر عمره وتوفى وقبر بلبنان.

وفي هذه الحالة، يكون العالم العربي قد خسر ملايين المهنيين والفنيين والحرفيين والأيدي العاملة المسلمة والناطقة بالعربية، بينما تستورد معظم دوله العمالة بالملايين من شرق و جنوب شرق آسيا، و من بعض الدول الإفريقية، بما يشكل معضلة ديموغرافية عويصة تواجه هذه الدول - (ولقد بدأت المشكلة بالفعل، إذ أن الوافدين أكثر من السكان المحليين في العديد من الدول العربية النفطية).

ومن الناحية الأخرى، فإن هجرة العناصر المناوئة لنظام الأسد الفاشستي سوف تزيده قوة وغطرسة وإنفراداً بالأمر، وسوف يخلو الجو للعلويين الشيعة سند النظام الرئيسي. ويبدو أن الأمور بشكلها الحالي تسير لمصلحة المحور الشيعي الإيراني الذي يغطي كل إيران والجزء الغالب من العراق و سوريا، و شريحة من لبنان و جنوب اليمن والبحرين، بالإضافة للنظام الإخواني الحليف بالسودان. والملاحظ أن موجات الهجرة الحالية والسابقة لم تشمل الشيعة والأصوليين والإخوان المسلمين، مما يشير إلى أنهم يطمعون في استيراث العالم العربي والإسلامي المتمركز بالشرق الأوسط، ليقيموا فيه الخلافة الشيعية الكبرى الجديدة، وهذا هو الشرق الأوسط البديل المصدق بنا، ما لم تتيقظ شعوب المنطقة وترفع مستويات وعيها وحذرها، وإذا لم تشدد نضالها من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة والتقدم الاقتصادي والتحول الاجتماعي.

المكيدة الإخوانية الجديدة

أمعنت النظر في الاحتفال العسكري لكوريا الشمالية بالسبت، حيث خطب كيم جونج أون الزعيم اليافع ذو الباروكة (المقطرة) كأنها تاج غرنوك... أمام مئات الآلاف من جنده المبرمجين والمطاطئين لرؤوسهم والصامتين كأن على رؤوسهم الطير، أو كأنهم في طابور الراحل الأستاذ الريح الليثي الصباحي بمدني الأهلية الوسطى في مطلع الخمسينات، فأدركت السر في عجرفة وغطرسة وطاؤوسية واستمرارية هذا النوع من الطغاة، وهو:-

1. قوات أمن نظامية وغير نظامية ذات قيادة عمودية التراتبية ومحكمة الضبط ومنصاعة تماماً للزعيم الرئيس؛ وإذا بدرت شائبة من طاقمها، مهما كانت تافهة، فإن الردع فوري و حاسم حتى يرعوي الباقون، مثل رئيس هيئة الأركان التسعيني الهرم الذي ضبط غافياً بحضرة الزعيم أون فأمر بإعدامه فوراً، وتم استخدام مدفع مضاد للطائرات لتنفيذ تلك العقوبة.

2. البربوقاندا.

وتذكرت الرئيس السوداني بعد أن تخلص من كل التحالفات المدنية التي أتت به للسلطة وأبقته فيها لنيف وعقدين من الزمان، وفجأة انقلب عليها وتمنطق بالزي العسكري، وجاء بابن دفعته بالكلية الحربية وبسلاح المظلات الفريق بكري حسن صالح، نائباً أولاً، واتكأ علي القوات المسلحة وأمن الدولة والمليشيات التابعة له

سنداً أساسياً للنظام. ولكنه في نفس الوقت لم ينس البريقاندا، ومن هذا المنطلق دعا لمؤتمر السبت، نفس يوم الاحتفال الكوري، وتداعى إليه كل منخقة ومنعرجة ونطيحة وموقوذة و"مقردة" ومتردية وما أكل السبع؛ ولقد اكتفى الرئيس بهذا النوع من البشر لأن العملية برمتها مجرد "علاقات عامة" لا أكثر ولا أقل، جزء من برنامج البريقاندا الذي ما انفك يجدد الحياة في أوصال النظام. أما رأي المعارضة والوطنيين الموضوعيين مثل د. الوثائق كمير والكتاب الإسفيريين بالدياسبورا المدمنين للماوس وللمداخلات الإلكترونية المتوالية مثل قواديس الساقية... فهي لا تلامس حلمة أذن النظام الذي يتظاهر بأنه لم يسمع بها.

وعلى كل حال، قضيت ساعات طويلة نهار السبت أتابع ما سمي بمؤتمر الحوار الوطني، عملاً بوصية الزعيم الراحل محمد أحمد المرضي: (إذا رأيت شقاً في الجدار فاتبعه حتى ترى ما وراءه)؛ فاستمعت لكلمة البشير الهادئة الملساء الترويجية، حتى كدت أن أنسى حقيقته: أليس هو نفس الشخص الذي فتك بالجنوبيين ولا زال يفتك بأهل دارفور والنوبة والإنقسنا؟ أليس هو نفس الشخص الذي قال في القضارف قبل بضعة شهور أنه لن تكون هناك شريعة (مدغمة) بعد اليوم، إنما (شريعة بطريقة الحجاج بن يوسف)؟

ويبدو أن البشير هذا يجيد شيئاً واحداً وهو (لكل مقام مقال)؛ فتجده اليوم بقاعة الصداقة يتحدث حديث القائد المنفتح على جماهيره والمرتبط بهمومها وأشواقها وتطلعاتها، وذلك عندما قال في آخر الجلسة: "إن الشورة لا تأتي إلا بالخير... إلخ"؛ ولكنه قد يذهب في صبيحة اليوم التالي لافتتاح مسجد بأرض البطانة، أو لمناسبة من هذا القبيل بديار الجعليين، حيث ينصب له مسرح "العرضة"، فيرقص ويخطب أمام تلك الجماهير كقس بن ساعدة أو أبي العباس السفاح، ويتنمر ويستأسد ويزمجر ويهدد ويتوعد خصومه بالنثور وعظائم الأمور، ويسخر من مجلس الأمن ومنظمة الوحدة الإفريقية، ومن كل الساعين للتوفيق بين الخصماء السودانيين. ولو أخذنا حديث البشير اليوم مأخذ الجد، وأنظلي علينا مشهده الناعم وهو يدير الجلسة

بما يشبه الأريحية والمرونة، كيف نطرد من الذاكرة إرثاً يمتد لست وعشرين سنة من نقض العهود وقلب ظهر المجن لحلفاء الأمس - بل لأولياء النعمة مثل الترابي و ع ع محمد طه اللذين لفظهما لفظ النواة، ونكل بشيخه الترابي حتى (جابه في القاطر)؟؟ كيف ننسى الالتزام في اتفاقية نيفاشا بتطبيق البنود الخاصة بحقوق الإنسان، بل تضمينها في الدستور المؤقت، ثم تجاهل هذا الموضوع تماماً حتى يومنا هذا؟؟ كل ما في الأمر أن الطغمة الحاكمة، أو قاعها الصخري المستدام منذ 30 يونيو 1989، رضع ثم فطم على سحر اسمه المؤتمرات، منذ المؤتمر الاقتصادي بعد شهر من استيلائهم على السلطة، حتى مؤتمر اليوم؛ وهي سيناريوهات يسبقونها ويلحقونها برازماتاز وضجيج إعلامي مدوي، ويستقطبون لها ضعاف النفوس والجالسين على رصيف السلطة بانتظار الفتات، كحلية و بهارات تزين حفنة من الكوادر القديمة المضمونة - على الرغم من تهميشها النسبي في عملية توزيع الغنائم؛ ويتم إعداد الأجندة بصورة ذكية و تغلبية بحيث يظن الكثيرون أنهم سيجدون فيها ما يصادف هواهم، ثم تضبط عملية المناقشة والمداخلات بعقلية استخباراتية ماهرة وصارمة، ويتم التضييق والحصار في فرص المداخلات بدعوى الزمن. وعادة ما يتم إغراق المؤتمر بمئات المشاركين الذين لو وزعت عليهم الفرص بالتساوي لن يجد أي منهم أكثر من دقيقة أو دقيقتين ليذلي بدلوه؛ وأخيراً يخرج المؤتمر بمقررات وتوصيات وإعلان معد سلفاً.

ولقد تقدم عبد الرحمن الصادق المهدي باقتراح بتكوين لجنة تذهب للخارج و(تحنّس) الرافضين أن يغيروا موقفهم ويلحقوا بأوكازيون الحوار الذي سيستمر لثلاثة شهور، وقد أيده علي مهدي الممثل، وأجازه رئيس الجلسة؛ وهو في الحقيقة ذريعة يرضي بها عبد الرحمن ضميره: إذ كيف يقبل لنفسه أن يكون جزءاً من نظام سجن وشرذ أباه وكسر يد شقيقته ووضعها وأخواتها في السجن عدة مرات. هذا الموقف هبط بعبد الرحمن في عين أهل السودان، كما شكك في موقف أبيه: كأن المسألة توزيع للأدوار، مثلما فعل صهرهم حسن الترابي ليلة الانقلاب المشؤوم حينما اتفق مع البشير: يذهب أحدهما للقصر الجمهوري ويذهب الآخر إلى سجن

كوير. ولا ينطوي الاقتراح على شيء جديد، سوى المزيد من السفريات والبير ديام والفنادق للوفود، ولقد جاء في صحف السبت أن مصاريق الوفود الرسمية السودانية فاقت الثمانية مليارات من الجنيهات خلال الشهرين المنصرمين؛ وهؤلاء الناس يتعاملون مع المال العام بمبدأ (جلداً ما جلدك جر فوقه الشوك).

ولما جاء الرئيس للكلمة التي اختتم بها جلسات اليوم، كان آخر ما نطق به هو الآيات الكريمة: "والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وتواصوا بالحق. وتواصوا بالصبر."، مستخدماً الرمزية التي تجيدها عصابة القاع الصخري الإخوانية الجالسة على صدر السودانين لفترة الست وعشرين سنة المنصرمة: إذ من المعروف جداً أن هذه السورة هي "الماترا" التي يبدأ ويختتم بها الإخوان المسلمون اجتماعات "الأسرة" وكل الفعاليات الخاصة بهم، ولقد حرص البشير على وضع هذا التوقيع عند نهاية الجلسة متناسياً أن هناك أصحاب ديانات أخرى وسط الحضور، كأنما يريد أن يذكر الجميع أنهم في الحقيقة داخل جحر الثعالب، وعليهم أن ينصاعوا لقوانين الثعالب و بروتوكالاتهم.

وأذكر أن السيد الصادق المهدي كان قد مر بأبوظبي مباشرة بعد توقيع اتفاقية جيبوتي 1999 التي فارق بموجبها حزب الأمة التجمع الوطني الديمقراطي وعاد لحضن الإخوان المسلمين شريكاً في السلطة السيادية والتنفيذية والتشريعية. وأقيمت ندوة بهذه المناسبة بالنادي السوداني تحدث فيها السيد الصادق مدافعاً باستماتة عن الصلح الذي تم، وكانت لدي مداخلة قلت فيها: (أرى يا سيد الصادق أنكم مقدمون على وكر الثعالب، ومن يدخل هناك فسيرضخ لقوانين الثعالب، وإلا فسوف يتعرض للمرمطة و البهذلة). و لقد رد علي السيد الصادق رداً أضحك الجمهور، إذ قال: (نحن نقول تور... والأخ الفاضل يقول احلبوه!) - وحتى الآن لم أفهم تلك العبارة تماماً، ولا لماذا ضحك الجمهور. مهما يكن من أمر، يبدو أن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً.

إن المسألة لا تحتاج لوفود تقوم وأخرى تجلس، إنما لمطلوبات محددة جأرت بها المعارضة كثيراً، وأصبحت مألوفة لدرجة بعيدة:

- إطلاق الحريات وإلغاء القوانين القمعية و إفراغ السجون من المعتقلين السياسيين.
- وقف إطلاق النار و فتح الممرات الآمنة للإغاثات.
- تكوين حكومة قومية للفترة الانتقالية التي ستكلل بالدستور الجديد وبالانتخابات النيابية والرئاسية... إلخ.

ويمكن أن يتم إعلان هذه القرارات اليوم، بلا حاجة لتلك الوفود، وللمؤتمر الحالي نفسه. أما إذا انحصر الأمر في الوساطات والجودية، فذلك يعني محاولة الاتفاق على مسائل غير مبدئية، كأننا بصدد صفقة بيع أو شراء تكتنفها المجادة والتي واللتيا والقسم بالطلاق.

إذا كنا فعلاً جادين في المحاولة للخروج من النفق المظلم، وفي درء الفتن والتشطي والصوملة المكددة بالبلاد، يتعين علينا أن نكون واضحين ومباشرين في تحديد الداء ووصف الدواء. إن الجميع متفقون على كنه الأزمة التي حلت بالبلاد، والتي جاءت نتاجاً تراكمياً لربع قرن من أسلوب الحكم الخاطيء، إذ أراد الإخوان المسلمون أن يطبقوا شرع الله بالطريقة التي تروق لهم وحدهم، والتي اتضح أنها مجرد عملية تمكين سلطوي واقتصادي لهم ولرهبهم وأقربائهم، وفي سبيل ذلك ضحوا بالوطن ومصالح الوطن، فذهب الجنوب بقضه وقضيضه، وتكاد أن تلحق به دارفور وجنوب كردفان وجنوب النيل الأزرق؛ وغادر المستثمرون النزيهون البلاد، وحل محلهم زمر وعصابات من السماسرة العرب والمصريين والصينيين شركاء اللصوص الكبار بالمؤتمر الوطني؛ ولقد تم تدمير مشروع الجزيرة والسكة حديد والخطوط الجوية والبحرية والنيلية، والزراعة الآلية والتعليم والخدمات الصحية، ولم يبق من مظاهر الدولة شيء سوى الشراذم الحاملة للسلاح التي تحرس النظام، تماماً كفلول معمر القذافي.

أما وصف الدواء، فيكمن في جملة واحدة: زوال النظام الراهن، إما باستقالة يتقدم بها البشير عبر التلفزيون، أو بثورة شعبية على غرار أكتوبر 1964 أو أبريل 1985؛ ومن ثم يجلس الجميع حول مائدة مستديرة لكي يتفقوا على الحكومة الانتقالية المحايدة، وبرنامجها وسقفها الزمني، وعلى الإجراءات المصاحبة لها، وهي إلغاء القوانين المقيدة للحريات... إلخ.

هذا ما يدور في خلد غالبية الوطنيين السودانيين، ولقد حدثت نقلات تاريخية مثل هذه من قبل - في أكتوبر وأبريل المذكورتين، ولكن الجيش كان دائماً هو العامل الحاسم الذي يظهر في اللحظات الأخيرة. وكذا الحال في ثورة مصر بآخر يونيو 2013. ونحن كذلك نتعشم بأن تكون هنالك بقايا من جيش السودان.... تتدخل في اللحظة المناسبة، بعد هبة الجماهير، لتنفذ بلادها من هؤلاء الشياطين المسمون بالإخوان المسلمين.

المهدية السابقة والحالية

((حكم الخليفة عبد الله التعايشي على خوجة يوناني من بقايا النصارى المقيمين بالخرطوم ضبط سكراناً، بثمانين جلدة، ولما خرج من المحكمة بعد تنفيذ الحكم، قال: أنا قاعد فى الخرطوم دى حضرت عشرين مخدية، مخدية واخذ خرازي دي ما شفته!!))

على خلفية مقالي المنشور بالأسبوع الماضي - "إمبراطوريات الرعب" - ومقالات العلامة شوقي بدري الثلاث حول أوجه الشبه بين المهدية والنظام الإخواني الراهن بالسودان، طلب مني حبيب صحفي (ج ع) أن أفرد مساحة للقواسم المشتركة العظمى بين شخصية الخليفة عبد الله بن محمد التقي (ول) تورشين والعقيد عمر البشير تحديداً. وسوف أحاول هاهنا أن استجيب لتلك الدعوة بقدر الإمكان، مع إيماني بأن المرحلتين - المهدية الأم ومهدية الكيزان الحالية - تجسيد لمعادلة إيديولوجية "موضوعية"، تسندها قوة سياسية محددة: كيان الأنصار والأمراء والقادة العسكريون فى الحالة الأولى، وتنظيم الإخوان المسلمين عبر قاداته - من الدكتور حسن الترابي حتى ع ع محمد طه والدكتور إبراهيم أحمد عمر، فى الحالة الثانية. وعلى الرغم من أن الفرد قد يلعب دوراً "ذاتياً" مفصلياً فى كافة منحنيات التاريخ، كما فعل الإسكندر المقدوني والمصطفى عليه الصلاة والسلام وكونفوشيوس وفلاديمير إيليتش لينين وجمال عبد الناصر... إلخ، إلا أن الشخصين اللذين نحن بصددهما أقل شأناً وأقرب للروبيضات mediocrity والعامة منهما لأيقونات التاريخ، إذ قذفت بهما الصدفة المحضة لمدارات الأقطاب، فتشبثا بذلك الفضاء، وأجادا لعبة التسلق عبرها نحو خانة الرقم الأول.

وهكذا، حل الخليفة مكان الإمام الثائر المهدي، وصعد البشير بفضل الحظوة التي وجدها لدى الشيخ الترابي زعيم الإخوان المسلمين منذ ثورة أكتوبر 1964، ولدى ع

ع محمد طه صديقه وزميل دراسته بالمرحلة الثانوية الذى "جنده" وقدمه للتنظيم. وقصة الصعود نفسها تكاد تكون متطابقة بما احتوت عليه من تقرب للإمام / الشيخ، وتوسيع للشقة بينه وبين الآخرين، ثم زرع الفتنة فى صفوف الآخرين، وبعد الاستيلاء على الحكم فى النهاية، التخلص من أولئك الآخرين ولفظهم لفظ النواة (على طريقة رتشارد الثالث فى مسرحية شكسبير المعروفة)، ليرث الحكم فرد ليس له شريك أو مناصح أو كابح للجماح: ذلكم هو الخليفة عبد الله الذى حكم السودان من 1885 إلى 1899م بقبضة فولاذية - والعقيد (المشير حالياً) عمر البشير الذى جثم على صدر الشعب السوداني منذ 30 يونيو 1989م.

لقد ولد الخليفة عبد الله عام 1846م فى رheid البردي بجنوب دارفور فى كنف قبيلة التعايشة البقارية، من أب كان معلماً للقرآن وخبير علاج بالرقيا بخلوته (كتابه) هناك، بيد أن الجد لفته شيء من الغموض: فبعض المؤرخين ينسبون الخليفة للفكي آدم القادم من ديار البرنو، وبعضهم ينساقون مع إدعاء الخليفة بأن جده هو الولي الصالح محمد القطب الواوي المدفون بضريحه فى القيروان، وكان قد أتى من تونس وتزوج وأقام بديار التعايشة حتى أنجبت زوجه محمداً، ثم قفل راجعاً لتونس حيث توفى وأقيم له مزار بالقيروان، تاركاً محمداً وأمه برheid البردي. أي أن الخليفة جفل من أصوله الغرب إفريقية ليبرر زعامته لدولة الرسالة المهدوية التى تقمصت الثقافة العربية الإسلامية واضطلعت بنشرها ليس على نطاق السودان فحسب، بل عبر المنطقة المحيطة، ومن ثم باقى الكرة الأرضية. (وليس غريباً فى تلك الأيام أن تجرى الأسر السودانية الكثير من التعديلات على أسماء الأسلاف لتأخذ طابعاً عربياً قحاً ويتربع على ذوابتها العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان هناك محترفون متخصصون فى رسم وتشكيل وإخراج شجرة العائلة).

ومنذ وقت مبكر لولاية الخليفة عبد الله، ظهرت ميوله التوسعية الرسالية المبنية على أحلام زلوط (أو قل أوهام دون كيخوت Don Quixote الذى ركب حماره Ractinante وامتشق حسامه وأعلن الحرب على الطواحين الهوائية متوهماً إياها

العدو الذى توجب نزاله)، فأرسل تجريدة لغزو الحبشة بقيادة حمدان أبو عنجة ثم الزاكي طمل؛ وبالفعل، كسب جيش الأنصار الجولة الأولى وأردي الملك يوحنا الثاني قتيلاً. وعلى إثر تلك المعركة ثار الأحباش على الأقلية التقرانية الحاكمة، ونصبوا ملكاً أمهرياً اسمه منليك، وكانوا من البسالة والحنكة بحيث تصدوا للجيش الإيطالي الاستعماري وهزموه، وأعادوا الكفة لصالحهم فى جبهتهم الغربية ودحروا الأنصار، ولم يجرؤ الخليفة على التحرش بهم مرة أخرى. والمدهش أن الخليفة رفض واستهجن المناشدة الحكيمة الواردة من العاهل الحبشي محذراً من الخطر الأوروبي الأعظم الذى يحيط بالمنطقة، وطالباً التعاون بين البلدين فى وجه العدو المشترك.

وفى نفس السياق، أرسل الخليفة خطاباً للملكة فكتوريا ملكة بريطانيا العظمى داعياً إياها لدخول الإسلام، وطالباً يدها لابن عمه الزاكي طمل - (على طريقة عيدي أمين دادا والقذافي وغيرهما من الطواغيت الأفارقة المعطوبين). وفيما بعد، انقلب الخليفة على الزاكي طمل نفسه وحبسه وجوّعه وصب عليه كميات من العقارب إلى أن مات؛ وذلك نفس المصير الذى لقيه على يدي الخليفة القائد حمدان أبو عنجة وشيوخ الطرق الصوفية مثل العركي الشيخ حمد النيل والشيخ حسين الزهراء ونظار القبائل مثل زعيم الكبابيش ومادبو شيخ الرزيقات، بالإضافة للأشراف رهط المهدي أنفسهم الذين قضى عليهم قضاءً مبرماً.

كما أرسل الخليفة تجريدة أخرى لغزو مصر بقيادة الأمير الجعلي عبد الرحمن النجومي، بلا عدة أو عتاد يذكر، علماً بأن مصر كانت تحت الاحتلال البريطاني منذ 1882م، قبل انتصار المهديّة بثلاث سنوات، وكان الخليفة مدركاً للمصير الحالك الذى كان ينتظر مفرزة النجومي المتقدمة نحو مصر، راجلة وعلى ظهور الدواب العجفاء، إلى أن أبيدت عن بكرة أبيها فى توشكى عند الحدود.

ولقد جاء عبد الله ول تور شين على ظهر حماره (وليس حصاناً كشأن الفرسان السودانيين) من رهيد البردي، باحثاً عن مشروع زعيم ذى كاريزمية لغسل دماغه بالخرافة التى راجت فى غرب إفريقيا عن ظهور المهدي المنتظر؛ وذهب للشيخ محمد شريف نور الدايم وعرض عليه فكرة المهديّة، ولكن ذلك الشيخ العالم استسخر الموضوع وأشار عليه ساخرًا بالبحث عن "محمد أحمد عبد الله الدنقلوي" أحد تلاميذه السابقين، فهو الأشد طموحاً وتطلعاً والأقرب لشراء مثل تلك الفرية والتماهي مع مثل تلك الخزعبلات. وبالفعل ضرب ول تور شين فى نواحي الجزيرة إلى أن عثر على الدنقلوي فى المسلمية، منهماكاً فى بناء قبة شيخه قرشي ود الزين. وما أن رآه حتى قفز من الحمار وركع أمامه متبتلاً ومقسماً أن ذلك هو المهدي المنتظر الذى رآه فى الصحو والمنام، بنفس الموصافات التى أعلنها عثمان دان فوديو كبير الفلاني "الفلاتة". وعلى الفور قبل المهدي الفكرة، وفى الحقيقة، كان لا بأس بها من ناحية تكتيكية سياسية، طالما أنها ستساهم فى استقطاب المجاهدين للثورة ضد الحكم التركي الاستعماري. ولم تكن تلك هي المرة الأولى أو الأخيرة التى يتم فيها تسخير المعتقد الديني لخوض الفتوحات التحررية أو الاستعمارية، منذ الحروب الصليبية وردة الفعل الصلاح الدينية الأيوبية، مروراً بالهجمة الاستعمارية الأوروبية على إفريقيا وآسيا والأمريكتين لنشر المسيحية دين السلام والمحبة.... إلخ! (قال أودنجا أوجنجا نائب زعيم الثوار الكينيين الماوماو - جومو كنياتا - قال لأحد المتنفذين الاستعماريين الإنجليز: لقد أتيتمونا والإنجيل فى أيديكم والأرض فى أيدينا، ثم تركتم الإنجيل فى أيدينا وأصبحت الأرض فى أيديكم). ولقد نصب المهدي صديقه عبد الله ول تورشين نائباً أولاً له فى التنظيم والجيش وفى الدولة المزمنة، وكنّاه بلقب "خليفة الصديق" تيمناً بأبي بكر الصديق الساعد الأيمن للمصطفى عليه الصلاة والسلام وأول خليفة للمسلمين بعد رحيله، وزكاه لعموم الأنصار بالمنشور الصادر فى السادس والعشرين من يناير 1883م، الذى جاء فيه:

(فجميع ما يعمله الخليفة بأمر من النبي أو بإذن منا، واعلموا أن جميع أفعاله محمولة على الصواب لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب.)

وكان ذلك بمثابة "كارت بلانش" حملته الخليفة على جبينه إلى أن لقي مصرعه في أم دبيكرات يوم 24 نوفمبر 1899 بعد عام من معركة كرري. وبموجب ذلك التفويض حكم الخليفة شعب السودان بالقهر المفرط والبطش بلا رحمة وبالسياسات الرعناء، دون رقيب أو ناقد؛ فأشعل نيران القبلية وشرور المحسوبية، وأتى بأهله التعايشة وأمرهم على العباد بجميع مناطق السودان، دون مؤهلات أو تعليم أو خبرة؛ وأدخل البلاد في حروب داخلية وخارجية استنزافية؛ فترك سكان الشواطئ النهرية مناطقهم وهجروا الزراعة وانهارت الأوضاع الاقتصادية، وحلت بالبلاد مجاعة سنة ستة (1306هـ-1888م)، ومع نهاية المهديّة تناقص عدد السودانيّين من ثمانية ملايين إلى مليوني نسمة فقط، كانوا كالفرن المذعورة داخل قفص محكم الرّاج.

والخليفة نفسه لم يكن متفكّهاً في أمور الدين أو السياسة، ولم ينل أي تعليم سوى ما تلقاه في خلوة أبيه الفكي "البصير" محمد التقي (الذي وصفه الحارثي قائلاً: أكان للمهدي داك ولداً قتل فوق عزه... حتّ ود البصير دار يسوينا في طيز وزه؟). ولقد كان السودانيون الطموحون يذهبون من جميع أركان البلاد للاستزادة من العلم بالرواق السناري ورواق دارفور بالأزهر الشريف وبجامعة فاس بالمغرب والقيروان بتونس منذ ما قبل زمان الخليفة عبد الله؛ ولقد لمعت أسماء من خريجي الأزهر في سماء الخرطوم مثل الشيخ الأمين الضيرير المريومابي (جد الشيخ علي عبد الرحمن رئيس حزب الشعب الديمقراطي) والشيخ أحمد البدوي البديري الدهمشي (أستاذ الشيخ قريب الله)، لدرجة أن المهدي أمر أنصاره بألا يتعرضوا لهما يوم فتح الخرطوم. ولكن الخليفة جاء بدهاء القروي الذي تمرس في المخاشنات القبلية المحلية وفي غارات صيد الأرقاء من الجنوب، مع كثير من الحنكة الفطرية والثعلبية وأساليب الهمبابة والسماصرة وصعاليك الأسواق hustlers، واعتمد على التقرب

من المهدي على حساب الآخرين، حتى انفرد بالأمر بعد الموت المبكر للإمام - (الذي ما زال موضع شك وريبة، حيث سرت إشاعة تسميمه؛ ومن ذا الذي كان أقرب إليه آنئذ من الخليفة عبد الله؟ وهي نفس الإشاعة التي حامت حول باريا بعد موت جوزيف ستالين).

عموماً، جاء الخليفة للحكم ليجعله ملكاً عضوداً بين ليلة وضحاها، فتفشى الفساد (الذي ضرب له الشيخ بابكر بدري عشرات الأمثلة في مذكراته) والتخبط الإداري والعنف المنفلت والفوضى والتردي الاقتصادي والاجتماعي؛ وفي آخر أمره أحاط الخليفة نفسه بأقربائه فقط، أخيه الأمير يعقوب جراب الراي وابنه شيخ الدين رئيس هيئة أركان الجيش، و لم يستمع لنصائح القادة المحنكين مثل الأمير عثمان دقنه، فخسر معركة كرري خلال أربع ساعات، وتكبّد أهل السودان عشرة آلاف شهيداً في ذلك اليوم، أما الخليفة فقد ولّى الأدبار تاركاً أنصاره كثعبان قطع رأسه، وأخذ يقول للفازيين معه من كبار الأمراء: (أنصار الدين! خبّوا، النبي الخدر معانا). فقال له الخليفة شريف ابن عم المهدي: (ول تورشين! إنت للحين في كضوياتك دي؟ ترى نحن معردين، النبي الخدر بعرد ماله؟).

إنن، فلقد عُرف الخليفة بالكذب مبتدعاً وخبراً، (وتلك من أهم القواسم مع البشير)، وكان يأتي كل صباح لمجلسه من الأمراء وقادة الجيش والعسس ليقول لهم: " جاعني سيد الوجود البارحة في المنام، وقال لي كذا وكذا وكذا..."، وما زعم أن سيد الوجود، أي النبي عليه الصلاة والسلام، قاله يصبح تعليمات وتشريعات وأوامر لا تقبل الجدل؛ وهو شخصياً أول من كان يعلم أن مسلسل المهديّة برمته عبارة عن مسرحية من نسج خياله لإيجاد غطاء ديني تحفّه الشعوذة (بمسحة صوفية) لإيديولوجية فاشية قهرية، خاضوا بها حرب التحرير، و حكموا بها البلاد بعد ذلك، على نمط الاستبداد الشرقي المعروف منذ الأزل **Oriental Despotism**.

وهناك دليل آخر على حقيقة الملهاة التي ضحك بها الخليفة عبد الله على ذقون السودانيين: فبعد استوائه على العرش على إثر وفاة الإمام المهدي، نظم بعض

أقارب المهدي و كبار الأمراء من غير التعايشة أول محاولة انقلابية على الخليفة، وكادت أن تنجح، إذ تماسكت حلقاتها بتنظيم دقيق، حتى تمت محاصرة بيت الخليفة ورميه بالسهم والرمح، ولكن كتبت النجاة للخليفة (بنفس الطريقة التي نجا بها الملك الحسن المغربي من انقلاب الجنرال أوفقي، عندما حاصرت المقاتلات الحربية طائرة الملك العائد من باريس، وأطلقت قذيفة تفجرت داخل الطائرة، وأمر الملك الطيار بأن يخطر برج المراقبة أن الملك قد مات، ويجب أن يوقفوا الضرب حتى يهبط النساء والأطفال سالمين، وهذا ما حدث. وعندما خرج الملك من باب الطائرة بمطار الدار البيضاء كان الجنرال أوفقي وسط الحضور، وبهت وانسحب هارباً، و لكن زبانية الملك لحقوا به وقتلوه بأبشع الطرق).

وعلى نفس المنوال، أرسل الخليفة من يقول للنوار إن ول تورشين قد أصيب وتوفى، فليكم بالانتظار حتى يتم إخلاء النساء والأطفال، "ومن ضمن النساء ابنة الإمام المهدي، زوجه الأثيرة"، وكان ما حدث بعد ذلك بمثابة هدنة منحت وقتاً كافياً لمفارز المقاتلين التعايشة أن تتجمع وتطوق الأشراف وباقي المتمردين وتقضي عليهم قضاءً مبرماً، و ترسل من تبقى منهم إلى جبل الرجاف بغندوكرو في أقصى الجنوب حيث تنتظرهم التماسيح و ذبابة التسي تسي الفتاكة.

وبعد فترة، توسطت ابنة المهدي زوج الخليفة عبد الله طالبة منه أن يطلق سراح أعمامها أشراف الجزيرة لبب، قائلة له: (عليك المهدي تفكهم!)، فرد قائلاً: (المهدي ياتوا؟ أنا سوينه مهدي. ده حكم أنطاني ليه الله ساكت، وانتو حاسدني عليه. مافي مهدي).

وقد تكون هذه من الميثولوجيا السودانية أو من نسج خيال الحبوبات؛ ولكن، إذا غلبك الفعل أنظر دليله: فلو لم يكن حكم الخليفة مؤسساً على الأوهام والدجل والجهل المسلح وشهوة الحكم من أجل الحكم، لما حدث للبلاد ما حدث لها؛ فقد توقفت عجلة الإنتاج، وأغلقت الخلاوي ومعاهد العلم، ولم يحدث أي تقدم فني أو صناعي أو لوجستي أو ثقافي أو اجتماعي طوال حكم الخليفة لأربع عشر سنة

كاملة، لدرجة أن السلاح والعقاد الذي حمله الأنصار لمجابهة الأتراك الجدد بقيادة كتشنز في كرري شتاء 1898م هو نفس السلاح والعقاد الذي استخدمه المهدي لفتح الخرطوم في يناير 1885م؛ أي أن فترة المهدي كانت عبارة عن جذب و قحط واعتقال لطافات الإنسان السوداني وتصفية لأولاد البحر، أي كل السودانين باستثناء قوم الخليفة عبد الله القادمين من جنوب دارفور، مما جعل الحارذلو يستغيث:

(يا يابا الفقس "ملك الحبشة"... ويا الانجليز ألفونا!)

و في الحقيقة، فإن الخليفة/ البشير سيم سيم يا رفيق، كما قال شوقي بدري:-

- تيمناً بالخليفة، ترك البشير موضوع أصله لغزاً لم تفك طلاسمه، رغم إعلاء نظام الإخوان لشعار القبلية، و كان الجميع يحسبون أن ثلاثة قبائل نيلية هي التي تحكم السودان- الجعليون والشايقية والدناقلة، ويحسب الناس أن البشير جعلني من حوش بانقا بأعماق ديار هذه القبيلة التي تنسب نفسها للعباس عم النبي عليه الصلاة والسلام. ولم ينف البشير انتماءه للجعليين، وبدا كأنه متشرب من ثقافتهم، خاصة العرضة على أنغام الدلوكة، ثم حديثه العنجهي الذي أورده الترابي: (هسع إذا الغياوية امتطاها جعلني حقو تتشرف). فهو كالخليفة الذي ألحق عرقه بالتوانسة، يريد لا شعورياً أن ينتمي إلى أرومة تبرر تزعمه لدولة الرسالة العربية الإسلامية. ولكن الحقيقة التي يجفل عنها البشير هي أن جدوده بديرية دهمشية، أتوا لمنطقة الجعليين في سنة المجاعة من قرية قنتي (مركز مروي)، تاركين وراءهم شخصاً واحداً هي (بت خبير) التي كانت تباع الجرم في سوق الأربعاء بقنتي، وقد رأيتها عام 1957 في أول زيارة لي لقرية أبي و أمي، واشترت منها كميات هائلة من الجرم، وعندما جاءت الإنقاذ في 1989/6/30 ذكرني بها أحد

أقربائي بالسوق العربي، إبراهيم الزبير عليه رحمة الله، و قال لي إنها جدة البشير، ذاكراً إنه قابل والد البشير بمستشفى الخرطوم وتعارفا وتأكد تماماً أن هؤلاء هم القوم الذين تركوا قنّتي في سنة القحط وهاجروا، شأنهم شأن السوريين هذه الأيام، إلى الحوش و صراصر وحلة كوكو.

- وتتماً كالخليفة عبد الله، استجار البشير بالإيديولوجية الإسلامية علّها تجعل منه الحاكم باسم الله عز و جل، وتجعل الخروج عليه جريمة تعاقب بالقتل والصلب وكافة صنوف التنكيل؛ وهي نفس الاستراتيجية التي اتبعها دكتاتور آخر في تاريخ السودان الحديث، هو المشير جعفر نميري الذي أعلن نفسه أميراً للمؤمنين في سبتمبر 1983، وجعل من السودان خلافة إسلامية تحكمها الشريعة؛ (و كانت النتيجة أن تمرد الجنوبيون المسيحيون في الجيش بقيادة العقيد جون قرنق، وأسسوا الجيش الشعبي لتحرير السودان الذي استمر في المقاومة إلى أن حقق انفصال الجنوب عام 2011).

- وتتماً كالخليفة، لم يكن العقيد البشير متفوقاً على أقرانه السودانيين من ناحية التعليم أو السجل النضالي أو الكاريزما، ولم يكن معروفاً حتى وسط الضباط أبناء دفعته، كما لم ينل من التعليم إلا الحد الأدنى، وهو سنة الكلية الحربية فيما بعد المرحلة الثانوية؛ و معروف وسط أبناء جيله الطموحين أن من فاته قطار جامعة الخرطوم فهو يلتحق بجامعة القاهرة الفرع ليدرس في المساء، أو أي شيء من هذا القبيل؛ أما أن يكتفي البشير بالكلية الحربية، وثمة بعثة عسكرية بماليزيا مشكوك في أمرها (بمعنى أن الذي رتبها هو تنظيم الإخوان المسلمين بسبب الوجود المكثف لجماعتهم بكل مفاصل الحياة في ماليزيا)، فهو ما أدى للعقد النفسية التي ملأته حقداً على البشرية، وجعلته يتشبث بالحكم الطاغوتي لكي يشفي غليله ويشبع غرائزه العدوانية، ولكي يستمر في

حربه على الطواحين الهوائية... وذلك ببطشه بأبناء الشعب السوداني المستغيث عندما يخرجون في مظاهرات سلمية.

- ومثلما قرب الخليفة رهطه ومكنهم من الجيوب الخصبة بالاقتصاد السوداني وبكافة مقومات الدولة، أحاط البشير نفسه بأشقائه وأصحابه الذين أصبحوا من أثرى أثرياء السودان، وبكل من تربطه به صلة قرى من حوش بانقا؛ ومثلما تزوج الخليفة مثنى وثلاث ورباع، غير ما ملكت أيمانه من سراري الحروب، فقد (طبق، أي ثنى) المشير، ولكنه لم ينجب، بينما أنجب الخليفة ثمانية عشر ولداً وعدداً من البنات؛ والشيء الإيجابي الوحيد في سيرة الخليفة أن ذريته نشأت على التواضع وجميل السمائل والتميز في الأداء الأكاديمي والمهني، وظل معظمهم مرابطين على الجانب الصحيح والمعافى من التاريخ، وسجلوا مواقف ضد الأنظمة القمعية، مثل الشهيد محمد سليمان أحد أحفاده؛ وباستثناءات بسيطة، كان معظمهم جزءاً من نضالات الشعب، مثل صلاح عبد السلام الذي تعرفت عليه أيام الانتفاضة ووجدته وطنياً صميماً ومتقفاً متفاعلاً مع قضايا الوطن، كما تعرفت على آخرين منهم لا يشبهون أبناء البيوت الطائفية الكبيرة الذين يعيشون في أبراج عاجية وقصور مشيدة، ويضفون على أنفسهم هالات قدسية وهمية، بعيداً عن معاناة الكادحين. وهو نفس الطريق الذي يسير عليه رهط البشير الأقربون، وكأنهم يسعون لتأسيس أسرة Dynasty ملكية تهارقية بعنصرية جديدة.

- ومن الناحية الأخرى، ثمة مفارقة بين الخليفة والبشير تستدعي التأمل، وهي أن الأخير مغلول اليد بحكم توازن القوى السودانية الراهن، ولا يستطيع أن يتخلص من خصومه جميعهم ضربة لاذب؛ وما كان فاروق أبو عيسى أو الحزب الشيوعي أو الدكتور أمين مكي مدني أو الصحفي فيصل محمد صالح ومحجوب محمد صالح وعمر الدقير ومجموعات

الشباب المعارض بالجامعات السودانية... ما كان هؤلاء ليحملوا بالعيش في دولة الخليفة عبد الله أو التقرع بكلام لا يرضاه أنصاره في تلك الأيام. والبشير يتمنى أن يسحق خصومه ويحشرهم في عجز أوزة، ولكنه مكتوف اليدين بسبب التراكم النوعي والكمي لقيمة الحركة الوطنية السودانية منذ بداية القرن العشرين - أيام الكفاح ضد الاستعمار، ثم النضال ضد كافة الأنظمة الرجعية والشمولية التي حكمت البلاد بعدئذ. وما كان الإخوان المسلمون رقماً يذكر بين هذه القوى الوطنية، ولم يظهروا للسطح إلا بعد ثورة أكتوبر 1964م. وهكذا، فإن البشير يتقدم ويتفهم، يبطش ثم يتراجع ويجنح للتفاوض مع خصومه؛ وقد أبرم عدة اتفاقيات معهم، أهمها نيفاشا 2005 والقاهرة في يونيو من نفس ذلك العام؛ ونتيجة لذلك تداعت قوى المعارضة نحو الخرطوم، وشاركت في الحكومة والبرلمان، وساد الشارع جو من الانفراجة النسبية، واستطعنا أن نزور بلادنا بعد انقطاع دام خمس عشرة سنة. صحيح أن البشير يتنكر للعهود على الدوام، وصحيح أنه عاد للحكم الاستبدادي الذي سبق اتفاقية نيفاشا، ولكنه لا يحمل كارت بلانش كالخليفة عبد الله، وصلاحياته محدودة، إذ لا زال بالداخل من ينتقدون النظام في ندوات الشوارع وبعض الصحف، ولا زال يوسف حسين وسليمان حامد وصديق يوسف والعديد من السياسيين الصناديد يقولون ما بدا لهم.

لذلك، فلا داعي للتقليل من جهود المعارضة الموجودة بالداخل أو الخارج، فالنظام يعمل لها ألف حساب، وما انفك يبحث عن مسارات للحوار معها، رغم لفه ودورانه. ولقد لعبت المعارضة الخارجية دوراً مفصلياً في فضح النظام إعلامياً وفي استقطاب الرأي العام الحر في أوروبا وأمريكا ضد ممارسات النظام وانتهاكاته لحقوق الإنسان، تماماً كما كانت المعارضة الجنوب إفريقية والروديسية تفعل في الخمسينات والستينات، إذ كانت مقيمة بقضها وقضيضها في لندن، عندما كان القادة الكبار بسجن جزيرة روبن وفي معتقلات سالسبوري؛ ومن لندن شنت كوادر

المؤتمر الإفريقي وجبهة التحرير الزمبابوية نضالاتها حتى وضعت حداً للأبارتايد عام 1994، ولحكم الأقلية البيضاء في روديسيا قبل ذلك بنيف وعشر سنوات.

آخر الكلم:

إن نظام البشير، النسخة الحديثة لحكم الخليفة، آيل للسقوط بلا أدنى شك؛ ولن يحتاج السودانيون هذه المرة للاستعانة بأي قوة أجنبية، فقد وضع الإخوان المسلمون أنفسهم سابقة تشير إلى سهولة إسقاط الأنظمة في السودان، إذ جاءوا للسلطة في ليل الثلاثين من يونيو 1989 على ظهر أربع دبابات صلاح الدين ومائة مجند من تنظيمهم. ومن ناحية أخرى، فإن تنظيم الإخوان المسلمين قد تمت تصفيته أو كادت في كل من مصر وتونس، ولقد تغير ميزان القوى في الشرق الأوسط إلى غير رجعة؛ فما كان من البشير إلا أن خلع جلبابه السابق بسرعة فائقة، محاولاً اللحاق بركب القوى المناوئة للإخوان المسلمين. هذه هي الصورة على نطاق الشرق الأوسط، أما داخلياً، فما زال البشير يكابر ويتحدث عن الشريعة (المدغمسة) وغيرها مما يحسب أنه سيطيل عمر نظامه ولو لبضع سنين. ولكن، في نفس الوقت، البحث الدعوب عن قنوات الحوار مع المعارضة يشير إلى أن النظام محاصر ومتهافت ومتهالك، و ما هي إلا بضعة شهور حتى يذهب إلى مزلة التاريخ. فلتتوحد المعارضة وتتحمل مسؤوليتها كاملة وتكف عن الشجار والجدل فيما بينها، فهي تواجه نظاماً عبارة عن نمر من ورق.

إمبراطوريات الرعب

والظلم من شيم النفوس، فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم - المتنبي

كتب الأستاذ شوقي بدري مؤخراً بالصحف الإسفيرية ورقتين دسمتين ومتميزتين قارن فيهما بين المهديّة ونظام الإخوان المسلمين الحالي بالسودان، مقدماً الأدلة الموضوعية من مذكرات جده بابكر بدري، ذلك المجاهد الخرافي الذي انضم للإمام المهدي طائعاً مختاراً، لاحقاً به قبيل دخوله الخرطوم في مطلع 1885، وشارك في تلك المعركة وفي العديد من الحروب التي خاضها الخليفة عبد الله بعد ذلك، خاصة تجريدة الأمير عبد الرحمن النجومي التي اتجهت نحو مصر بهدف غزوها، وفي حقيقة أمرها كانت مجرد حيلة للتخلص من ود النجومي نفسه والكثير من (أولاد البحر) مثل بابكر بدري، لأنهم من الوعي والطهارة والشجاعة بمكان، وذلك ما يخشاه الخليفة، مثل صدام حسين الذي افتعل حرباً ضد إيران الخميني عام 1980 ليقذف إلى أتونها بمن أراد أن يتخلص منهم من أجمل الضباط وأكثرهم كفاءة. وعاد بابكر بدري بعد الحبس والتشرد في توشكي ودرأو وصعيد مصر والقاهرة، وأقام بأمر درمان تاجراً حراً، ولكنه أنصاري جاهز كجندي احتياطي يستدعيه الخليفة متى شاء، وحدث ذلك بالفعل في شتاء 1898 حيث كان بابكر بدري جزءاً من جيش الأنصار الذي تصدى للجنرال هربرت كتشنر في كرري. ونحمد الله الذي كتب النجاة لهذا المقاتل العبقري ليعمر طويلاً ويعيش أنضر سنوات عمره بين رفاة وأم درمان - تاجراً ثم مفتشاً للغة العربية بوزارة المعارف ثم مؤسساً لتعليم البنات بالسودان، بادناً بنات أسرته ومتطوراً حتى أسس وأدار مدارس الأحفاد للبنين والبنات التي لا زالت مشعلاً للتعليم والاستنارة وخدمة الوطن في قلب أم درمان؛ وفي تلك الأثناء صنف

مذكراته ذات الثلاثة أجزاء التى سرد فيها قصة حياته وتجاريه الشخصية مع المهديّة من ألفها ليائها، بصدق وأمانة وموضوعية وشجاعة أدبية وسلاسة وطلاوة تجبرك على قراءة هذا السفر مرات ومرات دون كلل.

وتشير المقاربة التى أجراها شوقي بين المهديّة والنظام الحالى إلى أن الدكتاتوريات الثيوقراطية الفظة شديدة الشبه ببعضها البعض، وهى تستخدم نفس الأساليب والمعاول فى البطش بالخصوم وفى التمكين والتثبيت بالحكم وسرقة مقدرات البلاد إلى أن يتم الانهيار الكامل للوطن برمته. وهكذا، فإن التاريخ يعيد نفسه، ولقد كتب الله على شعب السودان أن يعيش نفس المسلسل القمىء مرتين خلال قرن واحد.

ولقد تناول كاتب آخر نفس موضوع التناسخ هذا فى دراسة طولها أكثر من خمسمائة صفحة، وهو البروفيسير فرانسيس فوكوياما صاحب "جذور النظام السياسى" - 2011 م - **The Origins of Political Order** - الذى ضمّنه التوصيف المتعمق لأنظمة الحكم بجميع الحضارات الإنسانية منذ عهود الإقطاع، مثل الممالك الصينية التى ازدهرت منذ عشرة آلاف سنة، والتى تأسست بحد السيف والرعب والتنكيل بالخصوم بمن فى ذلك أقرب الأقربين. وحكى فوكوياما فى ص 8/197 عن الإمبراطورة واو زاو Wu Zhao ، على سبيل المثال، كنموذج مطابق لكلما تقوم به الأنظمة الدكتاتورية الحديثة، رغم أنها حكمت الصين فى القرن السابع الميلادى - من 655م حتى 690م. ولقد كانت فى بداية أمرها مجرد جارية concubine ذات حظوة لدى الإمبراطور جاوزونج Gaozong، وقتلت ابنها الرضيع وألصقت التهمة بزوجة الإمبراطور العقيمة التى تمت تصفيتها، ومن ثم أصبحت أكثر قرباً من الإمبراطور، ومع تقدم سنه أصبحت الأمرة والناهية فى البلاط، وقتلت ولي العهد وألصقت التهمة بابنها وأجبرته على الانتحار. ولما توفى الإمبراطور عام 683 أبعدت ابنها زونجو عن العرش بعد يوم واحد من تنصيبه، وحبسته بعيداً عن العاصمة، وحكمت بقبضة حديدية لا مثيل لها فى تاريخ الصين، حتى انتفض الشعب وأزالها عام 690 وأعاد ابنها زونجو للملك.

ويخلص فوكوياما إلى أن البشرية ظلت تتحمل النقص في الأنفس والثمرات ثمناً للنظم السياسية التي حكمت في جميع أركان الدنيا، عبر كافة مراحل التاريخ. بيد أنها كذلك ظلت في حالة حوار وصراع مستمر بين دواعي الخير ونوازع الشر في النفس البشرية، ولقد سجل الخير بعض الانتصارات، بدءاً بالديمقراطية الشعبية اليونانية القديمة، ومروراً بالمؤسسات والفلسفات التي حاولت أن تكبح جماح الدولة وتمتص عدوانيتها وتشدب ميلها للبطش ببني البشر، مثل وثيقة الماقنا كارتا البريطانية عام 1215م، والبرلمان الإنجليزي الذي أخذ يمارس صلاحياته منذئذ كحارس للدستور وضابط لصلاحيات العرش من ناحية، والجهاز التنفيذي (الحكومة) من الناحية الأخرى؛ ومثل الديمقراطيات الليبرالية التي ترسخت في الغرب منذ الثورة الأمريكية 1765/1783 والثورة الفرنسية 1789 ثم ثورات 1848 الأوروبية التي أطاحت بالأنظمة الإقطاعية.

ويكاد فوكوياما أن يستدل ببيت أبي الطيب أعلاه (والظلم من شيم النفوس....) في جميع مفاصل كتابه عن تطور نظم الحكم؛ وعلى الرغم من أنه صاحب نظرية (نهاية التاريخ) التي راجت بعيد انهيار المعسكر الاشتراكي قبل ربع قرن، معلنة انتفاء الحاجة للحروب مع تصرم الحرب الباردة واستقرار الأنظمة الغربية الديمقراطية، إلا أن العالم ما زالت تمزقه النزاعات والتوترات والحروب الإقليمية والأهلية التي عجزت المؤسسات الراهنة - كمجلس الأمن - عن وضع حد لها؛ وما زالت المخاطر محدقة بالبشرية من كل صوب وحذب. وثمة أنظمة أوتوقراطية هنا وهناك ذات شوكة سياسية وعسكرية نووية وصناعية وديموغرافية، ولو التأمّت مع بعضها البعض كما فعلت دول المحور قبيل الحرب الكونية الثانية، فإنها لا محالة ستجر العالم نحو حرب كونية ثالثة - وهي تحديداً روسيا والصين وإيران وكوريا الشمالية وتابعهم مثل كوبا وسوريا والسودان الإخواني والتنظيمات التكفيرية المسلحة التي تكاد أن تغتلى السلطة في الهلال الخصيب وليبيا وبعضاً من شمال إفريقيا والصحراء الكبرى، وبعض البؤر الأخرى بالشرق الأوسط كاليمن؛ والملاحظ

أن كثيراً من الغزل والتوافق ينساب بين هذه الجهات **already**، كما يدلل إجماعهم على دعم النظام الأسدي السوري المدمر.

وما زالت هناك أنظمة دكتاتورية تدار بنفس منهج الفاشيين والنازيين والستالينيين، كالحال في كوريا الشمالية منذ عام 1953؛ وفي الصين منذ 1949 (على الرغم من المسحة الليبرالية التي اكتسبها النظام منذ "سياسة الجديدة" - وهي التطور المتوازي بين المنهج الشيوعي القابض واقتصاديات السوق، بلا أدنى قدر من الحريات)؛ وما ظل يحدث في العديد من الدول منذ خروج المستعمر، مثل إفريقيا الاستوائية وزمبابوي ورواندا وزائير وأنغولا والصومال والسودان وجنوب السودان وتشاد... إلخ، وهذه جميعها بؤر توتر واقتتال مزمن ومجاعات وكساد اقتصادي كامل وتخلف اجتماعي، وتلك هي البيئة المثلى لتفريخ الاتجاهات المتطرفة والتنظيمات الفاشية، كما أنها رصيد جاهز للمحور الدولي الشيطاني الذي قد يبرز للوجود في أي لحظة من رحم الدول ذات الأطماع التوسعية والإمبريالية والرافضة للشرعية الدولية والداعمة للإرهاب، مثل روسيا وإيران... إلخ.

ولقد كانت الأنظمة الدكتاتورية في العالم الثالث (بالإضافة إلى إسبانيا على عهد الجنرال فرانكو والبرتغال أيام سالازار) تقنات من توازنات الحرب الباردة، فهي إما تتكى على الإتحاد السوفيتي ومنظومة المعسكر الاشتراكي، كما فعلت كوبا ومصر وإثيوبيا منقسمة هايلي مريام وليبيا والجزائر وهلم جرأً، وإما تصبح أفلاكاً دائرة حول الولايات المتحدة، يحرسها إعلان منرو **The Monroe Doctrine** لعام 1823م، وأحلاف إقليمية أخرى كحلف بغداد، أو الاتفاقيات الدفاعية الثنائية، كتلك التي دعمت نظام سوهارتو الديكتاتوري بإندونيسيا لأربعين سنة كاملة.

ولكن، ما زالت الدكتاتوريات مستمرة و مزدهرة حتى بعد ذهاب العالم ذي القطبين؛ ولقد برز القطب الأوحده، أي الولايات المتحدة، كالقوة العالمية التي ليس لها منافس بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية عام 1991/90. غير أن الدكتاتوريات المتناثرة هنا وهناك واصلت مسيرتها كأن شيئاً لم يكن. وعجز القطب

الأوحد عن تفكيك هذه المعادلة: فتراه إما يضرب عنها صفحاً كأنها غير موجودة على وجه البسيطة، أو يستصحبها ويتعاون معها في وضح النهار إذا كانت من ذوات النفط والموارد الاستراتيجية أو الأهمية الجيو سياسية ، أو يحاول معها بعض التجارب المختبرية على طريقة إياك أعني فاسمعي يا جارة، (أو كما يقول المثل السوداني "دق القراف خلّي الجمل يخاف")، وأهم هذه التجارب ما حدث من غزو عسكري لأفغانستان عام 2001 وللعراق عام 2003م.

كانت الولايات المتحدة تهدف من وراء هاتين الغزوتين أن تبسط عضلاتها flex muscles على فأر مختبر ما، وأن تجرب العنف (القانوني) المدعوم من قبل الدول الغربية والمجاز من مجلس الأمن (ولو بالصمت)، في وجه العنف المنفلت لطالبان بأفغانستان وصدام بالعراق (الذي أتهم زوراً وبهتاناً بامتلاك أسلحة نووية). وبالفعل، نجحت التجربة العسكرية في البورتين، إذ اقتحمت القوات الأمريكية بغداد (كسكين ساخنة في جوف قطعة من الزبد)، كما علق أحد الضباط الأمريكيان، و نفس الشيء في كابول، مما كشف تلك الأنظمة الدكتاتورية ووضّح أنها أسد على شعوبها، وفي الحروب نعاماً، فهي في حقيقة الأمر مجرد نمور من ورق.

على كل حال، وبعد مضيّ نيف وعقد على تلك الغزوات، وقف حمار الشيخ الأمريكي في العقبة، وأدركت الولايات المتحدة أنها أقحمت نفسها في أتون لا قرار لها ورمال متحركة كلما توغلت فيها كلما جذبتك إلى أسفل سافلين؛ و لم تتحقق الديمقراطية الموعودة في أي من الدولتين، بل تضرمت نيران الإرهاب والفساد والمحسوبية والقبلية والجهوية والطائفية، وضربت الفوضى العارمة أطناهاها، وأوشكت العراق أن تسقط في يد الجماعات الإرهابية المتطرفة، خاصة داعش، وأوشكت أفغانستان أن تعود لحكم طالبان.

إذن، فالعنف (القانوني) وحده لا يكفي، ولا تستطيع الولايات المتحدة أن تؤدّب عشرات الدكتاتوريات المتناثرة على كوكب الأرض بالطريقة التي اتبعتها في

أفغانستان والعراق، وهذا اختبار لن تنجح فيه الدول الغربية مهما كانت سطوتها العسكرية والاقتصادية، لعدة أسباب، منها على سبيل المثال:-

- إن الشعب الأمريكي وشعوب غرب أوروبا قد سئمت الحروب، وقد خرجت من الحرب الكونية الثانية، وفيما بعدها الحرب الكورية 1950-1953 وحرب السويس 1956 وحرب فيتنام 1966/1975، أكثر ميلاً نحو السلام العالمي والاستقرار الذي يحرسه ميثاق الأمم المتحدة، برغم نقائصه.
- إن الغرب الآن بصدد حرب أخرى أقلقته مناهة وسودت لئاليه، وهي الحرب الاقتصادية الخفية ضد الصين والهند و دول البركس BRICS التي تمددت في جميع أنحاء الدنيا ووضعت يدها على مصادر المواد الخام و الأسواق بالعالم الثالث، خاصة إفريقيا.
- ليس هنالك ضمان لنجاح أي مغامرة عسكرية أخرى يخوضها الغرب بقيادة الولايات المتحدة، إذ قد تتحول إلى فيتنام أخرى، أو أفغانستان أو العراق؛ أنظر يا رعاك الله للحرب السورية التي استمرت لفترة أطول من الحرب الكونية الأولى، والتي قذفت بمئات آلاف من لاجئها نحو الشواطئ الأوروبية والحدود اليونانية/المقدونية والمجرية/النمساوية، والغرب كالمترج العاجز، وتراه يفضل أن يتحمل ويستوعب كل أولئك اللاجئين، ولن يدخل في مواجهة عسكرية مع نظام بشار الأسد، حتى لو كان هراً وليس ضرغاماً.

وفي هذه الأثناء، كيف تفكر الدكتاتوريات القمعية التي ضربت جذورها في العديد من دول العالم الثالث، مثل كوريا الشمالية بزعامة كيم جونغ - أون الذي ورث الحكم عن أبيه وجده كيم إيل سونج؛ ومثل زمبابوى التي ظل يحكمها روبرت موقابي منذ عام 1980 وقد بلغ الثانية والتسعين من العمر؛ ومثل السودان الذي أناخ عليه المشير عمر البشير منذ 1989؟

• إنها أنظمة مراوغة وثعلبية ماهرة، واعية بدروس التاريخ ومدركة للتوازنات الدقيقة التي تحكم العالم منذ نهاية الحرب الباردة، غير أنها لم تأت بجديد فيما يختص بآليات ودواعي الاستمرار في الحكم، فهي ما برحت تستنسخ أساليب الأباطرة الدمويين الذين حكموا كافة أطراف العالم منذ آلاف السنين؛ وهي بالتحديد نسخة القرن الحادي والعشرين من نظام الإمبراطورة الوحشية واو زاو Wu Zhao. ولقد توطدت أنظمتهم عبر المراحل التالي ذكرها:

- تماماً كما فعلت الإمبراطورة واو فإن فاتحة الشر كانت استخدام رئيس العسس للتخلص من جميع الضباط الكبار واستبدالهم بذوي الولاء رغم ضмор الكفاءة، ثم الانقلاب على ذلك الضابط الأعظم - أما واو فقد ذبحته، وأما حكومة البشير في أول أمرها فقد استخدمت اللواء عثمان الشفيع لهذه المهمة ثم لفظته، ونحمد الله أنها لم تلحقه برئيس العسس الصيني في الدار الآخرة.
- ومارست الأنظمة القمعية الحديثة نفس أساليب التمكين التي سارت عليها واو، وذلك بالتطهير الكامل لجهاز الدولة، ووضعه في يد الكوادر المقربة أو الحزبية كيما اتفق.
- وخلق أجهزة أمنية موازية للمؤسسات الحكومية وشحنها بالبصاوين الملازمين لبني البشر في حلهم وترحالهم كركيب وعتيد؛ ولقد كانت واو أول من اخترع مثل هذا الجهاز، ثم طوره النازيون و البعثيون والأمريكان (السي آي إي) والروس - الكي جي بي- والشاهنشاه (السافاك) الذي ورثه الحرس الثوري) وجماعة الإخوان المسلمين - التنظيم السري - التي ظلت تحكم السودان منذ ربع قرن.

- والقضاء على الطبقة الوسطى بأكملها، كما فعلت واو التي سحقت كل الإقطاعيين والكولاك ببلادها حتى تكسب الأقتان والفلاحين البسطاء، وهذا وحده هو الذي مكنها من الاستمرار في الحكم من عام 655م إلى 690م؛ ولكن ذلك النجاح النسبي جعلها في نفس الوقت مغرورة لحد الجنون، فأصبحت زانية مفرطة في متع الفرج وهي في السبعين من عمرها، وأصابتها العديد من الأمراض الجنسية، فقامت ضدها ثورة أعادت ابنها زونزونق Zhonzong للعرش.

- وما يجمع بين هذه الأوتوقراطيات، طارفها وتليدها، هي غريزة البقاء في السلطة عبر ترويع وترهيب وتقتيل الخصوم السياسيين الحقيقيين والمتوهمين، وخلق طبقة من المنتفعين والمطبلين والمطأطين لرؤوسهم الذين يعطونها غطاءً شبه شرعي؛ ولكن الذي يجمع بينها كذلك هو أن الولاء الذي يتم استقطابه بالرشى وكافة أنواع الفساد غير مضمون العواقب؛ وعبر التاريخ، دائماً تنهض الشعوب ضد جلاديها، وبسرعة خيالية ينفذ سامر الطبالين وتنايلة السلطان، كما حدث للاتحاد الاشتراكي الذي حكم السودان تحت قيادة نميري حتى انتفاضة أبريل 1985، وما حدث للحزب الوطني بزعامة حسني مبارك في مصر، وحزب زين العابدين بن علي في تونس. وعلى هذا المنوال وضع الشعب الصيني نهاية لإمبراطورته الشريرة واو زاو، وهكذا أيضاً ستنهض الشعوب المغلوبة على أمرها في السودان و زمبابوي و غيرها و تدك معاقل جلاديها.

- ولكن، وحتى تندلع الانتفاضة الشعبية الحاسمة، لا بد أن نتفحص الحقائق التالية، متكئين على دروس التاريخ:-

- إن الرشاوي في العصر الحديث تتجاوز الأوضاع المحلية لتشمل ذوي الخطر والوزن السياسي من القوى الإقليمية والدولية؛ فلقد ذهلت عندما قرأت ذات مرة أن المندوب الأمريكي المشرف على

ملف محادثات نيفاشا عام 2003/2005 تلقى مبالغ ضخمة من حكومة السودان، والغريب في الأمر أنه **got away with murder** ولم يلاحقه مكتب التحقيقات الفدرالي FBI ولا الإعلام الأمريكي الذي يتصيد مثل هذه السلوكيات لدى المسؤولين ونجوم المجتمع. وذهلت عندما سمعت بالمزارع التي أهديت للرئيس الإخواني محمد مرسي عندما زار الخرطوم، ومن قبله عمرو موسى الذي استهلك من المانجو السودانية (الدبشة و قلب التور) الأطنان التي أرسلها له وزير الخارجية الأسبق مصطفى ع إسماعيل؛ وبالطبع لم تكن مفاجئة بعد ذلك الرشاوي التي قدمت للمستثمرين الخليجيين والمصريين في شكل حيازات واسعة بفيافي البطانة والإقليم الأوسط والشمال، مصحوبة بتشريعات مجحفة في حق أصحاب الأرض السودانيين، ومتهالكة ومتهافئة أمام البرجوازيين العرب؛ وهكذا، فإن هذا البعد الجديد من الرشى العابرة للحدود قد يساهم في إطالة عمر النظام بما يضمنه له من دعم في أوساط الدوائر الحاكمة بالدول العربية.

- إن نظام البشير، على سبيل المثال، لا يستخدم ميزان القوى المحلي للبقاء في السلطة، وذلك بكسر شوكة القوى الوطنية وتزييف إرادة الحركة النقابية... إلخ، ولكنه أيضاً ينظر في ميزان القوى العربي والإسلامي عبر المنطقة كلها ويسعى لكسب تأييد الكتلة ذات الوزن الراجح؛ ومن هذا المنطلق، ظل هذا النظام حليفاً لإيران طوال الخمس وعشرين سنة الماضية، ظناً منه أنها قد أخافت الولايات المتحدة، وما انفكت تتحداها جهاراً نهاراً—**Death to America** - وأنها صاحبة الكفة الأكثر رجحاناً وسط الكتل الشرق أوسطية. ولكن فجأة، ومنذ بداية (عاصفة الحزم)، أدرك نظام البشير أن رياحاً جديدة تهب على الشرق الأوسط، خاصة بعد هزيمة الإخوان

المسلمين في مصر، فسارع بالانضمام للمعسكر الجديد الذي اشتبك مع الحوثيين وأرأبيهم الإيرانيين، وشارك بفصائل من الجيش السوداني في هذا المجهود علّه يضمن رضاء القوى العربية الرئيسة بالشرق الأوسط، وعله يشغل القوات المسلحة ببرنامج خارجي يصرف أنظارها عما يدور داخل بلادها، مثل صدام حسين الذي أدخل الجيش والشعب العراقي في مواجهة مفتعلة مع إيران دامت لعشر سنوات كاملة، ثم تركها و انسل كما تنسل الشعرة من العجين.

- وعلى خلفية الاشتراك في (عاصفة الحزم) أتى نظام الخرطوم بفاتورة أخرى ضمن ما يستجديه من ثمن لتلك المشاركة، وهي ملاحقة المعارضين السودانيين مثل الصحفي غير المحترف الوليد الحسين، وقد حسب جهاز الأمن الخارجي السوداني - ومعه بعض الدوائر التي ما زالت متعاطفة مع الإخوان المسلمين هنا وهناك - أن هذه عملية بسيطة يمكن أن تتم في صمت، تحت سحب الرهبة التي تتمتع بها الأجهزة الأمنية في الوطن العربي؛ وربما ظن البعض أن الوليد الحسين مجرد رقم عادي ضمن العمالة الوافدة التي كثيراً ما يتم (تفنيشها) و(تسفيرها) كموضوع روتيني لا يثير الغبار؛ بيد أن مثل هذا التصرف يصب في أشعة الإخوان المسلمين، وربما قد صدر عن خلية إخوانية نائمة كالأفعى تحت سطح رمال الجزيرة العربية؛ فالنظام السوداني ما زال جزءاً من تنظيم الإخوان العالمي، وما زال مرتبطاً بالنظام الإيراني الذي ما فتئت كوادره وصناعاته العسكرية (موكّرة) في قلب الخرطوم وضواحيها. ومن ناحية أخرى، كيف نثق في نظام ظل مرتين للشيعنة الإيرانيين طوال ربع القرن المنصرم؟

- وفيما يختص بميزان القوى الدولي فإن الإخوان المسلمين ظلوا يتعاملون مع المخابرات الغربية منذ بواكير نشأتهم عام 1928 في الإسماعيلية بقناة السويس، بل هم إفران لتلك المخابرات في إطار حربها ضد الشيوعية إبان الحرب الباردة. و لقد رشحت أخبار الاتفاق السري بين الإدارة الأمريكية والإخوان المصريين قبيل الانتخابات التي أعقبت انتفاضة 2011، مما ضمن لهم الدعم اللوجستي والإعلامي الغربي، مقابل استمرار اتفاقيات كامب ديفيد وعدم المساس بالوضع الراهن الخاص بالعلاقات مع إسرائيل. كما تواترت العديد من أنباء التعاون بين المخابرات المركزية الأمريكية والنظام السوداني الذي قال عنه الجنرال كولن باول (إن حكومة البشير قدمت لنا من المعلومات وأشكال التعاون ما فاق تصورنا). ولما جاء أوباما للبيت الأبيض قبل ثمانية أعوام أصدر بعض الأصوات عن حقوق الإنسان المهددة في دارفور، وإذا به يلوذ بصمت القبور إزاء هذا الملف، وإذا بالعلاقات مع النظام السوداني تسير على ما يرام، باستثناء بعض الأصوات الخجولة التي يطلقها الناطق باسم الخارجية الأمريكي بين الفينة والأخرى للاستهلاك المحلي.
- أما فيما يختص بأوروبا الغربية، فهي "حوار" يتبع أمريكا "فحل البعران"، وكل دولة منها، خاصة فرنسا وبريطانيا، لها حساباتها الاقتصادية الخاصة، ولا تريد لميزان القوى في وسط إفريقيا وغربها أن يرتج طالما أن النفط التشادي والغرب إفريقي ما زال يتدفق صوبهما، وهي لا تريد أن تتدخل في الشأن الداخلي لأي من الدول الإفريقية، وأي نظام تفرزه توازنات بلاده الداخلية فهي تعترف به وتتعاظم معه - بطول القارة وعرضها.

• أما الدول العربية الشقيقة والصديقة، فهي تتعاطف مع الشعب السوداني وتحبه وتجله وتحترمه، ولكنها كالدول الأوروبية لا تتدخل في الشؤون الداخلية للآخرين، إذ لديها ما يكفيها من الهموم:-

- فهي تواجه بؤراً ملتهبة بكافة أطراف الجزيرة العربية والهلال الخصيب، بما تلقى عليها من تبعات سياسية وأخلاقية، اقلها مسألة اللاجئين: فإن هي ضربت عنهم صفحاً هرولوا نحو أوروبا لتتلقاهم المستشارة ميركل بمقولتها: (يجب أن نفتح لهم أبوابنا على مصاريعها حتى تستطيع أجيالنا القادمة أن تقول إن اللاجئين العرب المسلمين فضلوا المجيء لنا رغم أن مكة أقرب لهم)، وإن سمحت لهم بالدخول فسيأتون بخلاياهم الصحابية والنائمة وبمطرفيهم من كل شاكلة و لون.
- وهي في مواجهة مستمرة مع إيران التي ظلت تحتل الجزر الإماراتية الثلاث منذ عام 1971، و ظلت تتدخل في العراق منذ 2003، وفي البحرين ولبنان وسوريا واليمن والسودان.
- وهي في مواجهة مع تنظيم الإخوان المسلمين الذي يتم اكتشاف خلايا جديدة له آناء الليل وأطراف النهار بالدول الخليجية، كالحيات الخارجة من بياتها الشتوي.
- وهي في مواجهة (مستترة) مع روسيا والصين اللتين تقفان مع كل من يناصبها العداء، مثل النظام السوري، واللتين تبحثان عن موطئ قدم بالشرق الأوسط.
- وهي في حالة عدم اطمئنان للارتهان الذي يفرضه اقتصادها على الدولار وعلى المؤسسات المالية الغربية كصندوق النقد العالمي والبنك الدولي والمصارف الأمريكية والأوروبية الكبرى، وهذه المؤسسات - كالمومسات - قد تتآمر عليك في أي لحظة وتخسف بالأسهم والسندات وتهبط بقيمة العملات المحلية - كما فعلت من قبل مع حلفائها النمر الآسيوية (كوريا

الجنوبية وتايوان وماليزيا واندونيسيا وتايلاند وهونج كونج) عام 1997،
وما أوشكت أن تفعله هذا العام مع الصين.

وآخر الكلم:

على كل حال، ليس أمام الشعب السوداني إلا أن يعتمد على نفسه في مواجهة
النظام الدكتاتوري الإخواني الذي يجلس على أنفاسه، فنحن كأنا في يوم القيامة،
يوم يفر المرء من أمه وأبيه وصاحبته وبنيه. وإذا أخذ الشعب أمره بيده فإن الجميع
سيهرعون للتضامن معه، وسينفض سامر المؤتمر الوطني كما حدث للاتحاد
الاشتراكي و للأحزاب الشيوعية التي حكمت شرق أوروبا لأكثر من سبعين سنة.

حقاً:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
و لا بد لليل أن ينجل
و لا بد للقيد أن ينكسر

دبيب النمل الصيني في أفريقيا

بمناسبة زيارة الرئيس السوداني عمر البشير للصين هذه الأيام فقد تذكرت أنني كنت قد نشرت بالصحف الإسفيرية ورقة بعنوان "التغلغل الصيني في إفريقيا" في 25 مارس 2013، ووجدت أنها ما زالت طازجة وقد تساهم في التعرف على حقيقة الصين "الجديدة" التي تلبست دور الاستعمار التقليدي. وقد أضفت لها طرفة عندما ضمنتها الكتاب "السودان في عام" الصادر بالعام المنصرم، فحواها:

(في مطلع خمسينات القرن العشرين، أيام الكفاح ضد الاستعمار البريطاني، سأل إعرابي

رزقي قريبه الدكتور عقيل أحمد عقيل:

الدكتور! الإنجليز دول أبوهم آدم وأمهم حوا زينا كي؟

أجابه الدكتور:

كو! دول أمهم عظميت الجنية خادم سيدنا سليمان.

فقال الإعرابي:

الكترايل! الخادم طلقت فينا الشنين.)

والشنين هو النمل الأحمر، ونحن الآن بصدد النمل الصيني الأصفر الزاحف على إفريقيا.

فإلى المقال السابق:

التغلغل الصيني في إفريقيا:

الفاضل عباس محمد علي

العلاقات الصينية الإفريقية ليست ضاربة الجذور في التاريخ الإفريقي، باستثناء بعض الملامسات: مثل طريق الحرير في سابق الأزمان الذي كان يربط بين الصين وصنعاء باليمن، ويحمل البضائع الصينية كالحرير والمنتجات الخزفية، والتي كانت تجد طريقها لبعض الممالك الإفريقية القديمة؛ ومثل الملامسات المسجلة بكتب التراث كرحلات ابن بطوطة الذي جاء من المغرب في القرن الرابع عشر الميلادي وانتهى به المقام في الصين عام 1345م سفيراً لمملكة هندية مسلمة، وهناك أقام لتسع سنوات؛ ومثل بعض البعثات التجارية البحرية الصينية التي وصلت إلى شرق إفريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي.

بيد أن العلاقات السياسية والاقتصادية ذات الأهمية بين الصين وإفريقيا بدأت بعد انتصار الثورة الشيوعية الماوتسي تونجية في بكين عام 1949، حيث شرعت الصين الجديدة في دعم حركات التحرر الإفريقية كجزء من الحرب الباردة، باعتبار الإمبريالية الغربية عدواً مشتركاً بين الصين التي تحررت لتوها وبين الدول الإفريقية التي ظلت ترزح تحت الاستعمار، أو التي نالت استقلالها مؤخراً. وبدأت الصين تبادلاً دبلوماسياً رسمياً مع مصر عبد الناصر والجزائر والسودان وغينيا والصومال والمغرب في ستينات القرن العشرين، كما دعمت حركات التحرر في روديسيا (زيمبابوي) وجنوب إفريقيا وإرتريا منذ تلك الحقبة. وكانت المساعدات الاقتصادية التي تقدم لبعض الدول الإفريقية لا تستهدف أكثر من الدعاية السياسية ورفع شأن الصين، إذ أن الصين نفسها كانت تعتبر من دول العالم الثالث؛ ومثال لمساعداتها للدول الصديقة ما قدمته للسودان عام 1973 إبان حكم النميري، وهو قاعة

الصداقة لصينية السودانية بالأسكلا فى الخرطوم: عبارة عن مجمع ثقافى به مسرح وقاعات متنوعة وسينما ومكاتب حكومية، وتشيد جسر على النيل الأزرق بومدنى، وبعض فرق طب الوخز بالإبر، كمنحة من الحكومة الصينية.

ولقد شكلت زيارة الرئيس الأمريكى رتشارد نكسون للصين فى فبراير 1972 بداية لانفتاح الأخيرة على الغرب، ولنجاحها بعد ذلك ببضع سنوات فى الحصول على مرتبة "الشريك التجارى المفضل" لدى الولايات المتحدة، مما ساهم فى تحسين الميزان التجارى الصينى، وجعل البضائع الصينية تنافس فى الأسواق الأمريكية، وفى الغرب كله بعد ذلك، وقد أدى ذلك الوضع لبناء تراكمات هائلة من الأرصدة لصالح الصين بالعملات الصعبة. ومع صعود نجم الرئيس دنغ شياو بنغ ونظريته "السياسة الجديدة" عام 1978، اتجهت الصين نحو التطور الرأسمالى الجزئى والمعاملات التجارية الدولية وفق مفهوم رأسمالى، مع الإبقاء على الحزب الشيوعى الحاكم، فى مزوجة بين النظامين - توجيه الدولة وسيطرتها على الاقتصاد، ونموذج اقتصاديات السوق - كتجربة فريدة فى العالم؛ وصارت الصين تتحرك فى إفريقيا ليس بالدافع الإيديولوجى، ولكن وفق العامل الجيو اقتصادى. ولقد أتت السياسات الجديدة أكلها بسرعة خيالية، إذ تضاعف النمو الاقتصادى، وارتفع الناتج القومى الإجمالى، وازدهرت الصناعات الصينية الهادفة للتصدير، خاصة حول شنغهاي بالمنطقة الشرقية، فى مجال صناعات التجميع والملبوسات والمنتجات الاستهلاكية الصغيرة، (مع انتهاكات واسعة النطاق لحقوق الملكية الفكرية وبراءات الاختراع الخاصة بالدول الصناعية المتقدمة)، وانعكس كل ذلك على العلاقات الاقتصادية والتجارية مع القارة الإفريقية.

وحسبما جاء فى العديد من المصادر (مثل "الصين فى إفريقيا" للكاتب كريس ألدن، ص 26-27)، فلقد كان حجم التبادل التجارى بين الصين وإفريقيا بليون دولار عام 1980، ولكنه بلغ 6.5 مليار دولار عام 1999، وارتفع إلى 10 مليار فى العام التالى، 2000. ومنذ عام 1990 تضاعفت التجارة بين الصين وهذه الدول بنسبة

700%، ومع حلول 2006 وصلت 55 مليار دولار، وفي عام 2012 تناهت إلى 163 مليار دولار. وكانت الصين في بادئ الأمر تنافس الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا من حيث الحجم الكلي للتجارة السنوية مع الدول الإفريقية، ولكنها منذ العام 2008 أصبحت أكبر شريك تجاري لإفريقيا. وبنهاية العام المنصرم كان هنالك 900 شركة صينية عاملة بإفريقيا، و750 ألف فني وعامل ورجل أعمال صيني بهذه القارة.

ولقد تطورت العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية بين الصين والدول الإفريقية وفق نظرية "الاشتراكية بخصائص صينية"، وتميز النشاط الاقتصادي الصيني في إفريقيا بأنه يتم علي أيدي شركات حكومية وشبه حكومية، مما حقق لها حماية قوية في وجه الشركات الهندية وغير الهندية المنافسة، وبأنه يقوم علي أساس عدم التدخل في شؤون الآخرين، والتركيز فقط علي المسائل الاقتصادية والتجارية. وتطورت هذه العلاقات أكثر بعد منتدى (فوكا) Forum on Chinese African Cooperation) الذي انعقد ببكين عام 2000 والذي أمه وزراء الخارجية الأفارقة، والذي تلتته العديد من الاجتماعات التنسيقية، آخرها القمة التي انعقدت ببكين في 27 يوليو 2012 وحضرها ستة رؤساء وعشرات الوزراء من خمسين دولة إفريقية. ولقد حققت الصين فتحاً جديداً بهذه الخطوات الدبلوماسية، علماً بأنها أصبحت في حاجة ماسة للنفط والمواد الخام الإفريقية بعد أن انتعشت أسواقها المحلية وتفتحت شهية آلاف الملايين من سكانها للاستهلاك. ولقد تضاعف دخل الفرد الصيني عام 2005 تسع مرات، وهبط معدل الفقر بنسبة 50%، وما عاد المورد النفطي المحلي كافياً، وأصبحت الصين منذ 1993 مستورداً للنفط الذي يأتي ربعه من أنغولا بالجزء الجنوبي من إفريقيا، بالإضافة لما يأتي من السودان وتشاد والجزائر ونيجيريا.

وظلت الصين منذ 1996 تستورد كميات هائلة من الأخشاب من ليبيريا والكاميرون وموزمبيق والكنغو، وتستورد خام الحديد من زامبيا والغالون، والقطن من مالي

وبوركينا فاسو، والمعادن النفيسة من غانا وبتسوانا وجنوب إفريقيا ونيجيريا، والكافو من ساحل العاج، والبن من كينيا، والأسماك من ناميبيا. ولقد بلغت الصادرات الصينية لإفريقيا 93 مليار دولار بالعام المنصرم.

هذا، ولقد تقدمت الصين بقروض ميسرة للعديد من الدول الإفريقية بلغت 5 مليار دولار عام 2012، مع صفقات تجارية قيمتها 1.9 مليار دولار فى نفس العام، مما جعلها منافساً خطيراً للمؤسسات المالية الغربية كالبنك الدولي وصندوق النقد العالمي. وتقدم الصين قروضاً مغرية تختلف كماً ونوعاً عن قروض تلك المؤسسات الغربية، وغير مصحوبة بشروط حول حقوق الإنسان أو خلافه، ولا يتجاوز الربح عليها 1.5% بفترة سداد بين 15 و20 سنة؛ ولقد تنازلت مؤخراً عن العديد من ديونها لدى بعض الدول المعسرة. كما تقوم الحكومة الصينية ببناء العديد من المؤسسات الصحية والتعليمية فى الدول التى لديها استثمارات بها: ففي الكونغو مثلاً تم الفراغ من تشييد 31 مستشفى و145 مركز صحي مع حلول عام 2010، كما أنشأت الصين العديد من المراكز الثقافية بكافة أنحاء القارة، مثل موريشس ومصر وبنين عام 1988؛ وأنشأت 20 مركزاً ثقافياً يحمل اسم "كونغوشيو" فى 13 دولة إفريقية؛ وفى الفترة 2005/1960 أرسلت الصين 15 ألف طبيباً لكافة أنحاء القارة وقدمت العلاج لـ 170 مليون مريض إفريقي.

ولكن، هناك من يقول بأن الصين تمارس دوراً لا يختلف كثيراً عن الاستعمار التقليدي، بقفزات ناعمة. فهي تركز على تصدير الأسلحة لمعظم الدول الإفريقية التى تتعامل معها، (ولقد جاء فى صحيفة "الإتحاد" الإماراتية عدد 19 مارس 2013 الآتي:

"ذكر معهد بحثي يتخذ من السويد مقراً له أمس أن الصين أصبحت خامس أكبر دولة مصدرة للسلاح فى العالم"، وبالطبع تحظى العديد من الدول الإفريقية بأكثر نسبة من ذلك السلاح. وتمتاز الأسلحة الصينية بكونها رخيصة من حيث الثمن، ولكن رغم ذلك فهي تشكل تكلفة باهظة بالنسبة لاقتصاديات الدول الإفريقية

الناشئة، كما تساهم فى عدم الاستقرار وفي تدعيم وتثبيت أنظمة قمعية لا تهتم كثيراً بالتنمية الاقتصادية بقدر ما تركز على البقاء فى السلطة. ويضرب المراقبون مثلاً بكل من زمبابوي والسودان، إذ لم تكثر الحكومة الصينية لممارسات هاتين الدولتين فى مجال حقوق الإنسان، وظلت تدعمهما اقتصادياً وتطور مواردهما النفطية باتجاه التصدير الذى يصب فى مصلحة الصين بالدرجة الأولى. وبالنسبة للسودان، فإن الصين تستحوذ على 40% من موارده النفطية، وتقوم بتنفيذ العديد من المنشآت (مثل مبني الحزب الحاكم والقصر الجمهوري الجديد الذى شرعت فى تشييده بالخرطوم، بينما الأولويات الملحة تشير لمجالات أخرى كانت أولى بالدعم، كالخدمات الصحية والتعليم وصحة البيئة)؛ كما لم تهتم الصين بما يجري فى دارفور من انتهاكات ووضع إنساني متدني، وما انفكت الحكومة الصينية تدعم النظام السوداني فى مجلس الأمن وتستخدم حق الفيتو ضد أي إجراءات عقابية تستهدف ذلك النظام، مثلما تفعل هذه الأيام مع النظام السوري.

ويشير المراقبون إلى الجانب السلبي الآخر للتدخل الصيني فى إفريقيا: فهي تنفذ المشاريع التى ترسو عليها مناقضاتها بالاعتماد على العمل اليدوي بالدرجة الأولى **Labour-Intensive** ولا تستفيد من العمالة المحلية، بل تجلب الآلاف من العمال الصينيين، وهناك اتهام بأن الكثيرين منهم مسرحون من السجون، وذلك ما دفع الشباب الإفريقي للهجرة نحو الغرب بطرق غير رسمية. كما تقوم شركات التجزئة الصينية بإغراق الأسواق الإفريقية بالمنتجات الصينية الرخيصة التى لا تستطيع الصناعات المحلية أن تنافسها، مما دفعها للموت البطيء وهي ما زالت فى المهد. ولا تستفيد الصناعات المحلية من أي نقل للتكنولوجيا من الصين، وذلك لصعوبة التواصل اللغوي مع الفنيين الصينيين، ولأن الصين لا تضع ضمن أجندتها أصلاً نقل التكنولوجيا للدول الإفريقية، وليس فى النموذج الإداري والصناعي الصيني ما يغري بالنقل، إذ أن الشركات الصينية العاملة فى الدول الإفريقية تدار بالهرم الإداري العسكري العمودي الصارم، تحت مظلة الحزب الذي يبعث بعيونه ومراقبيه المقيمين حيثما أقامت تلك الشركات، وهي إدارة مبنية على بيروقراطية

وأوتوقراطية الأنظمة الشمولية الشيوعية التي انهارت فى أوروبا الشرقية بسبب ترهلها وتكلسها وعدم مقدرتها على منافسة النموذج الرأسمالي الغربي؛ ولننجح النموذج الصيني على المدى القريب، فإن مصيره مجهول على المدى البعيد، سواء داخل الصين أو خارجها.

وثالثة الأثافي، أن الصين لا تهتم كثيراً بالآثار البيئية للعديد من المشاريع التي تقوم بتنفيذها فى إفريقيا، مثل الغابات التي تقوم بتجريفها فى العديد من الدول للحصول على الأخشاب دون زراعة البدائل، مما سيعرض تلك البلدان لتصحرو وتحول إيكولوجي ونقص مريع فى نسبة الأمطار؛ كما إن الاستثمارات الأخرى، خاصة فى مجال استخراج النفط، لا تخضع للمراقبة والشفافية، إذ أن معظمها فى دول الأنظمة العسكرية، مثل أنغولا والسودان ويوغندا وتشاد، التي ليست بها صحافة حرة أو منظمات نفع عام تراقب الممارسات المدمرة التي تتم فى مجال البيئة. لذلك، فإن العديد من المراقبين يتشككون فى جدوى الدور الذى تلعبه الصين فى إفريقيا على المدى البعيد، ويرون أن تركيزها على المواد الخام الإفريقية قد يقود فى النهاية للقضاء على تلك الموارد قبل أن تتمكن الدول الإفريقية من بناء المقدره على تصنيعها والاستفادة من مستخرجاتها فى التجارة العالمية كما تفعل الصين نفسها. وبينما لا ينكر أحد الدور الذى لعبته الصين فى إنعاش اقتصاديات العديد من دول إفريقيا، مثل أنغولا والسودان وتشاد، فإن تلك الدول ما زالت تعاني من عدم الاستقرار ومن المشاكل الاقتصادية المزمنة والاستقطاب والاحتقان السياسي. وفى هذه الأثناء، ورغم التحفظات المذكورة حول الوجود الصيني بإفريقيا، ما برحت هذه الدولة العملاقة تتطور كقوة اقتصادية عالمية ذات شوكة، وسيستمر التعامل والتعاون معها على نطاق القارة الإفريقية وعلى نطاق العالم كله فى المستقبل المنظور.

المراجع:

- 1- الصين فى إفريقيا: شريك أم منافس؟ الكاتب: كريس ألدن ترجمة: عثمان المثلوثي - الناشر: كلمة (2009)
- 2- صحيفة "الاتحاد" 19 مارس 2013
- 3- The Rise of China and India in Africa – Edited by: Fantu Cheru and Cyril Obi – Pub: (2010) Zed Books.
- 4- Wikipedia: Africa-China relations.

الورم الفاشستي الداعشي

لقد تشرنقت الحركة النازية في ألمانيا والفاشية بإيطاليا وإسبانيا في عشرينات وبداية ثلاثينات القرن العشرين كإفراز للظروف التالية:

1. كان النظام الرأسمالي العالمي تحت زعامة أوروبا وأمريكا يمر بأسوأ أزمة في تاريخه، بلغت ذروتها في العام 1929 المسمى ب(سنة الكساد العالمي)، حيث عاش معظم أفراد الشعب الأمريكي على الإغاثة، ووقفوا أمام الكنائس في طوابير لا نهائية من أجل كوب الحساء، بمن فيهم مستر جون دي روكفلر نفسه.
2. إهتزت ثقة الشعوب في أنظمتها السياسية والاقتصادية، وأصبح العامة والنخبة على حد سواء نهياً للإيديولوجيات والفلسفات البديلة للديمقراطية الليبرالية - كالفوضوية والراديكالية؛ وتلك هي السنوات التي برز فيها الإتحاد السوفيتي ببلاشفته للوجود؛ ورغم أن الشيوعية لم تقدم بديلاً جيداً للرأسمالية الغربية من حيث الاستقرار والرخاء الاقتصادي، إلا أنها ضربت مثلاً ما كنموذج لهيمنة الدولة على الاقتصاد وسيادة القطاع العام، وتقديم الحد الأدنى من ضرورات العيش للطبقات الكادحة، من طعام ومسكن وعلاج وضمان اجتماعي، ولو على مستوى الكفاف.
3. ومن هنا راجت فكرة الاشتراكية؛ وحتى النازيون والفاشيون كانوا قد جاءوا في أول أمرهم متسرلين بالشعارات الاشتراكية، وقد أغوتهم فكرة الاقتصاد الموجّه، مصحوبة بشحنات مكثفة من الشوفينية (العنصرية) والانكفاء على الذات وإزكاء نيران التعصب القومي والانتصار للوطن ظالماً ومظلوماً، وعدم

التعايش مع الآخر أياً كان، بل تصفية هذا الآخر كما حدث لليهود والحلب "القجر/النور".

4. وكانت أوروبا تتمرغ في إسقاطات الحرب الكونية الأولى (1914-1918) وما تمخضت عنه من إفتتات ومرارات وأحقاد وأطماع توسعية مجهضة، كما أن الدول المنتصرة في تلك الحرب لم تقم بعملية توزيع للمستعمرات بينها بالقسطاس، وبالطبع أخرجت الدول المهزومة من المعادلة كليةً - ألمانيا وإيطاليا والإمبراطورية العثمانية التي صودرت مستعمراتها ووزعت كغنائم بين دول المحور المنتصر - فباتت الدول المقهورة تبحث عن وسيلة لإعادة رسم خرائط العالم، لا سيما المستعمرات.

ولقد تلاعب النازيون والفاشيون بمشاعر جماهيرهم إزاء القضايا سالفة الذكر، وقفزوا للسلطة ممّن شعوبهم ببرامج اقتصادية واجتماعية طموحة للغاية؛ ولكن ما أن تمكن أدولف هتلر من ناصية الرايخ الثالث بألمانيا، وما أن أصبح الدوتشي موسليني دكتاتوراً بلا منازع في إيطاليا، حتى استحالت دعواتهم للاشتراكية والعدالة الاجتماعية إلى ملك عضود؛ ثم أصاب النظامين جنون العظمة وغرور القوة **arrogance of power**؛ ولقد انضمت لهما الإمبراطورية اليابانية الفاشية التوسعية، وانخرط ثلاثتهم في منظومة دول المحور **Axis** التي شنت حرباً شاملة ضد الحلفاء (بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وروسيا وتوابعهم) - انتهت بهزيمة المحور بتكلفة عالية من الدمار والدماء اصطلى بها الطرفان.

وعلى نفس المنوال، تحاول المنظمات الإسلامية المتطرفة بالشرق الأوسط أن تستثمر الظروف الاقتصادية الصعبة التي تمر بها معظم الدول العربية (باستثناء النفطية منها)، وما تعانيه شعوبها من تخلف اقتصادي واجتماعي ومسغبة وحاجة وبطالة، تحت ظلال الانفجار السكاني والخلل الديموغرافي وتهتك البنية التحتية وتوقف الصناعات المحلية وكساد التجارة والسياحة، وتسعى للتلاعب بعواطف الجماهير، خاصة الشباب المائق ضئيل التجربة السياسية، وتوعدهم إما بالجنة إذا

استشهدوا، أو بدولة الخلافة الراشدة الجديدة إذا نجح مسعاهم - تلك الدولة (الافتراضية) القائمة على الفضيلة والعدل والإحسان والرحمة والرخاء، على نسق النموذج الذي تركه العمران - عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز عليهما رضوان الله؛ وهي بالطبع دعوة حق أريد بها باطل، فقد أثبتت التجارب أن هؤلاء الإسلامويين الجدد مجرد لصوص عطشى للسلطة والثراء الحرام، يتاجرون بالدين من أجل الدنيا، رغم أن هذه الحقيقة ما انفكت غائبة عن كثير من شباب الأمة العربية والإسلامية.

فلقد نجحت داعش مثلاً في استقطاب عشرات الآلاف من شباب المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، بما في ذلك الدول الغربية حيث اكتشف هذا التنظيم الشيطاني منجماً من الصبية المساكين أبناء الطلاب والمهنيين المسلمين الذين هاجروا أو جاءت بهم الدراسة فوق الجامعية لأوروبا وأمريكا، ومن ثم استغرقهم التحصيل والركض وراء المؤهلات الأكاديمية ولقمة العيش، وتركوا أبناءهم نهياً للناشطين والدعاة الإسلامويين - ومن بينهم كوادر داعش السرية - بالمساجد وغيرها من أماكن تجمعات المسلمين.

ولقد ظهرت داعش في ظروف مشابهة لتلك التي نشأت في كنفها النازية والفاشية، وأهمها الشيخوخة والتكلس والإفلاس الذي ران على الأنظمة والإيديولوجيات السائدة:-

- فلقد تهاوى نموذج القومية العربية وما صاحبها من زخم الإيديولوجيات المتأثرة بالشيوعية (وبالفاشية) - كالأشتركية العربية الناصرية والبعثية والقذافية والمايوية النميرية بالسودان والتجربة اليمنية الجنوبية الراديكالية.
- وحاول الإخوان المسلمون أن يسدوا الفراغ الذي تركته القومية العربية المتراجعة، ولكنهم لم يقدموا نموذجاً واضح المعالم ومقتنعاً للجماهير، بل قدموا تجارب مثقوبة ومشوشة كما حدث في مصر والسودان؛ وعلى إثر

ذلك تدثرت الحركة الإسلامية بالشعارات الجهادية الهلامية، وتوقفت عن الصدع بكنه وماهية البرامج الاقتصادية والاجتماعية التي تنطوي عليها، وآثرت قعقعة السلاح ودوي الانفجارات كما فعل النازيون والفاشيون عندما سطوا على السلطة في ألمانيا وإيطاليا، عملاً بقول الشاعر العباسي أبي تمام:

السيف أصدق إنباءً من الكتب في حدّه الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

- ولقد برز الدواعش على إثر انهيار المعسكر السوفيتي وتصدع التجربة الشيوعية، وبدا لهم كأن العالم بحاجة لنظرية ثالثة بعد فشل كل من الاشتراكية بشرق أوروبا، والرأسمالية بغربها وفي الولايات المتحدة - إذ أن أزمات النظام الاقتصادي الغربي ما فتئت تتكرر في فترات متلاحقة، (كل أربعين سنة تقريباً)، مخلفة وراءها ملايين العاطلين عن العمل والمزيد من التهميش للسود الأعظم من السكان والمزيد من اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، مع خواء روحي وجذب ثقافي وانحطاط أخلاقي تجسده ظاهرة زواج المثليين الرائجة في أمريكا بالتحديد وفي معظم الدول الأوروبية، كأن العالم قد حل مشاكله برمتها وتفرغ لمتع الفرج والدبر.

- ويبدو أن الإسلاميين المتطرفين - خاصة الدواعش - يحسبون أنهم سيتقدمون للبشرية بنموذج بديل للاشتراكية والرأسمالية ضربة لاذب؛ بيد أنهم لم يبلوروا أطروحة متماسكة للمشروع الاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي الذي يجسده؛ وفي حقيقة الأمر فإن ممارساتهم على أرض الواقع، حيثما تولوا أمر الناس في سوريا وغرب العراق وسرت بليبيا وفي

سيناء، عبارة عن هجمة قمعية وحشية لا تختلف عن ليل النازية والفاشية الأسود، بل زادت عليهما وبزّتهما في صنوف البطش بالخصوم، كالحرق بالنار وجز الرؤوس عشوائياً وتحطيم الآثار التاريخية للشعوب التي تركتها ولم تمسها الدولة الإسلامية منذ عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام في القرن السابع الميلادي، مروراً بالدولتين الأموية والعباسية والإمبراطورية العثمانية، حتى اليوم.

• ومثلما فعل النازيون الألمان، فإن داعش تتمرحل عبر التحالفات التكتيكية المؤقتة مع الخصم - تقيّة - حتى "تتمكن" وتؤسس دولتها المشروعة المعترف بها، ثم تتنمر وتستأسد بعد ذلك وتعلن الجهاد الكوني ضد دار الكفر، أي العالم بأسره - (خاصة إذا تماهت مع الجمهورية الإسلامية الفارسية وأنبتت أنياباً نووية). فلقد بدأ هتلر باكتساب بريطانيا لصفه، وتوصل مع رئيس وزرائها نيفيل شامبرلين لاتفاقية ميونيخ 1938، وبموجبها غضت بريطانيا الطرف عن اقتحام الجيش الألماني لتشيكوسلوفاكيا في نفس ذلك العام، لتسوية بعض الظلم الذي حاق بالأولى جراء اتفاقية فرساي 1919 التي ضمت إقليم بلزن الألماني لتشيكوسلوفاكيا. وهناك اليوم إشارات عديدة (كتلك التي وردت في مذكرات هيلاري كلنتون) إلى أن الغرب لا يمانع في، بل يشجع، قيام دولة خلافة يديرها المتطرفون الإسلاميون، علها ترضي غرورهم وتكفّف شرورهم وتحصرهم في بقعة محددة (كالخُراج) يمكن مسحها من الوجود بقتيلة واحدة إذا دعا الداعي.

• ولقد نشأت دولة المتطرفين بالفعل في لب الصحراء الشمالية الغربية للعراق، (بديلة لسيناء التي كانت هيلاري كلنتون قد أشارت لها في مذكراتها)، مزودة بكمية لا بأس بها من آبار النفط ومصافيه. ولقد ظلت قوات التحالف بقيادة الجيش الأمريكي تقصف هذه البقعة منذ عام كامل دون طائل؛ وإذا ما أصاب هذا التحالف أي قدر من الملل أو

الخدلان والاستكانة والتشبع، فإنه قد يرفع يده ويعطي الضوء الأخضر لداعش كما فعل شامبرلين في ميونيخ. (وبالمناسبة، لم تبد إسرائيل انزعاجاً يذكر حتى الآن من هذا الكيان الداعشي، مما يثير العديد من علامات الاستفهام).

- وليس هنالك أدنى شك في أن الدولة الداعشية ستجد من يعترف بها إذا خرجت للوجود، وسيكون أول المعترفين تركيا وإيران والولايات المتحدة وربما الصين وروسيا - إذا تمت صفقة دولية شملت تسوية الحالة السورية وتقسيم العراق إلى مواطن للشيعية والسنة والأكراد - ومن هذا الركام تستولد الدولة الداعشية الفاشية بغرب العراق وشرق سوريا؛ وقد تعترف بها كذلك هذه أو تلك من الدول العربية المرهونة لتنظيم الإخوان الدولي، أو تلك التي يمكن شراؤها بحفنة دولارات.

آخر الكلم:

- وبما أن هذا الكيان الداعشي السرطاني خطر على الأمة العربية والإسلامية وكذلك الأمن والسلام العالمي، فلا بد من حزمة إجراءات ضرورية لاستئصاله ووأده في مهده بصورة أكثر جدية وبرؤية أكثر وضوحاً.
- ومن المؤكد أن القصف الجوي وحده لا ولن يكفي، ولا مفر من أقدام على الأرض **BOOTS ON THE GROUND**، أي قوات ك"الصاعقة" ذات شوكة وشراسة على غرار المارينز الأمريكية، بإشراف جامعة الدول العربية، بموجب اتفاقية الدفاع المشترك الموقعة في 13 أبريل 1950، وقرار مجلس القمة العربي لعام 2007 القاضي "بتفعيل الأنشطة العسكرية وتأسيس قوات طوارئ لحماية المناطق الملتهبة التي انفرط فيها الأمن مثل العراق ودارفور وجنوب لبنان والصومال". وهنالك

سوابق للعمل العسكري العربي المشترك، خاصة ما حدث في حرب 1948 ضد عصابات الهجانة اليهودية التي اشتركت فيها القوات اللبنانية والأردنية والسورية والمصرية والعراقية والسعودية، بالإضافة لآلاف المتطوعين من أرجاء العالم العربي كافة، (بما في ذلك السودان - راجع مذكرات خضر حمد)، وما يحدث الآن في اليمن (عاصفة الحزم).

- لابد أن تستصحب العمليات العسكرية حملات إعلامية وتثقيفية وتعبوية ضخمة وشاملة في جميع أركان الوطن العربي، رامية لفضح الفكر الأصولي المتطرف وتفنيده من جذوره حتى ثماره السامة الراهنة، وداعية للتمسك بالإسلام الوسطي المعتدل، دين الرحمة والإنسانية والسلام والعدالة واحترام الجار وأهل الذمة؛ وسوف تستلزم هذه الحملات زيارة لمقررات التربية الإسلامية والتربية الوطنية بكل المراحل الدراسية في جميع الدول العربية بغرض غريلتها من المواد المشكوك في أمرها، خاصة أدبيات سيد قطب ومحمد قطب وحسن البنا والمودودي وكافة مؤسسي حركة الإخوان المسلمين، بالإضافة للفقهاء والأئمة المتشددين - خاصة محمد بن عبد الوهاب وابن تيمية، مع التركيز على الاستنباط الإبداعي والتوجهات الداعية للتعايش مع غير المسلمين في الوطن الواحد، ولنبد العنف وترسيخ نوااميس الشورى وحرية الرأي وحقوق الإنسان واحترام المرأة.

- وحيث أن العمل الفكري المفتوح على هذا النحو يتطلب أجواءً مفعمة بالحرية وعدم الخوف من الرقيب والأجهزة الأمنية، فلا بد من تشريعات جريئة تتبناها كل الدول المشاركة في هذه الحملات، تضمن حرية الإعلام وتمهد لازدهار الحركة النقابية الديمقراطية وتبعث الحياة والثقة بالنفس لدى فعاليات المجتمع المدني؛ وسيتم التطور عبر هذه المؤسسات نحو النقابات والمنظمات الجماهيرية الراسخة والأحزاب

والبنى التشريعية الصحيحة والصحية - وليس الدمى وال rubber stamps التى تضعها الدولة تحت إبطها، مثلما يحدث في الأنظمة الشمولية والفاشية.

- وسوف تتدرج الحركة الجماهيرية من جمعيات حماية المستهلك ومجموعات الضغط، حتى تبلغ شأو النقابات المهنية والعمالية والفلاحية التي يتم تدريب الكوادر الوطنية في معامعها ونضالاتها على التنظيم والانضباط المؤسسي وأساليب الكفاح السلمي وأدب المفاوضات negotiations والأخذ والرد والإقدام والتراجع التكتيكي (خطوة إلى الخلف وخطوتان إلى الأمام) وال bargaining والعفو عند المقدرة والموضوعية والوطنية والتجرد؛ ومن هذا الزخم تتبلور الأحزاب السياسية المستقبلية التي لا مفر منها بالنسبة للنظام الديمقراطي.
- إن الحملة ضد الاتجاهات الإرهابية المتطرفة بالوطن العربي يمكن أن تصطاد عصفورين بحجر واحد:

1. فهي سوف تقضي على داعش فكراً وممارسة.
2. وسوف تساهم في وضع اللبنة الأولى للمجتمع الديمقراطي، مجتمع الكفاية والعدالة الاجتماعية والتقدم الاقتصادي والطمأنينة والسلام - المجتمع التعددي الحر والتماسك فى نفس الوقت - الذي تتطلع إليه جميع الشعوب العربية والإسلامية. أليس كذلك؟

إيران والمالكي ونعوم شومسكي

لما ضاق الخناق على نوري المالكي رئيس وزراء العراق السابق بسبب التحقيق الخاص بتسليم الجيش العراقي مدينة الموصل ومن بعدها تكريت لمليشيات داعش، والفرار عبر البوابة الشرقية تاركين أمتعتهم وأحذيتهم، هرول نوري الهمام نحو إيران ولحقت به أسرته، ليستقبله الملاي ورفسنجاني والرئيس الحالي روحاني بالأحضان والبساط الأحمر، تماماً مثل البريطاني كيم فيليبي Kim Philby الذي كان عميلاً للمكي جي بي السوفيتية لأكثر من ثلاثين عاماً بينما كان في نفس الوقت ضابطاً جهبذاً ومتنفذاً بالمخابرات البريطانية MI5 منذ تخرجه في أكسفورد حتى هروبه من محطته ببيروت متجهاً إلى روسيا عبر سوريا عام 1966، حيث استقر إلى أن وافته المنية في 11 مايو 1988، قبيل انهيار الاتحاد السوفيتي.

وما إن تكتشف أمر المالكي وانفضحت علاقته بالنظام الإيراني بلا لبس أو موارد أو تقية، حتى عاد المراقبون بالذاكرة لجميع السيناريوهات التي شهدتها العراق فيما قبل وطوال سنواته في رئاسة الوزارة العراقية، علهم يتبينون معالم المخطط الإيراني الذي كانت تشوبه الضبابية والتقية والتمويهات و"التكتكة"، وإذا به الآن كالشمس في كبد السماء سطوعاً وجلاءً: -

- استذكر المراقبون المسلسل المأساوي للاغتيالات التي طالت آلاف الأطباء وحاملي الدكتوراة والمهنيين والفنيين والضباط السنة، وللانفلات الأمني والآليات المفخخة كل يوم في جميع أنحاء بغداد وتخومها وكتل التجمعات السكنية للعرب السنيين، وللتفجيرات الانتحارية التي تأكد لاحقاً أنها كانت عبارة عن تدريبات أولية لمليشيا داعش، ثم تطورت عبرها وتبلورت في

شكلها الحالي الذي تجسد في كل من شمال غرب العراق وجزء من سوريا. ولقد كان ذلك الرعب ما قبل الداعشي هادفاً لزلزلة ديموغرافية، مستهدفاً المجموعات السنية ترويعاً وترهيباً دفع بها للهجرة جنوباً وغرباً، مما أوجد فراغاً نهضت إليه وعبأته الأغلبية الشيعية (التي كانت تعادل 56% من الشعب العراقي عند انهيار نظام صدام حسين عام 2003م).

▪ و عاد المراقبون لداعش منذ بداياتها ليستقروا العنف المنفلت الذي استهدف العراقيين السنة ببغداد و كافة مدن الجنوب العراقي، وليتساعلوا مرة أخرى: من هو المستفيد الحقيقي من النشاط التخريبي لداعش، ومن هو الممول ذو المعين الذي لا ينضب الذي ظل يقف خلف داعش إلى أن ظهرت في ثوبها الأخير بشمال غرب العراق وتلافيف التنور السوري؟

لقد كان للمالكي دور أساسي في انسحاب الجيش العراقي من الموصل وفي سقوط تلك الحاضرة النفطية الهامة في أيدي الدواعش، فهل كان المالكي يتصرف بمعزل عن كفلائه الإيرانيين الذين يرجع لهم في الصغيرة والكبيرة؟ وهل كان الإيرانيون جاهلين بما تفعل الدواعش منذ أن كانوا عبارة عن مجموعات إرهابية مبثوثة في أرجاء العراق كافة - قبل أن تتركز في مناطقها الحالية؟ ومن أين جاءت داعش؟ من كان وما زال يمولها بالمال والشباب الطائش مغسول الدماغ المؤدلج الذي لا يعرف الفرق بين كوعه وبوعه، ويحسب أنه يجاهد في سبيل الحق عز وجل، مثل أبناء المعتريين السذج؟

ولقد وضح اليوم أن داعش كانت تتحرك بمباركة وتشجيع من المالكي وجماعته، وهؤلاء ما فتئوا مرهونين حتى اليوم للنظام الإيراني - إذن فالجمهورية الإسلامية الفارسية هي القاسم المشترك الأعظم بين المالكي وداعش؛ ولا يقتل من هذه الحقيقة أو يربكها مسرحيات العلاقات العامة والبروبوقاندا بين الفينة والأخرى التي تحاول أن تظهر إيران كأنها في الجانب المناوئ لداعش، والأصوات الخجولة التي

تتلمظ بها شاجبة ما يحدث في حق السنة العراقيين، كمن يقتل القتل ويمشي خلف نعشه.

ولكن، وبقدر ما ندقق النظر في حقيقة الدواعش، بقدر ما نلقى أنفسنا غائسين في رمال المنطقة المتحركة، ونجد أنا قد لامسنا تقاطعات أخرى متشابكة تتسلل منها الكوادر الداعشية التي تهدد أمن الشرق الأوسط واستقراره واستقلال دوله الوطنية:

- أول هذه التقاطعات هي الأقليات الشيعية المنتشرة في أحشاء الوطن العربي: العلويون بغرب سوريا، وقوم نصر الله بلبنان، والحوثيون والشيعية الأباضية باليمن وجنوب الجزيرة العربية، والأقليات الشيعية النشطة وغير النشطة في البحرين وشرق السعودية وعمان والكويت وباقي شواطئ الخليج الغربية. وعلى الرغم من أن هذه الأقليات قد آثرت - حتى الآن - أن تتعايش وتستكين وتنخرط في الدول الخليجية العربية الآمنة المستقرة والمزدهرة اقتصادياً، إلا أنها تترك بعض علامات الاستفهام: ليس بينها ثمة خلايا نائمة أو "حصين طروادة" التي ستظهر عند الضرورة، أي عندما تدلهم الخطوب وتبعث فيها الدولة الشيعية الأم - إيران - حياة بعد الموات الشتوي، إذا تفجرت أي مواجهة عسكرية هنا أو هناك في البقع الملتهبة، في العراق أو البحرين أو اليمن مثلاً؟

- و ثاني هذه التقاطعات هو (تنظيم الإخوان المسلمين الدولي)؛ و من الواضح كذلك أن إيران جزء من هذا التنظيم، أو على الأقل حليفة استراتيجية له، كما ظهر من دعمها لنظام البشير السوداني، ومن تقاربها مع نظام محمد مرسي في فترته القصيرة التي أخذ فيها بأعنة السلطة في مصر. وتنظيم الإخوان يسعى كذلك لزعة الأمن والاستقرار الذي تنعم به الدول العربية النفطية حالياً، إلى أن تسود حالة من (الفوضى الخلاقة) التي تنهض من ركامها دولة الخلافة كما تصورها حسن البنا وسيد قطب وأبو الأعلى المودودي، والتي تحاول داعش أن تضع لبناتها الأولى على رقعة محددة في لب الشرق الأوسط، متأسية بإسرائيل.

- وثالث هذه التقاطعات هو الاستراتيجية الأمريكية/ الصهيونية، وما تخطط له من سايس - بيكو جديدة يتم بموجبها إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط بما يضمن

استمرارية المصالح الأمريكية وسلامة وبقاء إسرائيل. لقد كتب البروفيسور نعوم شومسكي مقالاً بفصلية:

مدل إيست انترناشونال Middle East International بتاريخ 16 يوليو 1982 بعنوان Reflections on Israel in Lebanon ، أيام الغزو الإسرائيلي لبيروت و طرد ياسر عرفات وقوات فتح منها، شرح فيه المخطط الأمريكي الصهيوني الداعي لتفتيت الدول العربية عبر الفتن والحروب الداخلية؛ و تجليات المخطط كالاتي:

1. سيتم تقسيم العراق إلى ثلاث دول، واحدة بالشمال للأكراد، وأخرى في الوسط للسنة، وثالثة في الجنوب للشيعة.
2. وسيتم تقسيم سوريا بين العلويين بالجبال الساحلية وعاصمتهم اللاذقية، والسنة بالنواحي الشرقية.
3. وسيتم تقسيم السودان بين الشمال و الجنوب..... الخ.

ولقد استدل شومسكي بمقررات ومضابط أمهات التنظيمات اليهودية الأمريكية، وبما طُفح للعلن من وثائق المخابرات المركزية الأمريكية. وما يدعو الآن للتسليم بصحة التنبؤات الشومسكية ما حدث في السودان - (انفصال الجنوب عام 2011)، و ما يحدث الآن في سوريا و العراق.

والمدهش أن شومسكي قال في تلك الأطروحة إن الدولة الكبرى التي تأمل الولايات المتحدة في استنباتها من تلك (الفوضى الخلاقة) هي دولة أعجمية تتألف من إيران وتركيا وإسرائيل، حليفاً استراتيجياً مضموناً ضد الكتلة العربية الإسلامية السنية غير مضمونة العواقب، (وهي في الحقيقة الوريث الشرعي للحلف المركزي- حلف بغداد - الذي كان يضم إيران والعراق وتركيا وباكستان، والولايات المتحدة كواسطة عقده، الذي تم إنشاؤه كترىاق لحركة القومية العربية الناصرية، فيما قبل نكسة حزيران 1967).

هذا ما جاء به البروفيسور شومسكي في ذلك المقال الخطير، وهذا ما يشير إليه تداعي الأحداث في الآونة الأخيرة بالشرق الأوسط. فهل ثمة وعي ووحدة فكرية وإرادة سياسية تحل بشعوب وحكومات الدول العربية السنية المستهدفة؟ وهل ثمة حياة جديدة في فكر وتنظيم واستراتيجيات جامعة الدول العربية؟

ألا هل بلغت، اللهم فاشهد.

والسلام.

oboiikan.com

دليل الكتاب

- 11 • فلسفة الفساد المالي والإداري
- 18 • تابان: شاعر فحل من جنوب السودان
- 24 • نظرة عجلي للوضع السوداني الراهن
- 29 • السودان في مهب الرياح
- 36 • تواصل النضال عبر الأجيال
- 42 • النهاية الوشيكة لنظام البشير
- 48 • الكاستروية والثورة السودانية
- 55 • الشعب يريد إسقاط النظام
- 60 • حشرجت روح نظام البشير
- 68 • السودان ودونالد ترامب
- 76 • لا للجامعة العربية، سوق عكاظ، ولا مغلظة لأمينها العام أبو الغيط
- 89 • جيوبوليتيكا الشرق الأوسط
- 96 • الحالة السودانية المتردية
- 102 • سد النهضة وسدود الحسرة
- 110 • إلى جنات الخلد يا مصطفى عبد الماجد
- 119 • انهض يا صديقي حيدر
- 125 • ثمة اختطاف للثورة المصرية
- 135 • ما نتفه التوم النتيفة
- 143 • الأزمة السودانية المستفحلة
- 152 • رسالة إلى المناضل عمر الدقير
- 165 • إيران فوق بركان

176	• تحريك المياه السودانية الآسنة
185	• علاقات السودان الخارجية المأزومة
196	• اللاجئين السودانيون بالأردن
205	• في ذكرى صلاح أحمد إبراهيم
216	• النهاية الوشيكة لداعش
225	• الجنوب وبرق السلام الخلب
234	• التقية والرمال السودانية المتحركة
242	• حريائيات نظام الخرطوم الإخواني
252	• الشرق الأوسط البديل
260	• المكيدة الإخوانية الجديدة
266	• المهديّة السابقة والحالية
278	• امبراطوريات الرعب
291	• دبيب النمل الصيني في إفريقيا
299	• الورم الفاشستي الداعشي
307	• إيران والمالكي ونعوم تشومسكي



نبذة عن الكاتب - الفاضل عباس محمد علي

- ترعرع في سنار حيث انتقل الأبوان القادمان أصلاً من قنتي بالشمالية - مرورا بواد مدني مسقط رأسه - في النصف الأول من الأربعينات، حيث تلقى تعليمه الأولي بمدرسة سنار الابتدائية.
- درس المرحلة المتوسطة والثانوية بود مدني، ثم كلية معلمي الوسطي ببخت الرضا، (ثم سنتين بجامعة 17 نوفمبر ببراغ تشيكوسلوفاكيا - أغسطس 1971 / أغسطس 1973)، ثم واصل تعليمه بكلية الآداب بجامعة الخرطوم - 1978/1974، ثم ذهب مبعوثاً لبريطانيا حيث حصل علي دبلوم تدريس الإنجليزية من كلية موري هاوس بإدنبرا - وماجستير اللغويات 1981 - ثم ماجستير الفلسفة من جامعة ليدز 1985.
- كان من كوادر رابطة المعلمين الاشتراكيين ورئيس فرعها بسنار من 1966 حتى 1970، وسكرتيراً لهيئة التضامن مع حركات التحرر الإفريقية، وناشطاً بالعديد من المنظمات التضامنية مثل هيئة السلام السودانية ولجنة التضامن مع الشعب اليوناني ولجنة الدفاع عن أنجيلا ديفيز منذ بداية 1970 حتى 19 يوليو 1971.
- عمل بالتدريس في كل المراحل - الوسطي والثانوية والجامعية - وامتهن الترجمة خلال إقامته بالإمارات العربية المتحدة التي امتدت من 1990 حتى 2017.
- متزوج منذ مارس 1969 وله ثلاثة أولاد وثلاث بنات، جميعهم أكملوا تعليمهم الجامعي - وفوق الجامعي بالنسبة لبعض منهم - ويعملون بكافة مناحي الحياة بحفظ الله.

- ظل يساهم بالكتابة في العديد من الإصدارات منذ 1986، مثل صحيفة "الخرطوم" (نار التقابة)، وفيما بعد الانقلاب العسكري الذي جاء بحكومة الإنقاذ للحكم في يونيو 1989، صحيفة "الوفد" المصرية و"الاتحادي الدولية" الصادرة بالقاهرة، وصحيفة "أخبار العرب" وبعض الصحف الخليجية الأخرى والصحف الإلكترونية - الراكوبة وسودانيل وسودانيز أون لاين وحریات.
- صدر له من قبل: مملكتا قتيان وسياً (ترجمة - المجمع الثقافي بأبو ظبي عام 1999)؛ السودان يكون أو لا يكون، الناشر: جزيرة الورد، عام 2012؛ السودان في عام، دار الياسمين للنشر بالشارقة، عام 2014.

غيبض من فيض

- لا للجامعة العربية، سوق عكاظ، ولا مغلظة لأمينها العام أبو الغيط
- سد النهضة وسدود الحسرة
- الأزمة السودانية المستفحلة
- إيران فوق بركان
- تحريك المياه السودانية الآسنة
- علاقات السودان الخارجية المأزومة
- النهاية الوشيكة لداعش
- الجنوب وبرق السلام الخلب
- حريائيات نظام الخرطوم الإخواني
- الشرق الأوسط البديل
- إمبراطوريات الرعب